

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 057498832

إلى الأخ أ. محمود السيو
مع التحية
محمد ابن بهجة البيطار

تيسير اللطيف المنان

فى خلاصة تفسير القرآن

al-Saʻdī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Nāṣir.

تأليف علامة القصيم

عبد الرحمن بن ناصر السعدى

بارك الله فى علمه النافع

طبع على نفقة المؤلف وجماعة من المحسنين

١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩م

مطبعة الإمام
١٠ الدمالشة مصر عابدين

مصنفات المؤلف

(١) تفسير القرآن الكريم المسمى « تيسير الكريم المنان » فى ثمانى مجلدات أكمله فى عام ١٣٤٤ ولم يطبع .

(٢) حاشية على الفقه استدراكا على جميع الكتب المستعملة فى المذهب الحنبلى . ولم تطبع

(٣) ارشاد أولى البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب ، رتبه على السؤال والجواب ، طبع بمطبعة الترقى فى دمشق عام ١٣٦٥ على نفقة المؤلف ووزعه مجاناً

(٤) الدرة المختصرة فى محاسن الاسلام . طبع فى مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦

(٥) الخطب العصرية القيمة ، لما آل اليه أمر الخطابة فى بلده اجتهد أن يخطب فى كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت الحاضر فى المواضيع المهمة التى يحتاج الناس اليها ، ثم جمعها وطبعها مع الدرة المختصرة فى مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجاناً

(٦) القواعد الحسان لتفسير القرآن . طبعها فى مطبعة أنصار السنة عام ١٣٦٦

(٧) تنزيه الدين وحملته ورجاله ، مما افتراه القصيمى فى أغلاله ، طبع فى مطبعة دار احياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز « الشيخ محمد افندى نصيف » عام ١٣٦٦

(٨) الحق الواضح المبين ، فى شرح توحيد الأنبياء والمرسلين

(٩) توضيح الكافية الشافية . وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم

(١٠) وجوب التعاون بين المسلمين . وموضوع الجهاد الدينى ، وهذه الثلاثة الاخيرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية على نفقة المؤلف ووزعها مجانا

(١١) القول السديد فى مقاصد التوحيد ، طبع فى مصر « بمطبعة الامام » على نفقة عبد المحسن أبابطين عام ١٣٦٧ (١٢) مختصر فى أصول الفقه ، لم يطبع

(١٣) تيسير اللطيف المنان فى خلاصة تفسير القرآن ، وهو هذا الكتاب

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة فى أسئلة شتى ترد اليه من بلده وغيره ويجيب عليها ، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب . وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً ، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئاً كثيراً ، ومما كتب نظم ابن عبد القوى المشهور وأراد أن يشرحه شرحاً مستقلا فرآه شاقاً عليه ، فجمع بينه وبين الانصاف بخط يده ليساعد على فهمه فكان كالشرح له ، ولهذا لم نعده من مصنفاته .

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق ، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته ، لا لينال منها عرضاً زائلا ، أو يستفيد منها عرض الدنيا ، بل يوزعها مجاناً ليعم النفع بها . فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً . ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد فقد كنت كتبت كتاباً فى تفسير القرآن مبسوطاً مطولا يمنع القراء من الاستمرار بقرائته ، ويفتر العزم عن نشره ، فأشار علىّ بعض العارفين الناصحين أن أكتب كتاباً غير مطول يحتوى على خلاصة ذلك التفسير ، ونقتصر فيه على الكلام على بعض الآيات التى نختارها وننتقيها من جميع مواضيع علوم القرآن ومقاصده ، فاستعنت الله على العمل على هذا الرأى الميمون لأمور كثيرة : منها أنه بذلك يكون متيسراً على المشتغلين ، معيناً للقارئين ، ومنها أن القرآن العظيم ليس كغيره من الكتب فى الترتيب والتبويب ، لأنه بلغ فى البلاغة نهايتها ، وفى الحسن غايته ، وفى الأسلوب البديع ، والتأثير العجيب ماهو أكبر الأدلة على أنه كلام الله وتنزيل من حكيم حميد . فتجده فى آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد ، وبين الدليل والمدلول ، وبين الترغيب والترهيب وبين العلوم الأصولية والفروعية ، وبين العلوم الدينية والدنيوية والاخروية ، وبين الأغراض المتعددة والمقاصد النافعة ، ويعيد المعاني النافعة على العباد ، ليتم علمهم ، وتكمل هدايتهم ، ويستقيم سيرهم على الصراط المستقيم ، علما وعملا .

فالوقوف على تفسير بعض القرآن يعين أعظم عون على معرفة باقيه ، والله جعله مثانى تثنى فيه العلوم النافعة ، والمعانى الجليلة الكاملة ، وهذا من تيسيره تعالى لكتابه ، قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟)

ومما يدعو إلى هذا ما تحتوى عليه هذه المقدمة المذكورة بقولنا .

مقدمة

« فى ذكر أوصاف القرآن العامة الجامعة »

قد وصف الله كتابه بأوصاف جليلة عظيمة تنطبق على جميعه ، وتدل أكبر دلالة على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة ، والفنون المرشدة لخير الدنيا والآخرة

وصفه بالهدى والرشد ، والفرقان ، وأنه مبين وتبيان لكل شىء ، فهو فى نفسه هدى ، ويهدى الخلق لجميع ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم إلى كل طريق نافع ، ويفرق لهم بين الحق والباطل ، والهدي والضلال ، وبين أهل السعادة والشقاوة بذكر أوصاف الفريقين ، وفيه

بيان الأصول والفروع بذكر أدلتها النقلية والعقليـة ، فوصفه بهذه الأوصاف المطلقة العامة التى لا يشـذ عنها شىء فى آيات كثيرة .

وقيد هدايتـه فى بعض الآيات بعدة قيود : قيد هدايته بأنه هدى للمؤمنين ، المتقين ، لقوم يعقلون ، ويتفكرون ، ولمن قصده الحق . وهذا بيان منه تعالى لشرط هدايته ، وهو أن المحل لابد أن يكون قابلا وعاملا ، فلا بد لهدايته من عقل وتفكير وتدبر لآياته ، فالمعرض الذى لا يتفكر ولا يتدبر آياته لا ينتفع به ، ومن ليس قصده الحق ولا غرض له فى الرشاد ، بل قصده فاسد وقد وطن نفسه على مقاومته ومعارضته ، ليس له من هدايته نصيب ، فالأول حرم هدايته لفقد الشرط والثانى لوجود المـانع ، فأما من أقبل عليه وتفكر فى معانيه وتدبرها بحسن فهم ، وحسن قصد ، وسلم من الهوى ، فانه يهتدى به إلى كل مطلوب ، وينال به كل غاية جليلة ومرغوب

ووصفه بأنه رحمة ، وهى الخير الدينى والدنيوى والأخروى المترتب على الاهتداء بالقرآن ، فـكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك

ووصفه بأنه نور ، وذلك لبيانه وتوضيحه العلوم النافعة ، والمعانى الـكاملة ، وأن به يخرج العبد من جميع الظلمات : ظلمات الجهل والـكفر والمعاصى والشقاء ، إلى نور العلم واليقين والايمان والطاعة والرشاد المتنوع .

ووصفه بأنه شفاء لمـا فى الصدور ، وذلك يشمل جميع أمراض القلوب ، فهو يوضح أمراض القلوب ويشخصها ، ويرشد العباد إلى كل وسيلة يحصل بها زوالها وشفاؤها ، فيذكر لهم أمراض الجهل والشكوك والحيرة وأسباب ذلك ، ويرشدهم إلى قلعها بالعـلوم النافعة واليقين الصادق ، وسـلوك الطرق الصحيحة المزيلة لهـذه العلل ، ويذكر لهم أمراض الشهوات والغى ، ويبين لهم أسبابها وعـلاماتها وآثارها الضارة ، ويذكر لهم ما به تعالج من المواعظ والتـذكر والترغيب والترهيب ، والمقابلة بين الامور وترجيح ما ترجحت مصلحته العاجلة والآجلة

ووصفه بأنه كله محكم ، وكله متشابه فى الحسن ، وبعضه متشابه من وجه ، محكم من وجه آخر

فأما وصفه فى عدة آيات أنه كله محكم ، فلبلاغته وبيانه التام واشتماله على غاية الحكمة فى تنزيل الأمور منازلها ، ووضعها مواضعها ، وأنه متفق غير مختلف ، ليس فيه اختلاف ولا تناقض بوجه من الوجوه ؛ وأما حسنه فلما فيـه من البيان التام لجميع الحقائق ، ولأنه بين أحسن المعاني النافعة فى العقائد والأخلاق والآداب والاعمال ، فهى فى غاية الحسن لفظا ومعنى ، وآثارها أحسن الآثار ، وكل هذه المعانى المثناة فى القرآن يشهد بعضها لبعض فى الحسن والـكمال ، ويصدق بعضها بعضا . وأما وصفه بأن منه آيات محكمات هن أم الـكتاب ، وأخر متشابهات ، فالمتشابهات هى التى يقع الاشكال فى دلالتها لسبب من الأسباب اللفظية والعبارات المركبة ، فأمر الله بردها إلى

المحكمات الواضحة بينة المعانى التى هى نص فى المراد ، فاذا ردت المتشابهات إلى المحكمات صارت كلها محكمات ، وزال الشك والاشكال ؛ وحصل البيان للهدى من الضلال .

ووصفه بأنه كله صلاح ويهدى إلى الاصلاح ، وإلى أقوم الأمور وأرشدها وأنفعها فى كل شىء من دون استثناء . وهذا الوصف المحيط لايخرج عنه شىء ، فهو اصلاح للعقائد والقلوب ، وللأخلاق والأعمال ، ويهدى إلى كل صلاح دينى ودنيوى بحيث تقوم به الأمور ، وتعتدل به الأحوال ، ويحصل به الكمال المتنوع من كل وجه بالارشاد إلى كل وسيلة نافعة تؤدى إلى المقاصد والغايات المطلوبة ، فلا سبيل إلى الهداية والصلاح والاصلاح لجميع الأمور إلا بسلوك الطرق التى أرشد اليها القرآن ، وحث العباد عليها .

فمتى عرفت أن القرآن العظيم موصوف كله بهذه الأوصاف التى هى أعلى الاوصاف وأكملها وأتمها وأنفعها للعباد ، وأنه أعيدت فيه هذه المعانى الجليلة ومزجت فيه مزجاً عجيباً غريباً فى كماله وحسنه ، فهمت أن طالب العلم إذا وقف على تفسير بعض الآيات تدرب بها وتوسل بها إلى معرفة بقية الآيات .

لهذه الأسباب وغيرها رأينا أن المصلحة تدعو إلى الاقتصار على خلاصة ذلك التفسير ؛ راجين من الرب أن يتم نعمته وأن يحصل به المقصود ؛ ورأينا أن الأحسن أن نذكر كل موضوع على حدته لما فيه من التقريب والسهولة وجمع المعاني التى من فن واحد فى موضع واحد ، مع أنه كما تقدم لابد أن يدخل فى آيات الأصول كثير من الفروع ؛ وفى آيات الفروع كثير من الاصول ، ويدخل فيها من الترغيب والترهيب والقصص شىء كثير ، وهذا المزج العجيب من كمال القرآن وعظم تأثيره فانه كتاب تعليم يزيل الجهالات المتنوعة ، وكتاب تربية يقوم الاخلاق والأعمال ، فهو يعلم ويقوم ويهذب ويؤدب بأعلى ما يكون من الطرق التى لايمكن الحكماء والعقلاء أن يقترحوا مثلها ولا ما يقاربها .

علوم التوحيد والعقائد والاصول

١ - بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

أى أبتدىء بكل اسم لله تعالى ، لأن لفظ « اسم » مفرد مضاف فيعم جميع أسماء الله الحسنى فيكون العبد مستعيناً بربه وبكل اسم من أسمائه على ما يناسبه من المطالب ، وأجل ما يستعان به على عبادة الله ، واجل ذلك الاستعانة على قراءة كلام الله ، وتفهم معانيه ، والاهتداء بهديه

« الله » هو المألوه المستحق لافراده بالمحبة والخوف والرجاء وأنواع العبادة كلها لما اتصف به

من صفات الكمال ، وهى التى تدعو الخلق إلى عبادته والتأله له (الرحمن الرحيم) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شىء ، وعمت كل مخلوق ، وكتب الرحمة الكاملة للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله ؛ فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة المتصلة بالسعادة الأبدية ، ومن عداهم محروم من هذه الرحمة الكاملة ، لأنه الذى دفع هذه الرحمة وأباها بتكذيبه للخبر ، وتوليه عن الأمر ، فلا يلومن إلا نفسه .

واعلم ان من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة من الايمان بأسماء الله كلها ، وصفاته جميعها ، وبأحكام تلك الصفات ، فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم ذو الرحمة العظيمة التى اتصف بها المتعلقة بالمرحوم ؛ فالنعم كلها من آثار رحمته ، وهكذا يقال فى سائر الأسماء الحسنى ؛ فيقال عليم : ذو علم عظيم يعلم به كل شىء ، قدير ذو قدرة يقدر على كل شىء ، فان الله قد أثبت لنفسه الاسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وأحكام تلك الصفات ، فمن أثبت شيئاً منها ونفى الآخر ، كان مع مخالفته للنقل والعقل متناقضاً مبطلا .

« الحمد لله » الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل المشتملة على الحكمة التامة ، ولا بد فى تمام حمد الحامد من اقتران محبة الحامد لربه وخضوعه له ، فالثناء المجرد من محبة وخضوع ليس حمداً كاملا .

« رب العالمين » الرب هو المربى جميع العالمين بكل أنواع التربية ، فهو الذى خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، وهذه التربية العامة لجميع الخلق ، برهم وفاجرهم ، بل المكلفون منهم وغيرهم ، وأما التربية الخاصة لأنبيائه وأوليائه ، فانه مع ذلك يربى إيمانهم فيكمله لهم ، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق التى تحول بينهم وبين صلاحهم وسعادتهم الأبدية ، وتيسيرهم لليسرى وحفظهم من جميع المكاره ، وكما دل ذلك على انفراد الرب بالخلق والتدبير والهداية وكمال الغنى ، فانه يدل على تمام فقر العالمين اليه بكل وجه واعتبار ، فيسأله من فى السموات والأرض بلسان المقال والحال جميع حاجاتهم ويفزعون اليه فى مهماتهم

« مالك يوم الدين » المالك هو من اتصف بالصفات العظيمة الكاملة التى يتحقق بها الملك التى من آثارها أنه يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويتصرف فى العالم العلوى والسفلى التصرف التام المطلق بالأحكام القدرية والاحكام الشرعية ، وأحكام الجزاء ، فلهذا أضاف ملكه ليوم الدين مع أنه المالك المطلق فى الدنيا والآخرة ، فانه يوم القيامة الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيرها وشرها ، ويرتب عليها جزاءها ، وتشاهد الخليقة من آثار ملكه وعظمته وسعته ، وخضوع الخلائق كلهم لعظمته وكبريائه ، واستواء الخلق فى ذلك اليوم على اختلاف طبقاتهم فى نفوذ أحكامه عليهم مايعرفون به كمال ملكه وعظمة سلطانه

« إياك نعبد وإياك نستعين » أى نخصك يا ربنا وحدك بالعبادة والاستعانة فلا نعبد غيرك ؛ ولا نستعين بسواك ، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، فهى القيام بعقائد الايمان وأخلاقه وأعماله محبة لله وخضوعاً له ، والاستعانة هى الاعتماد على الله فى جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به فى حصول ذلك ، وهذا التزام من العبد بعبودية ربه ، وطلب من ربه أن يعينه على القيام بذلك ، وبذلك يتوسل إلى السعادة الأبدية والنجاة من جميع الشرور ، فلا سبيل لذلك إلا بالقيام بعبادة الله والاستعانة به ، وعُلم بذلك شدة افتقار العبد لعبادة الله والاستعانة به .

« اهدنا الصراط المستقيم » أى دلنا وارشدنا ووفقنا للعلم بالحق والعمل به ، الذى هو الصراط المستقيم المعتدل الموصل إلى الله وإلى جنته وكرامته ، وهذا يشمل الهداية إلى الصراط ، وهى التوفيق للزوم دين الاسلام ، وترك ما سواه من الأديان الباطلة ، ويشمل الهداية فى الصراط وقت سلوكه علما وعملا ؛ فهذا الدعاء من أجمع الادعية وأنفعها للعبد ، ولهذا أوجبه الله ويسره ، وهذا الصراط هو طريق و« صراط الذين أنعمت عليهم » بالنعمة التامة المتصلة بالسعادة الأبدية ، وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون « غير المغضوب عليهم » وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم « ولا الضالين » الذين ضلوا عن الحق كالنصارى ونحوهم .

فهذه السورة على ايجازها قد جمعت علوماً جمة تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة : توحيد الربوبية يؤخذ من قوله ، رب العالمين ، وتوحيد الالهية من قوله ، إياك نعبد وإياك نستعين ، فهو المألوه بعبادته والاستعانة به .

وتوحيد الاسماء والصفات بأن يثبت لله صفات الكمال كلها التى أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ . وقد دل على ذلك إثبات الحمد لله ؛ فان الاسماء الحسنى والصفات العليا ، وأحكامها كلها محامد ومدائح لله تعالى ، وتضمنت اثبات الرسالة فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم . لأنه الطريق الذى عليه النبى ﷺ . وذلك فرع عن الايمان بنبوته ورسالته ، وتضمنت اثبات الجزاء وانه بالعدل ، وذلك مأخوذ من قوله : مالك يوم الدين .

وتضمنت اثبات مذهب أهل السنة والجماعة فى القدر ، وأن جميع الاشياء بقضاء الله وقدره وأن العبد فاعل حقيقة ليس مجبوراً على أفعاله . وهذا يفهم من قوله : إياك نعبد وإياك نستعين . فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى اعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة ، وتضمنت أصل الخير ومادته ، وهو الاخلاص الكامل لله فى قول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين .

ولما كانت هذه السورة بهذه العظمة والجلالة أوجبها الشارع على المكلفين فى كل ركعة من صلاتهم فرضاً ونفلا ، وفيها تعليم من الله لعباده كيف يحمدونه ويثنون عليه ويمجدونه بمحامده

ثم يسألون ربهم جميع مطالبهم ، ففيها دليل على افتقارهم إلى ربهم فى الأمرين ؛ مفتقرين اليه فى أن يملأ قلوبهم من محبته ومعرفته ، ومفتقرين اليـه فى أن يقوم بمصالحهم ويوفقهم لخدمته ، والحمد لله رب العـالمين . .

٢ - قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينـا ، وما أُنزل إلى ابراهيم واسماعيـل واسحاق ويعقوب والأسبـاط ، وما أُوتي موسى وعيسى ، وما أُوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحـد منهم ونحن له مسلمون .

هذه الآية الـكريمة لها شأن كبير ، كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها كثيراً فى الركعة الأولى من سنة الصبح ، وقد اشتملت على جميع مايجب الايمان به ، فان الايمان الشرعى هو تصديق القلب التام واقراره بهذه الأصول المتضمن لأعمال الجوارح ولأعمال القلوب ؛ وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الاسلام وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها ، فهى إيمان ، وهى من آثار الايمـان . فاذا أُطلق الايمان دخل فيه ما ذكر ، وكذلك إذا أطلق الاسلام فانه يدخل فيـه الايمان ، فاذا قرن بين الاسـلام والايمان ، فسر الايمان بمـا فى القلب من العقائد الصحيحة والارادات الصالحة ، وفسر الاسلام بالأعمال الظاهرة .

وكذلك إذا جمع بين الايمان والعمل الصالح ، الايمان لما فى الباطن ، والعمل الصالح هو الظاهر ومع اطلاق الايمان يدخل فيه العمل الصالح ، كما فى كثير من الآيات ، فقوله تعالى (قولوا آمنا بالله) إلخ . أى قولوا ذلك بألسنتكم متواطئة عليها قلوبكم ، وهذا هو القول التام الذى يترتب عليـه الثواب والجزاء ؛ فـكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب ليس بايمان ، بل هو نفاق ، فـكذلك القول الخالى من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة ، وفى قوله « قولوا » اشارة إلى الاعلان بالعقيدة والصدع بها والدعوة لها ؛ إذ هى أصل الدين وأساسه ، وفى مثل قوله : آمنا . وما أشبهها من الآيات التى يضاف الفعل فيها إلى ضمير الجمع اشارة إلى أنه يجب على الأمة الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف والنهى عن الافتراق ، وأن المؤمنين كالجسد الواحد عليهم السعى لمصالحهم كلها جميعاً والتناصح التام ، وفيه دلالة على جواز اضافة الانسان إلى نفسه الايمان على وجه التقييد بأن يقول أنا مؤمن بالله ؛ كما يقول آمنت بالله ، بل هذا الأخير من أوجب الواجبات ، كما أمر الله به أمراً حتما بخلاف قول العبد : أنا مؤمن ونحوه ، فانه لايقال إلا مقروناً بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس لأن الايمان المطلق يشمل القيام بالواجبات وترك المحرمات ، فهو كقوله أنا متقى أو ولى أو من أهل الجنة ، وهذا التفريق هو مذهب محققى أهل السنة والجماعة .

فقوله (آمنا بالله) أى بأنه واجب الوجود ، واحد أحد فرد صمد متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص مستحق لافراده بالعبودية كلها ، وهو يتضمن الاخلاص التام « وما أُنزل الينا »

يدخل فيه الايمان بألفاظ الكتاب والسنة ومعانيهما، كما قال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) فيدخل فى هذا الايمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله من أسماء الله وصفاته وأفعاله وصفات رسله واليوم الآخر والغيوب كلها والايمان بما تضمنه الكتاب والسنة أيضاً من الأحكام الشرعية الأمر والنهى وأحكام الجزاء وغير ذلك، (وما أنزل إلى ابراهيم) إلخ. فيه الايمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء والايمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليهم منهم فى الآية الكريمة وغيرها لشرفهم ولكونهم أتوا بالشرائع الكبار، فمن براهين الاسلام ومحاسنه، وأنه دين الله الحق: الأمر بالايمان بكل كتاب أنزله الله وكل رسول أرسله الله مجملا ومفصلا، فكل من ادعى أنه على دين حق كاليهود والنصارى ونحوهم فانهم يتناقضون فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، فيبطل كفرهم وتكذيبهم تصديقهم، ولهذا أخبر عنهم أنهم الكافرون حقاً، وأنه لا سبيل يسلك إلى الله إلا سبيل الايمان بجميع الرسل وبجميع الكتب المنزلة على الرسل، وفى قوله (وما أُوتى النبيون من ربهم) برهان على أن الأنبياء وسائط بين الله وبين خلقه فى تبليغ دينه، وأنه ليس لهم من الأمر شىء، وفى الإخبار بأنه من ربهم، بيان أن من كمال ربوبيته لعباده التربية التامة أنه أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعلموهم ويزكوهم ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، وأنه لايليق بربوبيته وحكمته أن يتركهم سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

ويفهم من الآية الكريمة الفرق بين الأنبياء الصادقين، وبين من يدعى النبوة من الكاذبين فان الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً؛ ويشهد بعضهم لبعض؛ ويكون كل ماجاءوا به متفقاً لايتناقض لأنه من عند الله محكم منتظم، وأما الكذبة فانهم لابد أن يتناقضوا فى أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم ويعلم كذبهم بمخالفته لما يدعو اليه الأنبياء الصادقون.

فلما بين تعالى جميع ما يجب الايمان به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لايغنى عن العمل، قال: ونحن له مسلمون. أى خاضعون لعظمته منقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له بذلك فان تقديم المعمول على العامل يدل على الحصر، فهذه الاصول المذكورة فى هذه الآية قد أمر الله بها فى كتابه فى عدة آيات من القرآن اجمالا وتفصيلا، وأثنى على القائمين بها، وأخبر بما يترتب عليها من الخير والثواب؛ وأنها تكمل العبد وترقيه فى عقائده وأخلاقه وآدابه، وتجعله عدلا معتبراً فى معاملاته، وتوجب له خير الدنيا والآخرة؛ ويحيا بها الحياة الطيبة فى الدارين؛ وتجلب له السعادتين، وتدفع عنه شرور الدنيا والآخرة. وقد أخبر فى هذه السورة أن الرسول والمؤمنين قاموا بهذه الأصول علماً وتصديقاً واقراراً وعملا ودعوة وهداية وارشاداً، فكُتب أهل العلم المصنفة فى العقائد كلها تفصيل لما فى هذه الآية الكريمة.

٣ — الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لاتأخذه سنة ولانوم، له مافى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم .

قد أخبر النبى ﷺ أن هـذه الآية أعظم آيات القرآن على الاطلاق ، وأنها تحفظ قارئها من الشياطين والشرور كلها ، لما احتوت عليه من معانى التوحيد والعظمه وسعة صفات الكمال لله تعالى فأخبر أنه الله الذى له جميع معانى الألوهية ، وأنه لايستحق الألوهية غيره ، فألوهية غيره وعبادة غيره باطلة ضارة فى الحال والمآل ، وعبادته وحـده لا شريك له هى الحق الموصلة إلى كل كمال ؛ وأنه الحىّ كامل الحياة ، فمن كمال حياته أنه السميع البصير القدير المحيط علمه بكل شىء ، الكامل من كل وجه ؛ فالحى يتضمن جميع الصفات الذاتيـة ، والقيوم الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع المخلوقات وقام بها فأوجدهاوأبقاها وأمدّها بكل ماتحتاج اليه فى بقائها ، فالقيوم يتضمن جميع صفات الأفعال ، ولهذا ورد أن اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى (الله لاإله إلا هو الحى القيوم) فان هذين الاسمين الكريمين يدخل فيهما جميع الكمالات الذاتية والفعلية ، ومن كمال حياته وقيوميته أنه لاتأخذه سِنة أى نعاس ، ولا نوم ، لأنهما انما يعرضان للمخلوق الذى يعتريه الضعف والعجز والانحلال ، وينزه عنهما ذو العظمة والكبرياء والجلال .

وأخبر أنه مالك لجميع ما فى السموات وما فى الارض ، فكلهم عبيده ومماليكه لايخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم ؛ فهو المالك لجميع الممالك ، وهو الذى اتصف بصفات الملك الكامل والتصرف التام النافذ ، والسلطان والكبرياء .

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه ؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم (قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض) ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله ، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله ، فمن لم يتصف بهذا فليس له فى الشفاعة نصيب ، وأسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال : لاإله إلاالله خالصاً من قلبه .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدى الخلائق من الأمور المستقبلة التى لانهاية لها «وما خلفهم» من الأمور الماضية التى لا حد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلافى كتاب مبين ، وأن الخلق لايحيط أحد منهم بشىء من علم الله ولا معلوماته إلا بما شاء منهما وهو ما اطلعهم عليه من الامور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جداً بالنسبة إلى علم البارى تضمحل العلوم كلها فى علم البارى ومعلوماته ، كما قال أعلم المخلوقات وهم الرسل والملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا »

ثم أخبر عن عظمته وجلاله ، وأن كرسيه وسع السموات والأرض ، وأنه قد حفظهما بمافيهما من العوالم، بالأسباب والنظامات التي جعلها الله فى مخلوقاته ومع ذلك فلايؤوده ، أى يثقله حفظهما لكمال عظمته وقوة اقتداره وسعة حكمته فى أحكامه ، وهو العلى ، بذاته على جميع مخلوقاته ، فهو الرفيع الذى باين جميع مخلوقاته ؛ وهو العلى بعظمة صفاته الذى له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفات أكملها ومنتهاها ، وهو العلى الذى قهر جميع المخلوقات ، ودانت له كل الموجودات ، وخضعت له الصعاب وذلت له الرقاب «العظيم» الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد ، الذى تحبه القلوب وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل موجود وإن جلت عن الصفة ، فانها مضمحلة فى جانب عظمة العلى العظيم ، فتبارك الله ذو الجلال والاكرام .

فآية احتوت على هذه المعاني التى هى أجلّ المعانى وأفرضها على العباد ؛ يحق أن تكون أعظم آيات القرآن ، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهما أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والايمان ، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان ، وقد نعت البارى نفسه الكريمة بهذه الأوصاف فى عدة آيات من كتابه :

٤ — شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ؛ لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

هذه أجل الشهادات على الاطلاق ؛ فانها صدرت من الملك العظيم ، ومن ملائكته وأنبيائه وأهل العلم على أجل مشهود عليه ؛ وهو توحيد الله وقيامه بالقسط ، وذلك يتضمن الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء ؛ فان الدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والجلال ، وبنعوت الجود والبر والرحمة والاحسان والجمال ، وبكماله المطلق الذى لا يحصى أحد من الخلق أن يحيطوا بشىء منه أو يبلغوه أو يصلوا إلى الثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه عباده .

وأما القسط فهو العدل الكامل والله تعالى هو القائم بالعدل فى شرعه وخلقه وجزائه ؛ فان العبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها ، والأمر والنهى كله عدل وقسط ، لا ظلم فيه بوجه من الوجوه ، بل هو فى غاية الاحكام والانتظام ، وفى غاية الحكمة والجزاء على الاعمال ، كله دائر بين فضل الله واحسانه على الموحدين المؤمنين به ، وبين عدله فى عقوبة الكافرين والعاصين ، فانه لم يهضمهم شيئاً من حسناتهم ، ولم يعذبهم بغير ما كسبوا « ولا تزر وازرة وزر اخرى » قال تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل الله »

فتوحيد الله ودينه قد ثبت ثبوتاً لاريب فيه ، وهو أعظم الحقائق وأوضحها ، وقد شهد الله

له بذلك بما أقام من الآيات والبراهين والحجج المتنوعة عليه ، ومن شهادته تعالى أنه أقام أهل العلم العارفين بهذه الشهادة ، فانهم المرجع للعباد فى تحقيق كل حق وإبطال كل باطل ، لما خصهم الله به من العلم الصحيح واليقين التام والمعرفة الراسخة .

وهذا من جملة فضائل العلم وأهله ، فان الله جعلهم وسائط بينه وبين عباده يبلغونهم توحيده ودينه وشرائعه الظاهرة والباطنة ، وأمر الناس بسؤالهم والرجوع إلى قولهم ، وانهم هم الأئمة المتبوعون ، وغيرهم تابع لهم فى الدنيا والآخرة . ولهذا لهم الكلمة الرفيعة حتى فى الآخرة ، لما ذكر تعالى اختصام الخلق واختلافهم ، ذكر القول الفصل فى ذلك الصادر من أهل العلم (وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون)

وفى هذا دليل على كمال عدل أهل العلم ؛ فان الله استشهد بهم على عباده ، وذلك تعديل منه لهم ، وفى هذا من الشرف وعلو المكانة مالا يخفى .

٥ — ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾

العلم لا بد فيه من اقرار القلب ، ومعرفته بمعنى ما طلب منه علمه ، ولا يتم ذلك إلا بالعمل بمقتضى ذلك العلم فى كل مقام بحسبه ؛ وهذا العلم الذى أمر الله به فرض عين على كل انسان لا يسقط عن أحد ، كائناً من كان .

والضرورة إلى هذا العلم والعمل بمقتضاه من تمام التأله لله فوق كل ضرورة ، والعلم بالشىء يتوقف على معرفة الطريق المفضى إلى معرفته وسلوكها ، والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا هو) على وجه الاجمال والعموم أمور :

أحدها : وهو أعظمها وأوضحها وأقواها تدبر أسماء الله وصفاته وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلاله ؛ فان معرفتها توجب العلم بأنه لا يستحق الألوهية سواه ، وتوجب بذل الجهد فى التأله والتعبد لله الكامل الذى له كل حمد ومجد وجلال وجمال .

الثانى : العلم بأنه الرب المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ، فبذلك يعلم أنه المنفرد بالألوهية

الثالث : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية ، فان ذلك يوجب تعلق القلب به محبة وإنابة ، والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع : ما يراه العباد ويسمعونه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر لرسله وأتباعهم ، ومن النعم العاجلة المشاهدة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فان هذا برهان على أنه وحده المستحق للألوهية .

الخامس : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التى عُبدت مع الله واتخذت آلهة وأنها فقيرة إلى الله من كل وجه ، ناقصة من كل وجه ، لا تملك لنفسها ولا لمن عبدها نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فالعلم بذلك يعلم به بطلان إلهيتها ، وأن مايدعون من دون الله هو الباطل وأن الله هو الاله الحق المبين .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك وتواطؤها عليه .

السابع : اتفاق الأنبياء والرسل والعلماء الربانيين على ذلك وشهادتهم به ، وهم خواص الخلق وأكملهم أخلاقاً وعقولا وعلما ويقيناً .

الثامن : ماأقامه الله من الأدلة والآيات الأفقية والنفسية التى تدل على التوحيد أعظم دلالة وأوضحها وتنادى عليه بلسان المقال ولسان الحال بما أودعها من لطائف صنعته وبديع حكمته وغرائب خلقه

التاسع : ماأودعه الله فى شرعه من الآيات المحكمة والأحكام الحسنة والحقوق العادلة والخير الكثير وجلب المنافع كلها ودفع المضار ، ومن الاحسان المتنوع ، وذلك يدل أكبر دلالة أنه الله الذى لا يستحق العبادة سواه . وأن شريعته التى نزلت على ألسنة رسله شاهدة بذلك .

فهذه الطرق التى لاتحصى أنواعها وأفرادها قد أبداها الله فى كتابه وأعادها ونبه بها العباد على هذا المطلوب الذى هو أعظم المطالب وأجل الغايات ، فمن سلك طريقاً من هذه الطرق أفضت به إلى العلم واليقين بأنه لا إله إلا هو ، وكلما ازداد العبد سلوكا لهذه الطرق ورغبة فيها ومعرفة ازداد يقينه ورسخ إيمانه ، وكان الايمان فى قلبه أرسخ من الجبال ، وأحلى من كل لذيذ وأنفس من كل نفيس .

والطريق الأعظم الجامع لذلك كله تدبر القرآن العظيم والتأمل فى آياته ، فانه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله مالا يحصل من غيره وقوله (واستغفر لذنبك) أى اطلب من ربك المغفرة لذنبك بأن تفعل الأسباب التى تحصل بها المغفرة من الدعاء بالمغفرة والتوبة النصوح ، وفعل الحسنات الماحية ، وترك الذنوب والعفو عن الخلق والاحسان اليهم ، ومن ذلك الاستغفار لهم . فلهذا قال (وللمؤمنين والمؤمنات) فهذا من ثمرات الايمان بسبب إيمانهم كان لهم حق على كل مسلم أن يدعو لهم بالمغفرة ، وإذا كان العبد مأموراً بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحا لهم يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه ، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر ، ويعفو عن معائبهم ومساويهم ويحرص على اجتماعهم اجتماعا تتألف به قلوبهم ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للعداة والشقاق ، فانه بالائتلاف تقل الذنوب وبالافتراق تكثر الشرور والمعاصى (والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى تصرفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم وما اليه تنتهون وبه تستقرون فهو المحيط بكم فى كل أحوالكم ، وهذا فيه التخويف والترغيب من الجزاء على الأعمال حسنها وسيئها

٦ — هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور ، له الاسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى التى عليها مدار التوحيد والاعتقاد ، فأخبر أنه المألوه الذى لا يستحق العبادة سواه ، وذلك لكماله العظيم واحسانه الشامل وتدبيره العام وحكمه الشاملة . فهو الاله الحق وما سواه فعبوديته باطلة لأنه خال من الكمال ومن الافعال التى فيها النفع والضر ، ووصف نفسه بالعلم المحيط بما حضر وغاب وما مضى وما يستقبل وما هو حاضر وما فى العالم العلوى وما فى العالم السفلى وما ظهر وما بطن ، فلا تخفى عليه خافية فى مكان من الامكنة ولا زمان من الازمنة ، ومن كمال علمه وقدرته أنه يعلم ما تنقص الارض من الأموات وما تفرق من أجزائهم وما استحال من حال إلى حال ، أحاط علماً بذلك على وجه التفصيل فلا يعجزه اعادتهم للبعث والجزاء ، ووصف نفسه بأنه (الرحمن الرحيم) الذى وسعت رحمته الخليقة بأسرها وملأت الوجود كله ، ووصف نفسه بأنه (الملك) وهو الذى له الملك التام المطلق ، له صفات الملك التى هى نعوت العظمة والكبرياء والعز والسلطان . وله التصرف المطلق فى جميع الممالك الذى لا ينازعه فيه منازع ، والموجودات كلها عبيده وملكه ليس لهم من الأمر شىء .

وأخبر أنه (القدوس السلام) أى المقدس المعظم السالم من جميع العيوب والنقائص المنافية لكماله (المؤمن) المصدق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به من الآيات البينات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات . الذى له العلم كله ويعلم من أوصافه المقدسة ونعوته العظيمة ما لا يعلمه بشر ولا ملك ويحب نفسه وما هو عليه من الجلال والجمال (العزيز) الذى له العزة كلها ، عزة القوة والقدرة ، فهو القوى المتين ، وعزة القهر والغلبة لكل مخلوق ، فكلهم نواصيهم بيده وليس لهم من الامر شىء ، وعزة الامتناع الذى تمنع بعزته عن كل مخلوق فلا يعارض ولا يمانع ، وليس له نديد ولا ضديد (الجبار) الذى قهر جميع المخلوقات ودانت له الموجودات واعتلا على الكائنات وجبر بلطفه واحسانه القلوب المنكسرات (المتكبر) عن النقائص والعيوب ، وعن مشابهة أحد من خلقه ومماثلتهم لعظمته وكبريائه (سبحان الله عما يشركون) وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به ولم يقدره حق قدره (هو الله الخالق) لجميع المخلوقات (البارىء) بحكمته ولطفه لجميع البريات المصور بحسن خلقه لجميع الموجودات ، أعطى كل شىء خلقه ثم هدى كل مخلوق وكل عضو لما خلق له وهيء له .

فالله تعالى قد تفرد بهذه الأوصاف المتعلقة بخلقه لم يشاركه فى ذلك مشارك ، وهذا من براهين توحيده ، وأن من تفرد بالخلق والبرء والتصوير فهو المستحق للعبودية ونهاية الحب وغاية الخضوع (له الأسماء الحسنى) وقد ورد فى الحديث الصحيح أن لله تسعة وتسعين اسماً ؛ مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة - يعنى أحصى ألفاظها وحفظها وعقلها وتعبد الله بها - فهو تعالى الذى له كل اسم حسن ؛ وكل صفة جلال وكمال ، فيستحق من عباده كل اجلال وتعظيم وحب وخضوع (يسبح له ما فى السموات والأرض) يعنى من المكلفين والحيوانات والأشجار والجمادات « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفوراً » وهو العزيز الحكيم ، فى خلقه وشرعه .

٧ - بسم الله الرحمن الرحيم «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

أى قل قولا جازماً فيه معتقداً له عارفاً بمعناه عاملا بمقتضاه من الايمان بالله والتعظيم والخضوع ، هو الله أحد ، أى الذى انحصرت فيه الأحدية ، وهى التفرد بكل صفة كمال الذى لا يشاركه فى ذلك مشارك ، الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى والافعال المقدسة والتصرف المطلق « الله الصمد » أى السيدالذى قد انتهى سؤدده ؛ العليم الذى قد كمل علمه ، الحليم الذى قد كمل فى حلمه وفى قدرته وفى جميع أوصاف كماله ، ولأجل هذا صمدت له المخلوقات كلها وقصدته فى كل حاجاتها وفزعت اليه الخليقة فى مهماتها وملماتها .

فالصمد هو الذى صمدت له المخلوقات لما اتصف به من جميع الكمالات ، ومن كماله أنه لم يلد ولم يولد ، لأنه الغنى المالك ؛ فاتخاذ الولد ينافى ملكه وغناه « ولم يكن له كفواً أحد » أى ليس له مكافىء ولا مثيل فى أسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى .

فهذه السورة أصل عظيم من أصول الايمان ، وقد تضمنت توحيد الاسماء والصفات ، ومن لوازم ذلك توحيد الالهية ، وأن المتفرد بالوحدانية من كل وجه ، الذى ليس له مثيل بوجه من الوجوه ، هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، لا إله إلا هو .

٨ - « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »

يخبر تعالى وهو أصدق القائلين ؛ أنه إله واحد ؛ أى متوحد منفرد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فليس له شريك ولا سمى له ، ولا كفو ولا مثل ولا نظير ولا خالق ولا مدبر غيره ، فاذا تقرر أنه كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة ولا يشرك به أحد من خلقه لأنه الرحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة التى لا يماثلها رحمة أحد ، فقد وسعت كل شىء وعمت كل حى ، فبرحمته وجدت المخلوقات ، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات ، وبرحمته اندفع

عن العباد كل نقمة ، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلائه ، و بين لهم كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ومصالح دنياهم بارسال الرسل وانزال الكتب ، فاذا علم أن ما بالعباد من نعمة دقت أو جلت فمن الله ، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً ، علم أنه لا يستحق العبادة إلا المتفرد بالنعم ، الدافع للمكاره ، وتعين على العباد أن يفردوه بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل وغير ذلك من أنواع الطاعات ، وإن من أظلم الظلم وأقبح القبيح وأعظم الضلال أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد ، وأن يشرك المخلوقين من تراب، بالرب العظيم ، وأن يسوى المخلوق العاجز القاصر الناقص من كل وجه ،بالرب الخالق المدبر القوى الذى قهر كل شيء ، وخضعت له الرقاب .

فنى هذه الآية اثبات وحدانية البارىء وإلهيته ، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين ، والاستدلال على ذلك بتفرده بالرحمة التى من آثارها جميع البر والاحسان فى الدنيا والآخرة ، ثم ذكر الله الأدلة التفصيلية بقوله

٩ - « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيهامن كل دابة وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون .

أخبر تعالى أن فى هذه المخلوقات العظيمة آيات ، أى أدلة على وحدانية البارى وإلهيته وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته ، وآية على البعث والجزاء لقوم يعقلون ، أى لهم عقول يُعملونها فيما خلقت له ، فعلى حسب ما منّ الله على عبده من العقل وصرفه فى التفكر فى الآيات ينتفع بها ويعرفها ويعقلها بعقله وفكره وتدبره ، ففى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وإحكامها واتقانها ، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وجريانها بانتظام عجيب لمصالح العباد .

وفى خلق الأرض ، وجعلها مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها والاعتبار ، ما يدل ذلك على انفراد الله بالخلق والتدبير وبيان قدرته العظيمة التى بها خلقها ، وحكمته التى بها أتقنها وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التى بها أودع ما أودع فيها من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم ، وفى ذلك أبلغ دليل وبرهان على كماله من كل وجه ، وأن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير والقيام بشئون عباده .

وفى اختلاف الليل والنهار، وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر ، وفى اختلافهما فى الحر والبرد والتوسط ، وفى الطول والقصر والتوسط وما ينشأ عن ذلك من الفصول التى بها انتظام مصالح الآدميين وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم والنوابت كلها ، كل ذلك بتدبير وتسخير تحير فى حسنه العقول ، ويعجز عن ادراك كنهه الرجال الفحول ، وذلك يدل على قدرة مصرفها وسعة علمه وشمول حكمته ، وعموم رحمته ولطفه الشامل وعظمته وكبريائه وسلطانه العظيم ، يضطر العباد إلى

معرفة ربهم واخلاص العبادة له وحده لا شريك له .

وفى الفلك التى تجرى فى البحر ، وهى السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها وأقدرهم عليها بتيسير أسبابها ، ثم سخر لها هذا البحر العظيم والرياح التى تحملها بما فيها من الركاب والأموال والبضائع التى هى من منافع الناس وبها تنتظم معائشهم ، فمن الذى ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها وخلق لهم من الآلات المتنوعة ما به يعملونها ؟ أم من الذى سخر لها هذا البحر تجرى فيه باذنه وتسخيره والرياح ؟ أم من الذى خلق للمراكب البرية والبحرية والهوائية النار والمعادن المتنوعة المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال الثقيلة جداً ؛ فهل هذه الأمور حصلت صدفة واتفاقاً ؟ أم استقل بعملها وخلق أسبابها هذا المخلوق الضعيف العاجز الذى خرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وليس له قدرة على شىء ، ثم أعطاه خالقه القدرة وعلمه مالم يكن يعلم ، أم تقول : والحق تقول . بل المسخر لذلك الرب الواحد العظيم العليم الحكيم القدير ؛ الذى لا يعجزه شىء ؛ ولا يمتنع عليه شىء ، بل الأشياء كلها قد دانت لربوبيته ، واستكانت لعظمته ، وخضعت لجبروته وغاية العبد الضعيف أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب التى بها وجدت هذه الأمور العظام ، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بعباده ، ويدعو العباد إلى أن يعبدوه وحده لا شريك له وينيبوا اليه فى كل حال .

وما أنزل الله من السماء من ماء . وهو المطر النازل من السحاب ، فأحيا به الارض بعدموتها، فأظهرت أنواع الأقوات وأصناف الاشجار والنباتات التى لايمكن العباد أن يعيشوا بدونها

أليس ذلك برهانا على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج ، وعلى رحمته ولطفه بعباده، وشدة افتقار الخليقة اليه فى كل أحوالهم وهو يحدوهم الى اخلاص الدين له والأنابة اليه والقيام بعبوديته ظاهراً وباطنا .

وكذلك هو دليل على إحياء الله للموتى كما قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى احياها لمحيي الموتي إنه على كل شىء قدير)

وقد ذكر الله هذا البرهان على البعث فى عدة آيات ، كما ذكر ابتداء الخلق برهانا على اعادته وكما ذكر كمال علمه وقدرته ، وخلق السموات والأرض ، وانه جعل للعباد من الشجر الاخضر ناراً برهانا بيناً على البعث .

وقوله (وبث فيها من كل دابة) أى نشر فى أقطار الارض من الدواب المتنوعة وسخرها للآدميين ينتفعون بها من وجوه كثيرة ، ومع هذا فهو قائم بأرزاقها ، متكفل بأقواتها ، فما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها .

وفى تصريف الرياح آيات عظيمة على وحدانية الله وتفرده بالكمال المطلق ، فتارة تكون باردة وحارة وبين ذلك ، وجنوبا وشمالا وشرقا ودبوراً وبين ذلك ، وتارة تثير السحاب ، وتارة تؤلف بينه ، وتارة تلقحه وتدرّه ، وتارة تمزقه وتزيل ضرره ، وتارة ترسل بالرحمة وتارة ترسل بالعذاب فمن الذى صرّفها هذا التصريف ورتب عليها من المنافع للعباد شيئاً كثيرا إلا العزيز الحكيم الرحيم اللطيف بعباده المستحق للمحبة والثناء والشكر والحمد من الخليقة .

وفى تسخير السحاب بين السماء والارض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله الى حيث يشاء ويجعله حياة للبلاد والعباد ، ويروى به التلول والوهاد ، وينزله على الخلق وقت حاجتهم اليه ، ويصرف عنهم ضرره فينزله رحمة ولطفا ، ويصرفه عناية وعطفا .

فما أعظم سلطانه وأغزر احسانه وألطف امتنانه ، أليس من أقبح القبيح وأظلم الظلم أن يتمتع العباد برزقه ويعيشوا ببره ، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه ، ومع ذلك من كمال حلمه وعفوه وصفحه يوالى عليهم الاحسان؟ خيره اليهم على الدوام نازل، وشرهم اليه فى كل وقت صاعد

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل فى هذه المخلوقات وتغلغل فكره فى بدائع الكائنات علم أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها صحائف آيات ، وكتب براهين ودلالات على جميع ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مدبرات مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها ، فتعرف ان العالم العلوى والسفلى كلهم اليه مفتقرون ، واليه صامدون وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات فلا إله الا هو ولا رب سواه .

ولنقتصر على هذا الأنموذج من الآيات المتعلقة بالتوحيد مع مادخل فى ضمنها من الايمان بالجزاء والبعث وبالرسل والكتب ، وقد قرن الله ذلك بأدلته وبراهينه الموصله الى العلم التام ، واليقين الراسخ ، وبذلك يعلم أن هذه الاصول الثلاثة متلازمة: التوحيد والرسالة والمعاد ، كما أن فى ضمن الآيات المتعلقة بالجزاء شىء كثير من متعلقات التوحيد والرسالة ، فسبحان من جعل فى كلامه الهدى والرشاد ، واصلاح العباد .

فصل

١٠ — (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

هذه المنة التى امتن الله بها على عباده المؤمنين أكبر المنن بل هى أصلها ، وهى الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذى جمع الله به جميع المحاسن الموجودة فى الرسل ، ومن كماله العظيم هذه الآثار التى جعلها الله نتيجة رسالته التى بها كمال المؤمنين علما وعملا وأخلاقا وآدابا ، وبها

زال عنهم كل شر وضرر فبعثه الله من أنفسهم وأنفسهم وقبيلتهم ، يعرفون نسبه أشرف الانساب وصدقه وأمانته وكماله الذى فاق به الاولين والآخرين ، ناصحاً لهم مشفقا حريصا على هدايتهم (يتلو عليهم آياته) فيعلمهم ألفاظها ويشرح لهم معانيها (ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك والمعاصى والرذائل وسائر الخصال الذميمة ، ويزكيهم أيضا أى ينميهم فيحثهم على الأخلاق الجميلة ، فان التزكية تتضمن هذين الامرين : التطهير من المساوىء والتنمية بالمحاسن (ويعلمهم الكتاب) وهو القرآن (والحكمة) وهى السنة .

فالكتاب والسنة بهما أكمل الله للرسول وأمته الدين وبهما حصل العلم بأصول الدين وفروعه ، وبهما حصلت جميع العلوم النافعة ومايترتب عليها من الخيرات ، وزوال الشرور ، وبهما حصل العلم اليقينى بجميع الحقائق النافعة وبهما الهداية والصلاح للبشر .

فمحمد صلى الله عليه سلم هو الامام الأعظم المعلم لهذين الامرين اللذين ينابيع العلوم كلها تتفجر من معينهما ، فعلم صلى الله عليه وسلم أمته الكتاب والحكمة وأوقفهم على حكم الاحكام وأسرارها فكانت حياته كلها أقواله وأفعاله وتقريراته وهديه وأخلاقه الظاهرة والباطنة وسيرته الكاملة المتنوعة فى كل فن من الفنون تعليما منه للمؤمنين ، وشرحا للكتاب والحكمة فجمع لهم بين تعليم الأحكام الاصولية والفروعية ، ومابه تدرك وتنال ، والطرق التى تفضى اليها عقلا ونقلا وتفكيراً وتدبراً واستخراجا للعلوم الكونية من مظانها وينابيعها ، وبين لهم فوائد ذلك كله وثمراته وشرح لهم الصراط المستقيم : اعتقاداته وأخلاقه وأعماله ، وما لسالكه عند الله من الخير العاجل والآجل وما على المنحرف عنه من العقاب والضرر العاجل والآجل .

فكان خيار المؤمنين بهذا التعليم الصادر من النبى الكريم مباشرة وتبليغاً من العلماء الربانيين الراسخين فى العلم ، ومن الهداة المهديين ومن أكابر الصديقين ، وحصل لسائر المؤمنين من هذا التعليم نصيب وافر من الخير العظيم على حسب طبقاتهم ومنازلهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فخرجوا بهذا التعليم من جميع الضلالات ، وانجالت عنهم الشرور المتنوعة والجهالات ، وتم لهم النور الكامل وانقشعت عنهم الظلمات

فيا لها من نعمة لا يقادر قدرها ولا يحصى المؤمنون كنه شكرها .

١١ - وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض إنه كان غفوراً رحيما »

ذكر الله تعالى فى هذا قدح المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وادلاءهم بهذه الشبه التى

يعلمون ويعلم الناس بطلانها ، فزعموا أنه افترى هذا القرآن وأنه ساعده على ذلك قوم آخرون ، فردّ الله عليهم هذه المقالة المنتهية فى القبح بأن هذا ظلم عظيم وجراءة يعجب السامع كيف سولت لهم أنفسهم هذا القول الهراء ، وأنه من الزور والظلم ، فانه قد كانوا يعرفون بلا شك صدقه وأمانته التى لا يلحقه فيها أحد ، وأنه لم يجتمع بأحد من أهل العلم ولا رحل فى طلبه ، وقد نشأ بين أمة أمية فى غاية الجهل والضلال ، وقد جاءهم بهذا الكتاب العظيم الذى لم يطرق العالم أعظم منه ، ولا أعلى معانى وأغزر علما ؛ ولا أبلغ من ألفاظه ومعانيه ، وأتم من حُكمه وحكمه ومبانيه . وقد تحدى أقصاهم وأدناهم ، وأفرادهم وجماعتهم ، وأولهم وآخرهم أن يأتى بمثله أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله ، وصرح لهم أنهم إن أتوا بشىء من مثله فهم صادقون ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة فى الكلام ، فعجزوا غاية العجز عن معارضته والاتيان بمثله ، واتضح لهم ولغيرهم عيهم وعجزهم ، وتبين بطلان دعواهم .

وكل من حاول أن يأتى بكلام يعارض به ما جاء به الرسول صار كلامه ضحكة للصبيان فضلا عن أهل النظر والعقول ، وكل شبهة يدلون بها فى معارضة الرسول من حين يوجه لها النظر الصحيح تضمحل وتزهق « إن الباطل كان زهوقاً » ومن جرائتهم أنهم قالوا إن هذا القرآن الذى جاء به محمد أساطير الأولين اكتتبها من كتب الاولين المسطورة ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا فيا ويحهم من الذى عندهم فى بطن مكة يمليها ، وهل يوجد فى ذلك الوقت فى مكة أو ماحولها كتب تملى ؟ ولو فرض وقدر أنه يوجد أحد لمَ يختص محمد وحده بالأخذ عنه ؟

ولما كانت هذه مقالة زور وافتراء لا يخفى كذبها على أحد تشبثوا وقالوا : كان محمد يجلس الى قين حداد فى مكة فارسى فيتعلم منه ، فلهذا قال الله عنهم (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) بالغ فى البيان والبلاغة نهايتها وغايتها ، فلا يمكن الجمع بين النقيضين أن يتعلمه من هذا الابكم أعجمى اللسان الذى لم يعرف عنه علم يرجع اليه ، ولا معرفة يتميز بها ، وهذا القرآن الذى جاء به مع كمال بلاغته حوى علوم الأولين والآخرين

ولما كان هذا القول الذى قالوه ، والمكابرة التى تجرؤوا عليها قد علم الموافق والمخالف كذبها وافترائها ، وكان جميع أعداء الرسول لهم ورثة يقومون بالعداوة للرسول والدين ويعطونها حقها ، ولو جلبت عليهم ما جلبت من الدخول فى الكذب والافتراء والمكابرة ، وقد عرف هؤلاء الاعداء المتأخرون مكابرة إخوانهم الذين باشروا تكذيب الرسول ورأوا أن مقالتهم قد بطلت واضمحلت وبان زورها لكل أحد ، صاغها هؤلاء المكذبون بعبارة موهوها وظنوا أنها بهذا التمويه تروج ، فزعموا ، وما أسمجه وأكذبه من زعم ، أن محمداً كان يتعلم من نفسه ، وأنه كان يخلو بالطبيعة : السماء والارض والشمس والقمر والنجوم فيعطيها لبه ، ويناجيها

بقلبه فيخيل اليه أصناف التخاييل فيأتى بها الى الناس زاعما أنها من وحى الله على يد جبريل وأن هذه التخيلات من الأمور العالية التى يعتاد الاتيان بها أهل الرأى والحجى. ولما رأوا آثارها الجليلة فى الاسلام وأهله وتعاليمه وتقويمه للأمم وبهرهم هذا النور العظيم لجأوا الى هذا التحذلق الذى منتهاه وغايته أنهم صوروا النبى صلى الله عليه وسلم ورقوه الى رجل من الطبيعيين كما قال هذا القول الباطل أحد ملاحدة الافرنسيين وتلقاها عنه بعض الملاحدة العصريين وهو مبنى على انكار وجود رب العالمين وأنه ماثم الا عمل الطبيعة وقد علم الناس أن هذا القول المزور أعظم مكابرة ومباهتة من قول الأولين وأن هذا الافتراء الذى ولدوه بعد مئات السنين أوضح ضلالا وظلماً وجراءة ووقاحة من زور الأولين وأن هؤلاء الاراذل الذين أعجبوا بآرائهم وتاهوا بعقولهم قد بين الله كذبهم فيما قالوه وأن عقولا ولدت هذه الأقوال المؤتفكة والخيالات الفاسدة والمقالات الفاسدة لعقول سافلة وآراء ساقطه يعرف فسادها بنتائجها ومكابرتها وانكارها أجلى الحقائق ولهذا قال تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) فالرب القادر العظيم الذى أحاط علمه بجميع الاسرار وعلم أحوال العباد حاضرها ومستقبلها فأنزله لهدايتهم وجعله منارا وعلما يهتدى به المهتدون فى كل وقت وحين.

فجميع الحقائق التى دعا اليها هذا الرسول وهذا القرآن حقائق ثابتة نافعة للعباد لا يأتى من الحقائق ما يغيرها، ومحال أن يأتى شىء أصلح منها أو مثلها أو يقاربها (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ومن كمال علمه وقدرته أنه لو تقوّل عليه أحد بمثل هذه المقاله لعاجله بالعقوبه فلما أيد من جاء بها بنصره وحججه، وأرى العباد آياته فى الآفاق وفى أنفسهم التى يتبين بها أنه الحق وما سواه ضلال عُلم بذلك أن هذا الرسول أصدق الخلق وأنصحهم وأبرّهم وأعلمهم وأخشاهم وأتقاهم لربه وأن أعداءه المكذبين له أكذب الخلق وأغشهم وأعظمهم جهلا وضلالا وغيا وفسادا فى كل زمان ومكان.

ومن مكابرة أعداء الرسول أنهم جعلوا يتناقضون فى مقالاتهم ويتفننون فى إفكهم المكشوف كذبه فمنهم من قال إنه مجنون ومنهم من قال ساحر وكاهن ومنهم من قال مسحور ومنهم من قال لو كان صادقا لجاءت الملائكة تؤيده ولو كان صادقا لاغناه الله عن المشى فى الأسواق وجعل له جنات وأنهارا وأموالا كثيرة، وكل يعلم أن هذه الاقوال مع تناقضها ليست من الشبه فضلا عن كونها من الحجج ولهذا قال تعالى معجبا (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ومثل هذه الأقوال التى يذكرها الله عن المكذبين للرسول هى بنفسها تدل على كذبهم ومكابرتهم قبل أن يعرف بطلانها من الأدلة الاخرى. واذا وزنت هذه الاقوال الجارية من الاولين رأيت نظيرها وأقبح منها جارية من الملاحدة المتأخرين ويأبى الله الا أن يتم نوره ولوكره

الكافرون (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) فما جاء به الرسول من الهدى فى جميع أبواب العلوم النافعة والدين الحق الذى هو الصلاح المطلق أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً . وأكبر الأدلة على ابطال كل ماناقضه من أقوال المؤتفكين والحمد لله رب العالمين

١٢ - بسم الله الرحمن الرحيم . ن . والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وان لك لأجرا غير ممنون ، وانك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

يقسم تعالى بالقلم وهو اسم جنس شامل للاقلام التى تكتب بها أنواع العلوم ، ويسطر بها المنثور والمنظوم ، وذلك ان القلم ومايسطر به من أنواع الكلام من آياته العظيمة التى تستحق أن يقسم بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه اليه أعداؤه من الجنون ، فنفى عنه ذلك بنعمة ربه عليه واحسانه ، اذ منّ عليه بالعقل الكامل والرأى السديد والكلام الفصل الذى هو من أحسن ماجرت به الأقلام وسطره الأنام ، وهذا هو السعادة فى الدنيا ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال (وان لك لأجراً غير ممنون) أى لاجراً عظيما كما يفيده التنكير غير مقطوع ، بل هو دائم متتابع مستمر ، وذلك لما أسلفه ﷺ من المقامات العاليه فى الدين والأخلاق الرفيعة ، ولهذا قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فعلا صلى الله عليه وسلم بخلقه العظيم على جميع الخلق وفاق الأولين والآخرين ، وكان خلقه العظيم كما فسرته به عائشة رضى الله عنها هذا القرآن الكريم وذلك نحو قوله تعالى « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، فبما رحمة من الله لنت لهم » الآية .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم » وما أشبهها من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، والآيات التى فيها الحث على كل خلق جميل فكان أول الخلق امتثالا لها وسبقا اليها والى تكميلها ، فكان له منها اكملها وأجلها وأعلاها ، وهو فى كل خصلة منها فى الذروة العليا . فكان سهلا لينا قريبا من الناس مجيبا لدعوة من دعاه ، قاضيا لحاجة من استقضاه ، جابراً لقلب من سأله لايحرمه ولايرده خائبا ، وإذا أراد أصحابه أمراً وافقهم عليه وتابعهم فيه اذا لم يكن فى ذلك محذور ، وان عزم على أمر لم يستبد به دونهم ، بل يشاورهم ويؤامرهم ، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم ، ولم يكن يعاشر جليسا الا أتم عشرة وأحسنها ، فكان لايعبس فى وجهه ولايغلظ له فى كلامه ولايطوى عنه بشره ولايمسك عليه فلتات لسانه ، ولايؤاخذه بما يصدر منه من جفوة ، بل يحسن اليه غاية الاحسان ويحتمله غاية الاحتمال ، صلى الله عليه وسلم .

فلما أنزله الله بأعلى المنازل وكان أعداؤه يقولون إنه مجنون مفتون قال «فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون» وقد تبين أنه كان أهدى الناس وأكملهم وأنفعهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس للناس وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فانه المحاسب المجازى «وهو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.

وفيه تهديد للضالين ووعد للمهتدين وبيان لحكمة الله فى هدايته من يصلح للهداية دون غيره

فصل

١٣ـ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون، إلى آخر السورة الكريمة.

من أهم أصول الايمان: الايمان باليوم الآخر، وهو الايمان بكل ما أخبر الله به ورسوله بعد الموت من فتنة القبر ونعيمه وعذابه، وأحوال يوم القيامة وما يكون فيه، ومن صفات الجنة والنار وصفات أهلهما.

فالايمان باليوم الآخر هو الايمان بذلك كله جملة وتفصيلا؛ أما أحوال القبر وفتنته وعذابه ونعيمه وتفاصيل ذلك، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة والحسنة عن رسول الله ﷺ كما هو معروف، والقرآن أشار اليه فى عدة آيات، وأما ما يكون بعد ذلك، فاذا أراد الملك القادر بعث العباد وحشرهم وجزاءهم (نفخ فى الصور) وهو قرن عظيم لا يعلم عظمه إلا الذى خلقه، كما ورد فى حديث الصور المشهور، أو نفخ فى الصور على وجه لا يعلم كنهه إلا الله نفخة الصعق والفزع. انزعج لهذا أهل السموات والأرض وصعقوا إلا من شاء الله من خلقه (ثم نفخ فيه أخرى) نفخة البعث (فاذا هم قيام) من أجداثهم كاملى الخلقة ينظرون ما يستقبلهم من هذه الحياة الأخروية التى يجازى فيها العباد بأعمالهم، حسنها وسيئها.

أما المؤمنون الطائعون فيقومون مطمئنين طامعين فى فضل ربهم ورحمته مستبشرين بثوابه وعفوه ومغفرته، يحشرون إلى موقف القيامة وفداً مكرمين. وأما المجرمون فيقومون فزعين خائفين متحسرين يدعون بالويل والثبور، يقولون: يا ويلنا، من بعثنا من مرقدنا؟ فيساقون إلى جهنم وردا.

فحينئذ تكثر القلاقل والاهوال ويشيب الولدان من هول ذلك اليوم وفظاعته (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه. وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة

ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ـ يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) وتكور الشمس والقمر وتنتثر النجوم فتذهب هذه الأنوار المشاهدة ، وتشرق الأرض بنور ربها ، وينزل الله لفصل القضاء بين عباده ، ومحاسبتهم على أعمالهم : أما المؤمنون فيحاسبهم حساباً يسيراً يقررهم بذنوبهم ثم يغفرها ويسترها عن الخلائق ، ويضاعف لهم الحسنات ، ويعطيهم من فضله وإحسانه مالا تبلغه أعمالهم ، ويعطون كتبهم بأيمانهم اكراماً واحتراماً ، كما تبيض وجوههم ، وتثقل موازينهم ؛ ويغتبطون بذلك ويستبشرون به فيقولون لاخوانهم ومعارفهم ومحبيهم : هاؤم اقرءوا كتابيه ـ إني ظننت ـ أى أيقنت ـ أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ـ الآيات . ويساقون إلى الجنة زمراً كل طائفة منهم مع نظرائهم فى الخير بحسب طبقاتهم وسبقهم كما يردون فى عرصات القيامة حوض نبيهم فيشربون منه شربة هنيئة لا يظمأون بعدها ، ويمرون على الصراط على قدر أعمالهم كلمح البصر ، وكالبرق الخاطف ، وكأجاويد الخيل والابل وكسعى الرجال وكمشيهم ، ودون ذلك .

فاذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم وتبعات كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها بشفاعة محمد ﷺ فتلقاهم خزنة الجنة يسلمون عليهم ، ويهنونهم بالنجاة من العذاب وحصول الخير والثواب والخلود الأبدى بسبب طيبهم ، ولهذا قالوا : سلام عليكم طبتم . أى طابت قلوبكم بالعقائد الصحيحة الصادقة ، والأخلاق الجميلة ، وألسنتكم بذكر الله والثناء عليه ، وجوارحكم بخدمته والقيام بطاعته (فادخلوها خالدين) فاذا دخلوها ورأوا ما فيها من النعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، حمدوا الله على منته عليهم بالسوابق والايمان والأعمال الصالحة ؛ وبانجاز ما وعدهم به على ألسنة رسله ، وعلى أن الله أورثهم الجنة يتبوأون من خيراتها حيث يشاءون وأنى يشاؤن مما تشتهيه الأنفس وتلذ الاعين من نعيم القلوب والأرواح ، ومن نعيم الأبدان والاجسام « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق ، وكأس من معين ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » خيرات الاخلاق حسان الوجوه ، قد جمع الله لهن حسن البواطن والظواهر فهن سرور النفس وقرة النواظر .

وتمام ذلك أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وأنه يقال لهم إن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ؛ وإن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، فلهم كل ما يشاءون فيها وتتعلق به أمانيهم ، ولهم فوق ذلك مما لم تبلغه أمانيهم ، ولهم نعيم أعلى من ذلك كله وهو التمتع بالنظر إلى وجه الكريم ، وسماع

خطابه والابتهاج برضاه وقربه ، والسرور بمحبته وذكره وحمده والثناء عليه وشكره ، مما يشاهدون من كثرة الخيرات ، وسوابغ النعم والهبات ؛ وزيادة النعيم وتواصله ، ومما يزدادون من معرفته والأنس به ، فتبارك الله ذو الجلال والاكرام .

وأما الكافرون المجرمون فيحاسبهم الله على ما أسلفوه من الجرائم ويقرعهم ويخزيهم بين الخلائق ، ويعطون كتبهم من وراء ظهورهم بشمائلهم ، وتسود منهم الوجوه ، وتخف موازينهم ، ويساقون إلى جهنم جياعاً عطاشاً منزعجين مرعوبين زمراً ، كل طائفة تحشر مع نظيرها من أهل الشر « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » فى وجوههم ففاجأهم حرها المفظع وحلّ بهم الفزع الأكبر الذى لا يشبهه فزع ، وتلقتهم خزنة الجحيم يوبخونهم على ما قدموه ، وقالوا لهم « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا بلى » قد جاءتنا الرسل وبلغتنا النذر ، فما كان منا اليهم إلا الاستهزاء بهم والتكذيب ، فلو كان لنا أسماع واعية ، وعقول نافعة ما وصلنا إلى هذه الدار ، بل خالفنا المنقول والمعقول « فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير »

ماأشد شقاءهم وعناءهم ، ينوع عليهم العذاب أنواعاً ، فتارة يعذبون بالسعير المحرق لظواهرهم وبواطنهم . كلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ، وتارة بالزمهرير الذى قد بلغ برده أن يبرى اللحوم ويكسر العظام ، وتارة بالجوع المفرط والعطش المفظع ، وإذا استغاثوا لذلك أغيثوا بعذاب آخر ، ولون من الشقاء ينسى ما سبقه ، فيغاثون بطعام ذى غصة ؛ بشجرة الزقوم التى تخرج فى أصل الجحيم وثمرها فى غاية المرارة والنتن والحرارة ، إذا وصلت بطونهم غلت فيها كغلى الحميم الذى يوقد عليه فى النار ، وإن يستغيثوا للشراب يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، إذا قرب اليها فلا يدعهم العطش مع ذلك أن يتناولوها ؛ فاذا وصلت إلى بطونهم قطعت أمعاءهم ولا يزالون فى عذاب متنوع شديد ، لايفتر عنهم العذاب ساعة ، ولا يرجون رحمة ولا فرجاً ، يتمنون الممات ليستريحوا ، فينادون مالكا رئيس خزنة النار : يا مالك ليقض علينا ربك . فيقول لهم إنكم ماكثون ، فلا تلوموا إلا أنفسكم لما أسلفتموه من الجرائم « لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون » وينادون أهل الجنة مستغيثين بهم : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيقول لهم أهل الجنة : إن الله حرمهما على الكافرين ، وينادون ربهم فيقولون : ياربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » فيجيبهم الله اخسئوا فيها ولا تكلمون .

فحينئذ ييأسون من كل خير ومن كل فرج وراحة ويتيقنون أنه الخلود الدائم والعذاب الأبدى والشقاء المستمر . فنسأل الله الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، ونعوذ به من النار وما قرب اليها من قول وعمل .

(فصـــل)

١٤ — « وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون »

الايمان بالملائكة أحد أصول الايمان ، ولا يتم الايمان بالله وكتبه ورسله إلا بالايمان بالملائكة وقد وصفهم الله بأكمل الصفات ، وأنهم فى غاية القوة على عبادة الله والرغبة العظيمة فيها ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأنهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يرونها من أعظم نعمه عليهم ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ففى هذا بيان كمال محبتهم لربهم وقوة انابتهم اليه ونشاطهم التام فى طاعته ، وأنهم لا يعصونه طرفة عين ، وهم الوسائط بينه وبين رسله ، وخصوصاً جبريل أفضلهم وأعظمهم وأقواهم وأرفعهم عند الله منزلة ، فانه ذو قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما هو على الغيب بضنين وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين) وكما أنهم الوسائط بينه وبين عباده فى تبليغ الوحى والشرائع إلى الأنبياء ، فهم الوسائط فى التدبيرات القدرية ، فان الله وصفهم بأنهم المدبرات أمراً ، فكل طائفة منهم قد وكله على عمل هو قائم به باذن الله ، فمنهم الموكلون بالغيث والنبات ، والموكلون بحفظ العباد مما يضرهم ، وبحفظ أعمالهم وكتابتها ، والموكلون بقبض الأرواح وبتصوير الأجنة فى الأرحام وكتابة ما يجرى عليها فى الحال والمآل ، والموكلون على الجنة والنار ، ومنهم حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة المقربين ، إلى غير ذلك مما وصفوا به فى الكتاب والسنة .

فيجب الايمان بهم اجمالا وتفصيلا ، وكثير من سور القرآن فيها ذكر الملائكة والخبر عنهم فعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ولا تكاد تجد أحداً ينكر وجود الملائكة إلا الزنادقة المنكرين لوجود ربهم ، ومن تستر بالاسلام منهم فانه ينكر الملائكة حقيقة ، وينكر خبر الله ورسوله عنهم ، ويفسر الملائكة تفسيراً وتحريفاً خبيثاً فيزعم أن الملائكة هى القوى الخيرية والصفات الحسنة الموجودة فى الانسان ، وأن الشياطين هى القوى الشريرة فيه ، وغرضهم من هذا التحريف دفع الشنعة عنهم ، وقد ازدادوا بهذا التحريف شراً إلى شرهم ، وراج هذا التحريف الخبيث على بعض الذين يحسنون الظن بهؤلاء الزنادقة ، وليس عندهم بصيرة فى أديان الرسل ، وإن أظهروا تعظيمهم ، فان زنادقة الفلاسفة أعظم فى قلوبهم من الرسل ، وكفى بالعبد ضلالا وغياً أن يصل إلى هذه الحال ، ونعوذ بالله من مضلات الفتن .

ولم تزل بهم هذه الجراءة والخضوع لأقوال جهلة الزنادقة حتى فسروا الملائكة بذلك التحريف وحتى زعم بعضهم أن سجود الملائكة لآدم ليس حقيقة ، وإنما ذلك تسخير الله للآدميين جميع ما فى الأرض من القوى والمعادن وغيرها ، فأنكر ما هو معلوم بالضروره بخبر الله الصريح فى كتابه وخبر رسوله ، وقال هذه المقالة التى فيها مع تكذيب الله ورسوله تسوية كفار الآدميين وفجرتهم وأولهم وآخرهم بآدم ، ومضمون ذلك بل صريح قولهم إن الملائكة سجدت لجميع الآدميين برّهم وفاجرهم ، فأين قول الناس فى موقف القيامة : يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته .

ولولا أن مثل هذه التحريفات والتكذيب لله ورسوله موجود فى كتب من يشار اليهم بالعلم لم يكن بنا حاجة إلى دفع هذا القول الجرىء الذى يعلم كل مسلم لم تغيره العقائد الباطلة بطلانه ، ولنقتصر على هذا المقدار من الاشارة إلى العقائد المتعلقة بالتوحيد والرسالة واليوم الآخر والجزاء وإن كان القرآن معظمه فى تقرير هذه الأصول العظيمة لشدة الحاجة والضرورة اليها فى كل وقت وحال ، ولكن حصل ولله الحمد التنبيه الذى يحصل به المقصود ويعين على غيره والله أعلم

فصل

(فى ذكر الفوائد والثمرات المترتبة على التحقق بهذه العقائد الجليلة)

اعلم أن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الايمان الصحيح ، وبه يحيى العبد حياة طيبة فى الدارين وبه ينجو من المكاره والشرور ، وبه تخف الشدائد وتدرك جميع المطالب ، ولنشر إلى هذه الثمرات على وجه التفصيل ، فان معرفة فوائد الايمان وثمراته من أكبر الدواعى إلى التزود منه .

فمن ثمرات الايمان أنه سبب رضا الله الذى هو أكبر شىء ، فما نال أحد رضا الله فى الدنيا والآخرة إلا بالايمان وثمراته ، بل صرح الله به فى كتابه فى مواضع كثيرة ، وإذا رضى الله عن العبد قبل اليسير من عمله ونماه ، وغفر الكثير من زلله ومحاه .

ومنها : أن ثواب الآخرة ودخول الجنة والتنعم بنعيمها والنجاة من النار وعقابها ، إنما يكون بالايمان ، فأهل الايمان هم أهل الثواب المطلق ، وهم الناجون من جميع الشرور .

ومنها : أن الله يدفع ويدافع عن الذين آمنوا شرور الدنيا والآخرة ، فيدفع عنهم كيد شياطين الانس والجن ، ولهذا قال تعالى « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » ولما ذكر إنجاءه ذا النون قال (وكذلك ننجى المؤمنين) أى من الشدائد والمكاره إذا وقعوا فيها والايمان بنفسه وطبيعته يدفع الاقدام على المعاصى ، وإذا وقعت من العبد دفع عقوباتها بالمبادرة

إلى التوبة كما قال ﷺ : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . إلى آخر الحديث . فبين أن الايمان يدفع وقوع الفواحش ؛ وقال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون)

ومنها : أن الله وعد المؤمنين القائمين بالايمان حقيقة بالنصر وأحقه على نفسه ، فمن قام بالايمان ولوازمه ومتماته فله النصر فى الدنيا والآخرة ؛ وإنما ينتصر أعداء المؤمنين عليهم إذا ضيعوا الايمان وضيعوا حقوقه وواجباته المتنوعة

ومنها : أن الهداية من الله للعلم والعمل ولمعرفة الحق وسلوكه ، هى بحسب الايمان والقيام بحقوقه ، قال تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ومعلوم أن اتباع رضوان الله الذى هو حقيقة الاخلاص ، هو روح الايمان وساقه الذى يقوم عليه ، وقال تعالى (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) فهذه هداية عملية ، هداية توفيق واعانة على القيام بوظيفة الصبر عند حلول المصائب إذا علم أنها من عند الله فرضى وسلم وانقاد .

ومنها : أن الايمان يدعو إلى الزيادة من علومه وأعماله الظاهرة والباطنة ؛ فالمؤمن بحسب إيمانه لا يزال يطلب الزيادة من العلوم النافعة ومن الاعمال النافعة ظاهراً وباطناً ، وبحسب قوة إيمانه يزيد إيمانه ورغبته وعمله ؛ كما قال تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » الآية . « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون »

ومنها : أن المؤمنين بالله وبكماله وعظمته وكبريائه ومجده ، أعظم الناس يقيناً وطمأنينة وتوكلا على الله وثقة بوعده الصادق ورجاء لرحمته وخوفاً من عقابه ، وأعظمهم اجلالا لله ومراقبة ، وأعظمهم اخلاصاً وصدقاً ، وهذا هو صلاح القلوب ، لا سبيل اليه إلا بالايمان .

ومنها : أنه لا يمكن العبد أن يقوم بالاخلاص لله ولعباد الله ونصيحتهم على وجه الكمال إلا بالايمان ، فان المؤمن تحمله عبودية الله وطلب التقرب إلى الله ورجاء ثوابه والخشية من عقابه على القيام بالواجبات التى لله والتى لعباد الله .

ومنها : أن المعاملات بين الخلق لا تتم وتقوم إلا على الصدق والنصح وعدم الغش بوجه من الوجوه ، وهل يقوم بها على الحقيقة إلا المؤمنون ؟

ومنها : أن الايمان أكبر عون على تحمل المشقات والقيام بأعباء الطاعات وترك الفواحش التى فى النفوس داع قوى إلى فعلها ، فلا تتم هذه الأمور إلا بقوة الايمان

ومنها : أن العبد لا بد أن يصاب بشىء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ؛ وهو بين أمرين : إما أن يجزع ويضعف صبره فيفوته الخير والثواب ويستحق على ذلك

العقاب ، ومصيبته لم تقلع ولم تخف ، بل الجزع يزيدها ، وإما أن يصبر فيحظى بثوابها ، والصبر لا يقوم إلا على الايمان ، وأما الصبر الذى لا يقوم على الايمان كالتجلد ونحوه ، فما أقل فائدته ، وما أسرع ما يعقبه الجزع ، فالمؤمنون أعظم الناس صبراً ويقيناً وثباتاً فى مواضع الشدة

ومنها : أن الايمان يوجب للعبد قوة التوكل على الله لعلمه وإيمانه أن الأمور كلها راجعة إلى الله ومندرجة فى قضائه وقدره ، وأن من اعتمد عليه كفاه ، ومن توكل على الله فقد توكل على القوى العزيز القهار ، ومع أنه يوجب قوة التوكل ، فانه يوجب السعى والجد فى كل سبب نافع لأن الأسباب النافعة نوعان : دينية ودنيوية .

فالأسباب الدينية : هى إيمان ، وهى من لوازم الايمان .

والأسباب الدنيوية قسمان : سبب معين على الدين ويحتاج اليه الدين ، فهو أيضاً من الدين ، كالسعى فى القوة المعنوية والمادية التى فيها قوة المؤمنين .

وسبب لم يوضع فى الأصل معيناً على الدين ، ولكن المؤمن لقوة إيمانه ورغبته فيما عند الله من الخير يسلك إلى ربه وينفذ اليه مع كل سبب وطريق ، فيستخرج من المباحات بنيته وصدق معرفته ولطف علمه باباً يكون به معينا على الخير مجماً للنفس مساعداً لها على القيام بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة ، فيكون هذا المباح حسناً فى حقه ، عبادة لله لما صحبه من النية الصادقة حتى أن بعض المؤمنين الصادقين فى إيمانهم ومعرفتهم ربما نوى فى نومه وراحاته ولذاته التقوّى على الخير وتربية البدن لفعل العبادات وتقويته على الخير ، وكذلك فى أدويته وعلاجاته التى يحتاجها ؛ وربما نوى فى اشتغاله فى المباحات أو بعضها الاشتغال عن الشرور بما نوى بذلك جذب من خالطه وعاشره بمثل هذه الأمور على فعل خير أو انكفاف عن شر ، وربما نوى بمعاشرته الحسنة ادخال السرور والانبساط على قلوب المؤمنين ، ولا ريب أن ذلك كله من الايمان ولوازمه ولما كان الايمان بهذا الوصف ، قال تعالى فى عدة آيات من كتابه « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »

ومنها : أن الايمان يشجع العبد ويزيد الشجاع شجاعة ، فانه لاعتماده على الله العزيز الحكيم ولقوة رجائه وطمعه فيما عنده تهون عليه المشقات ، ويقدم على المخاوف واثقاً بربه راجياً له راهبا من نزوله من عينه لخوفه من المخلوقين ؛ ومن الأسباب لقوة الشجاعة أن المؤمن يعرف ربه حقا ويعرف الخلق حقا ، فيعرف أن الله هو النافع الضار المعطى المانع ، الذى لا يأتى بالحسنات إلا هو ولا يدفع السيئات إلا هو ، وأنه الغنى من جميع الوجوه . وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وألطف به من كل أحد ، وأن الخلق بخلاف ذلك كله ، ولا ريب أن هذا داع قوى عظيم يدعو إلى قوة الشجاعة وقصر خوف العبد ورجائه على ربه ، وأن ينتزع من قلبه خوف الخلق ورجاءهم وهيبتهم

ومنهـا أن الايمان هو السبب الأعظم لتعلق القلب بالله فى جميع مطـالبه الدينية والدنيوية ، والايمان القوى يدعو إلى هذا المطلب الذى هو أعلى الأمور على الاطلاق ، وهو غاية سعادة العبد، وفى مقابلة هذا يدعو إلى التحرر من رق القلب للمخلوقين ، ومن التعلق بهم ، ومَن تعلق بالخالق، دون المخلوق فى كل أحواله حصلت له الحيـاة الطيبة ، والراحة الحاضرة ، والتوحيـد الـكامل ، كما أن من عكس القضية نقص إيمانه وتوحيده ، وانفتحت عليه الهموم والغموم والحسرات .

ولا ريب أن هذين الأمرين تبع لقوة الايمان وضعفه ، وصـدقه و كذبه ، وتحققه حقيقة أو دعواه والقلب خال منه .

ومنها أن الايمان يدعو إلى حسن الخلق مع جميع طبقات الناس كما قال النبى صـلى الله عليه وسـلم « أ كمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقـاً » وجماع حسن الخلق أن يتحمل العبد الأذى منهم ويبذل إليهم ما استطاع من المعروف القولى والبدنى والمـالى ، وأن يخالقهم بحسب أحوالهم بما يحبون إذا لم يكن فى ذلك محذور شرعى ، وأن يدفع السيئة بالتى هى أحسن ، ولا يقوم بهذا الأمر إلا المؤمنون الـكمل قال تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وإذا ضعف الايمان أو نقص أو انحرف ، أثر ذلك فى أخلاق العبد انحرافاً بحسب بُعده عن الايمان .

ومنهـا أن الايمان الـكامل يمنع من دخول النار بالـكلية كما منع صاحبه فى الدنيا من عمل المعاصى ، ومن الاصرار على ما وقع منه منها ، والايمان الناقص يمنع الخلود فى النار وإن دخلها كما تواترت بذلك النصوص بأنه يخرج من النار من كان معه مثقال حبة خردل من إيمان .

ومنها أن الايمان يوجب لصاحبه أن يكون معتبراً عند الخلق أميناً ، ويوجب للعبد العفة عن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ، وفى الحديث « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » وأى شرف دنيوى أبلغ من هذا الشرف الذى يبلغ بصاحبه أن يكون من الطبقة العالية من الناس لقوة إيمانه وتمام أمانته ، ويكون محل الثقة عندهم وإليه المرجع فى أمورهم ، وهذا من ثمرات الايمان الجليلة الحاضرة .

ومنها أن قوى الايمان يجد فى قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واسـتحلاء آثاره ، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التى هى موجب الايمان وأثره مايزرى بلذات الدنيا كلها بأسرها ، فانه مسرور وقت قيامه بواجبات الايمان ومستحباته ، ومسرور بما يرجوه ويؤمله من ربه من ثوابه وجزائه العاجل والآجل ، ومسرور بأنه ربح وقته الذى هو زهرة عمره وأصل مكسبه ، ومحشو قلبه أيضاً من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره ، وسعة جوده واحسانه ولذة محبته والانابة اليه الناشـئة عن معرفته بأوصافه ، وعن مشاهدة إحسانه ومننه ، فالمؤمن

يتقلب في لذات الايمان وحلاوته المتنوعة ، ولهذا كان الايمان مسلياً عن المصيبات مهوناً للطاعات، ومانعاً من وقوع المخالفات ، جاعلا إرادة العبد وهواه تبعاً لما يحبه الله ويرضاه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

ومنها أن الايمان هو السبب الوحيد للقيام بذروة سنام الدين وهو الجهاد البدنى والمالى والقولى جهاد الكفار بالسيف والسنان ، وجهاد الكفار والمنافقين والمنحرفين فى أصول الدين وفروعه بالحكمة والحجة والبرهان ، فكلما قوى إيمان العبد علماً ومعرفة وإرادة وعزيمة قوى جهاده ، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته ، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة ، وإذا ضعف الايمان ترك العبد مقدوره من الجهاد القولى بالعلم والحجة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وضعف جهاده البدنى لعدم الحامل له على ذلك ، ولهذا قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فصادق الايمان يحمله صدقه على القيام بهذه المرتبة التى هى مرتبة الطبقتين العاليتين بعد النبيين : طبقة الصديقين المجاهدين بالعلم والحجة والتعليم والنصيحة ، وطبقة الشهداء الذين قاتلوا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا من دون قتل ، وهذا كله من ثمرات الايمان ومن تمامه وكماله ، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الايمان ومترتب عليه ، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الايمان أو نقصه والله المستعان .

فصل

فى ذكر بعض الآيات الحاثة على القيام بحقوق الله وحقوق الخلق

قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب من كان مختالا فخوراً) . والآيات التى فى سورة الاسراء (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) إلى قوله (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحوراً) .

هذه الآيات الكريمة فيها الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، والدخول تحت رق عبوديته التى هى غاية شرف العبد ، والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه محبة له وذلا له ، وإخلاصا لله وإنابة له فى جميع الحالات وفى جميع العبادات الظاهرة والباطنة ، وفيها النهى عن الشرك به شيئا سواء كان

أكبر بأن يصرف نوعا من أنواع العبادة لغير الله ، أوشركا أصغر مثل وسائل الشرك كالحلف بغير الله والرياء ونحو ذلك مما يتذرع به إلى الشرك ، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والتدبير الكامل الشامل الذى لايشركه ولا يعينه عليه أحد

ثم بعدما أمر بالقيام بحق الله المقدم على كل حق ، أمر بالقيام بحقوق ذوى الحقوق من الخلق الأهم فالأهم فقال (وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، والخطاب اللطيف، وبالفعل بالقيام بطاعتهما ، واجتناب معصيتهما والحذر من عقوقهما والانفاق عليهما وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من جهتهما (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) والأمر بالاحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ماعده الناس إحسانا ، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص ، وفيه النهى عن ضد الاحسان إليهما وهو أمران : الاساءة والعقوق الذى هو إيصال الأذى القولى والفعلى إليهما ، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة ، والأمر الثانى ترك الاحسان وترك الاساءة ، فان ذلك داخل فى العقوق ، فلا يسع الولد أن يقول إذا قمت بواجب والدىّ وتركت معصيتهما فقد قمت بحقهما ، فيقال بل عليك أن تبذل لهما من الاحسان الذى تقدر عليه ما يجعلك فى مرتبة الأبرار البارين بوالديهم ، وقوله (كما ربيانى صغيراً) بيان لبعض الأسباب الموجبة للبر ، وأن الوالدين اشتركا فى تربية بدنك وروحك بالتغذية والكسوة والحضانة والقيام بكل المؤن وبالتعليم والارشاد والالزام بطاعة الله والآداب والأخلاق الجميلة ، وفى هذا دليل على أن كل من له عليك حق تربية بقيام بمؤنة نفقة وكسوة وغيرها أن له حقاً عليك بالاحسان والبر والدعاء وأعلى من ذلك من له حق عليك بتربية عقلك وروحك تربية علمية تهذيبية أن له الحق الأكبر عليك ، وهذا من جملة فضائل أهل العلم المعلمين العاملين ومن حقوقهم على الناس ، فانهم ربما فاقوا فى هذه التربية تربية الوالدين بأضعاف مضاعفة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقوله (وبذى القربى) أى أحسنوا إلى أقاربكم القريب منهم والبعيد بالقول والفعل ، وأوصلوا لهم من الهدايا والصدقات والبر والاحسان المتنوع ما يشرح صدورهم وتتيسر به أمورهم ، وتكونوا بذلك واصلين وللأجر من الله حائزين .

واليتامى وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار ، فمن رحمة أرحم الراحمين أمر الناس برحمتهم والحنو عليهم والاحسان إليهم وكفالتهم وجبر خواطرهم وتأديبهم ، وأن يربوهم أحسن تربية كما يربون أولادهم ، سواء كان اليتيم ذكراً أو أنثى ، قريباً أو غير قريب .

(والمساكين) وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر فلم يحصلوا على كفايتهم ولا كفاية من يمونون فأمر تعالى بسد خلتهم ، ودفع فاقتهم ، والحض على ذلك ، وقيام العبد بما أمكنه من ذلك من غير

ضرر عليه (والجار ذى القربى) أى الجار القريب الذى له حق الجوار وحق القرابة (والجار الجنب) الذى ليس بقريب ، فعلى العبد القيام بحق جاره مطلقاً ، مسلماً كان أو كافراً ، قريباً أو بعيداً ، بكف أذاه عنه ، وتحمل أذاه ، وبذل ما يهون عليه ويستطيعه من الاحسان ، وتمكينه من الانتفاع بجداره أو طريق ماء على وجه لا يضر الجار ، وتقديم الاحسان إليه على الاحسان على من ليس بجار ، وكلما كان الجار أقرب باباً كان آكد لحقه ، فينبغى للجار أن يتعاهد جاره بالصدقة والهدية والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال تقرباً إلى الله وإحساناً إلى أخيه صاحب الحق .

(والصاحب بالجنب) قيل هو الرفيق فى السفر ، وقيل هو الزوجة ، وقيل هو الرفيق مطلقاً فى الحضر والسفر ، وهذا أشمل فانه يشمل القولين الأولين ، فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له والوفاء معه فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد .

(وابن السبيل) وهو الغريب فى غير بلده سواء كان محتاجا أو غير محتاج ، فحث الله على الاحسان إلى الغرباء لكونهم فى مظنة الوحشة والحاجة وتعذر ما يتمكنون عليه فى أوطانهم فيتصدق على محتاجهم ويجبر خاطر غير المحتاج بالاكرام والهدية والدعوة والمعاونة على سفره (وما ملكت أيمانكم) أى من الرقيق والبهائم بالقيام بكفايتهم وأن لا يحملوا مالا يطيقون ، وأن يعاونوا على مهماتهم ، وأن يقام بتقويمهم وتأديبهم النافع فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه الذى يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل ، ومن لم يقم بذلك فانه عبد معرض عن ربه ، عات على الله ، متكبر على عباد الله معجب بنفسه ، فخور بأقواله على وجه الكبر والعجب واحتقار الخلق ، وهو فى الحقيقة السافل المحتقر ، ولهذا قال (إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً) فهؤلاء ما بهم من الأوصاف القبيحة تحملهم على البخل بالحقوق الواجبة ويأمرون الناس بأقوالهم وأفعالهم بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله أى من العلم الذى يهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل مايحول بينهم وبين الحق فهؤلاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعى فى خسارة أنفسهم ، والسعى فى خسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، ولهذا قال (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أى كما استهانوا بالحق وتكبروا على الخلق واستهانوا بالقيام بالحقوق ، أهانهم الله بالعذاب الأليم والخزى الدائم .

وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى احذر هذين الخلقين الرذيلين : البخل بالواجبات وفى بذل المال فيما ينبغى بذله فيه ، والتبذير النفقة فيما لا ينبغى أو زيادة على ما ينبغى (فتقعد) إن فعلت ذلك (ملوما) أى تلام على ما فعلت من الاسراف لأن كل عاقل

يعرف أن الاسراف مناف للعقل الصحيح كما أنه مناف للشرع ، فان الله جعل الأموال قياما لمصالح الخلق ، فكما أن منعها وإمسا كها عن وضعها فيما جعلت له مذموم ، فكذلك بذلها فى الأمور الضارة أو الزيادة غير اللائقة فى الامور العادية وغيرها مذموم ، لانه إتلاف للمال بغير مصلحة وانحراف فى حسن التصرف والتدبير ، وضعف التدبير وعدم انتظامه مذموم فى كل شىء ، كما ان حسن التدبير محمود ونافع لفاعله ولغيره (محسوراً) أى فارغ اليد فلا بقى ما فى يدك من المال ، ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الامر بايتاء ذى القربى وغيرهم مع القدرة ، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة فأمر تعالى أن يردوا رداً جميلا فقال (واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى تعرضن عن إعطائهم حاضراً ، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الامر من الله ، فقل لهم قولا ميسوراً أى لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود ، واعتذار بعدم الامكان فى الوقت الحاضر لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم ، عاذرين راجين كما قال تعالى (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) وهذا من لطف الله بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لان انتظار ذلك عبادة ، وسبب لحصوله ، فان الله عند ظن عبده به ، وكذلك وعدهم أن يعطوهم إذا وجدوا عبادة حاضرة لمن وعدوا لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير ، ولهذا ينبغى للعبد أن يفعل مايقدر عليه من الخير وينوى فعل مالم يقدر عليه إذا قدر ليثاب على ذلك ، ولعل الله ييسره له . وفى قوله (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله وصرف التعلق بالمخلوقين ، فالموفق فى حال الوجود والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه لا يذمى ولا يبطر النعمة وفى حال الفقد والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته ، وهذا من أجل عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب .

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) الآية ، وذلك أن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها فنهى الوالدين عن هذا الخلق الذى هو من أرذل الأخلاق وأسقطها قتل أولادهم خشية من الفقر والاملاق ففيه عدة جنايات قتل النفس الذى هو من أعظم الفساد ، وأشنع من ذلك قتل الأولاد الذين هم فلذ الأكباد وسوء الظن برب العالمين ، وجهلهم وضلالهم البليغ ، إذ ظنوا أن وجودهم يضيق عليهم الأرزاق ، فتكفل لهم بقيامه برزق الجميع ، فأين هذا الخلق الشنيع من أخلاق خواص المؤمنين الذين كلما كثرت أولادهم وعوائلهم ، قوى ظنهم بالله ورجوا زيادة فضله وقاموا بمؤنتهم مطمئنة نفوسهم ، حامدين ربهم أن جعل رزقهم على أيديهم ، ومثنين على ربهم إذ أقدرهم على ذلك ، وراجين ثواب ذلك عنده ، ومشاهدين لمنة الله عليهم بذلك ، قال ﷺ « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ورغبتهم إلى الله .

والنهى عن قربان الزنا يشمل النهى عنه وعن جميع دواعيه ومقدماته ، كالنظر المحرم ، والخلوة بالأجنبية ، وخطاب من يخشى الفتنة بخطابه ونحو ذلك ، ووصف الزنا بأقبح الأوصاف ، بأنه فاحشة ، أى جريمة عظيمة تستفحش شرعاً وعقلا ، لأن فيه انتهاك حرمة الشرع والتهاون به وفيه افساد المرأة وافساد الأنساب واختلاط المياه ، وفيه اضرار بأهلها وبزوجها وبكل من يتصل بها ، وفيه من المفاسد شيء كثير .

وأمر تعالى بايفاء المكاييل والموازين والمعاملات كلها بالقسط من غير بخس ولا نقص ولا غش ولا كتمان ؛ وفى ضمن ذلك الأمر بالصدق والنصح فى جميع المعاملات ، فانه بذلك يصلح الدين والدنيا ولذلك قال (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى هو خير فى الحاضر وأحسن عاقبة فى الآجل يسلم به العبد من التبعات ، وتحل البركة فى هذه المعاملة .

وقوله (ولا تقفُ ما ليس لك به علم) الآية . أى ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تثبت فى كل ما تقوله وتفعله ، فان التثبت فى الأمور كلها دليل على حسن الرأى وقوة العقل ، وبه تتوضح الأمور ويعرف بعد ذلك هل الاقدام خير أم الاحجام ؛ لأن المتثبت لا بد أن يعمل فكره ويشاور فى الأمور التى عليه أن يتثبت فيها ، والفكر والمشاورة أكبر الأسباب لاصابة الصواب والسلامه من التبعة ومن الندم الصادر من العجلة ومن عدم استدراك الفارط . ولهذا قال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى لا بد أن تسئل عن حركة هذه الجوارح وهل هى حركات نافعة بأن وضعت فيما يقرب إلى الله ، أم ضارة بأن وجهت لمعصية الله ، فليتعاهد العبد بحفظها عن الأمور الضارة ليعد لهذا السؤال جواباً ، فمن استعملها بطاعة الله فقد زكاها ونماها وأثمرت له النعيم المقيم ، ومن استعملها فى ضد ذلك فقد دساها وأسقطها وأوصلته إلى العذاب الأليم .

وقوله (ولا تمش فى الأرض مرحاً) أى لا تتكبر على الحق ولا على الخلق ، فان التكبر من أرذل الأخلاق ، والمتكبر المعجب بنفسه لن يبلغ ما يظنه وتطمح له نفسه من الخيالات الفاسدة أنه فى مقام رفيع على الخلق ، بل هو ممقوت عند الله وعند خلقه ، مبغوض محتقر قد نزل بخلقه هذا إلى أسفل سافلين ، ففاته مطلوبه من كبره وعجبه ، وحصل على نقيضه ، ومن مضار الكبر أنه صح الحديث عن النبى ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، والنار مثوى المتكبرين ، والكبر هو بطر الحق ، وغمط الناس ، أى احتقارهم وازدراؤهم ، وهذه الأوامر الحسنة والارشادات فى هذه الآيات من الحكمة العالية التى أوحاها الله لرسوله ﷺ وهى من أعظم محاسن الدين ، فالدين هو دين الحكمة التى هى معرفة الصواب والعمل بالصواب ومعرفة الحق والعمل بالحق فى كل شيء .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » الى آخر السورة

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبية الله وملكه ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم ، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون ، وعبودية لألوهيته ورحمته ، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه ، وهي المراد هنا ،ولهذا أضافها إلى اسمه (الرحمن) تنبيها على أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال برحمته بهم ولطفه واحسانه ، فذكر صفاتهم أكمل الصفات ، وبالاتصاف بها يكون العبد متحققاً بعبوديته الخاصة النافعة المثمرة للسعادة الأبدية ، فوصفهم بأنهم (يمشون على الارض هونا) أي ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده (وإذا خاطبهم الجاهلون) أي خطاب جهل ، فانه أضاف الخطاب لهذا الوصف (قالوا سلاما) أي خاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الاثم ولا يقابلون الجاهل بجهله ، وهذا ثناء عليهم بالرزانة والحلم العظيم والعفو عن الجاهل ومقابلة المسيء بالاحسان

« والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما » أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له كما قال تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » الآية « والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم » أي ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ماوقع منا مما هو مقتض للعذاب « إن عذابها كان غراما » أي ملازما لأهلها ملازمة الغريم لغريمه « انها ساءت مستقراً ومقاما » وهذا منهم على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم اليه ، وأنه ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب وليتذكروا منة الله عليهم ، فان صرف الشدة يعظم وقعه بحسب شدتها وفظاعتها « والذين إذا أنفقوا » أي النفقات الواجبة والمستحبة لم يسرفوا أي يزيدوا على الحد فيدخلوا في قسم التبذير واهمال الحقوق الواجبة ، ولم يقتروا فيدخلوا في باب الشح والبخل ، وكان انفاقهم بين الاسراف والتقتير (قواما) تقوم به الاحوال، فانهم يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة ، وفيما ينبغي من الامور النافعة على المحتاجين ، وفي المشاريع الخيرية ، وفي الامور الضرورية والكمالية الدينية والدنيوية من غير ضرر ولا اضرار ، وهذا من اقتصادهم وعقلهم وحسن تدبيرهم .

« والذين لايدعون مع الله إلها آخر » لا دعاء عبادة ولا دعاء مسئلة بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه « ولا يقتلون النفس التي حرم الله » وهي نفس المسلم والكافر المعاهد « إلا بالحق » كقتل النفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة « ولا يزنون ومن يفعل ذلك » المذكور من الشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله والزنا (يلق أثاما

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه » أى العذاب « مهانا » .

فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت فى الكتاب والسنة واجماع الأمة ، وكذلك لمن أشرك بالله ، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة ، لكونها كلها من أكبر الكبائر ، وأما خلود القاتل بغير حق والزانى ، فى العذاب ، فقد دلت النصوص القرآنية وتواترت الأحاديث النبوية أن جميع المؤمنين ـ وإن دخلوا النار ـ فسيخرجون منها ولا يخلد فيها مؤمن ، فان الايمان الكامل يمنع من دخولها ، ومطلق الايمان ولو مثقال ذرة يمنع من الخلود فيها كما تقدم .

ونص الله على ثلاثة هذه الأشياء لأنها أكبر الكبائر ، وفسادها كبير ، فالشرك فيه فساد الأديان بالكلية ، والقتل فيه فساد الأبدان ، والزنا فيه فساد الأعراض « إلا من تاب » عن هذه المعاصى وغيرها بأن أقلع عنها فى الحال ، وندم على فعلها وعزم عزماً جازماً أن لا يعود (وآمن) بالله إيماناً صحيحاً يقتضى فعل الواجبات ، وترك المحرمات « وعمل عملا صالحا » فيدخل فيه جميع الصالحات من واجب ومستحب « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » بأن يوفقهم للخير ، فتبدل أقوالهم وأفعالهم التى كانت مستعدة لفعل السيئات تتبدل حسنات ، فيتبدل شركهم إيماناًومعصيتهم طاعة ، وتتبدل نفس السيئات التى عملوها ، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وندماوانابة وطاعة تبدل حسنات كما هوظاهر الآية ، وورد فيه حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه ، فعددها عليه ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة إلى آخر الحديث « وكان الله غفوراً » لمن تاب يغفر ذنوبه كلها « رحيما » بعباده إذ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ، ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم ، ومن تاب وعمل صالحا ، فانه يتوب إلى الله متاباً ، أى فليعلم أن توبته فى غاية الكمال ، لانها رجوع إلى الطريق الموصل الى الله الذى هوعين سعادة العبد وفلاحه ، فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الاغراض الفاسدة .

والمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة ، وأن تكون على أكمل الوجوه وأجلها لتحصل له ثمراتها الجليلة (والذين لا يشهدون) أى لا يحضرون الزور ، أى القول المحرم والفعل المحرم ، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على كل قول وفعل محرم ، كالخوض فى آيات الله بالباطل ، والجدل الباطل ، والغيبة والنميمة ، والسب والقذف ، والاستهزاء وشرب الخمر ، والغناء المحرم ، وفرش الحرير والصور ونحوذلك ، وإذا كانوا لايشهدون الزور ، فانهم من باب أولى لايفعلونه ولايقولونه وشهادة الزور داخلة فى قول الزور « وإذا مروا باللغو » وهو الكلام الذى لا فائدة فيه دينية ولا دنيوية ، ككلام السفهاء ونحوهم « مروا كراماً » أى نزهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوه سفها منافيا لمكارم الاخلاق .

وفى قوله (وإذا مروا باللغو) إشارة إلى أنهم لايقصدون حضوره ولا سماعه ، ولـكن يحصل ذلك بغير قصد ، فيكرمون أنفسهم عنه (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم) التى أمروا بالاستماع لها والاهتداء بها (لم يخرّوا عليها صما وعميانا) أى لم يقابلوها بالاعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف القلب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق ، وإنما حال هؤلاء الأخيار عند سماعها كما قال تعالى (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها ، وتجد عندهم آذانا سامعة ، وقلوباً واعية ، فيزداد بها إيمانهم ، ويتم بها يقينهم ، وتحدث لهم فرحا ونشاطاً واغتباطاً ، لما يعلمون أنها أفضل المنن الواصلة اليهم من ربهم (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا) أى قرنائنا من أصحاب وأخلاء وأقران وزوجات (وذرياتنا قرة أعين) أى تقر بهم أعيننا ، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من علو هممهم ومراتبهم ، أن مقصودهم بهذا الدعاء لذرياتهم ، أن يطلبوا منه صلاحهم ؛ فان صلاح الذرية عائد اليهم وإلى والديهم لأن النفع يعود على الجميع ، بل صلاحهم يعود إلى نفع المسلمين عموماً ، لأن بصلاح المذكورين صلاحا لكل من له تعلق بهم ، ثم يتسلسل الصلاح والخير (واجعلنا للمتقين إماماً) أى أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين ، وهى درجة الامامة فى الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين فى أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ، ويطمئن اليها لثقة المتقين بعلمهم ودينهم ، ويهتدى المهتدون بهم ، ومن المعلوم أن الدعاء بحصول شىء دعاء به وبما لايتم إلا به ، وهذه الدرجة درجة الامامة فى الدين لاتتم إلا بالصبر واليقين .

كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) فهذا الدعاء يستلزم من حصول الأعمال الصالحة والصبر على طاعة الله ؛ وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة ومن العلم النافع التام الراسخ الذى يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاء جزيلا ، ولما كانت هممهم وأعمالهم عالية كان الجزاء من جنس العمل ، فجازاهم من جنس عملهم فقال (أولئك يجزون الغرفة) أى المنازل العالية الرفيعة الجامعة لكل نعيم روحى وبدنى بسبب صبرهم على القيام بهذه الأعمال الجليلة (ويلقون فيها تحية وسلاماً) من ربهم ومن الملائكة الكرام ومن بعضهم على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات .

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والاعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالاحسان وقيام الليل والاخلاص فيه والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وأنهم يخرجون الواجبات والمستحبات فى النفقات على وجه الاقتصاد ، وإذا كانوا مقتصدين فى النفقات التى جرت عادة أكثر الخلق

بالتفريط فيها أو الافراط ، فاقتصادهم وتوسطهم فى غيرها من باب أولى ، ووصفهم بالسلامة من كبائر الذنوب وفواحشها ، وبالتوبة مما يصدر منهم منها .

ومنها الاخلاص لله فى عبادته ، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها ، وأنهم يتنزهون عن اللغو والأقوال الرديئة التى لا خير فيها ولا نفع ، وذلك يستلزم كمال انسانيتهم ومروءتهم وكمالهم ورفعة نفوسهم عن كل أمر رذيل ، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد فى تنفيذ أحكامها ، وأنهم يدعون ربهم بأكمل دعاء ينتفعون به ، وينتفع به من يتعلق بهم ، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم ، ومن لوازم ذلك سعيهم فى تعليمهم ووعظهم ونصحهم ، لأن من حرص على شىء ودعا الله فى حصوله لا بد أن يكون مجتهداً فى تحصيله بكل طريق ، مستعيناً بربه فى تسهيل ذلك ، وأنهم دعوا الله فى حصول أعلى الدرجات الممكنة لهم ، وهى درجة الامامة والصديقية ، فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب وأزكى تلك النفوس ، ولله فضل الله عليهم ولطفه بهم الذى أوصلهم إلى هذه المقامات والمنازل ، ولله الحمد من جميع عباده إذ بين لهم أوصافهم وحثهم عليها وأعان السالكين ويسر الطريق لمن سلك رضوانه ، والله الموفق المعين

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)

هذه الآية الكريمة جامعة لمعانى حسن الخلق مع الناس وما ينبغى للعبد سلوكه فى معاملتهم ومعاشرتهم ، فأمر تعالى « بأخذ العفو » وهو ما سمحت به أنفسهم وسهلت به أخلاقهم من الأعمال والأخلاق ، بل يقبل ما سهل ولا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم ولا ما لا يطيقونه ، بل عليه أن يشكر من كل أحد ما قابله به من قول وعمل وخلق جميل وما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم ، وعما أتوا به وعاملوه به من النقص ولا يتكبر على صغير لصغره ولا ناقص العقل لنقصه ولا الفقير لفقره بل يعامل الجميع باللطف وما تقتضيه الحال الحاضرة ، وبما تنشرح له صدورهم ويوقر الكبير ويحنو على الصغير ويجامل النظير .

« وأمر بالعرف » وهو كل قول حسن وفعل جميل وخلق كامل للقريب والبعيد ، فاجعل ما يأتى إلى الناس منك إما تعليم علم دينى أو دنيوى أو نصيحة أو حث لهم على خير من عبادة الله وصلة رحم وبر الوالدين ، واصلاح بين الناس أو رأى مصيب أو معاونة على بر وتقوى أو زجر عن قبيح ، أو ارشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية . أو تحذير من ضد ذلك .

ولما كان لا بد للعبد من أذية الجاهلين له بالقول أو بالفعل أمر الله بالاعراض عنهم وعدم مقابلة الجاهلين بجهلهم ، فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه ، ومن حرمك فلا تحرمه ، ومن قطعك

فصله ، ومن ظلمك فاعدل فيه ، فبذلك يحصل لك من الثواب من الله ، ومن راحة القلب وسكونه ومن السلامة من الجاهلين ، ومن انقلاب العدو صديقاً ، ومن التبوء من مكارم الأخلاق أعلاها أكبر حظ وأوفر نصيب ، قال تعالى « ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ولنقتصر فى هذا الموضوع على هذه الآيات ، ففيها الهدى والشفاء والخير كله .

فصل

فى أحكام الشرع الفروعية المتنوعة فى الصلاة والزكاة ، مع ما ينضم اليهما من المعانى الأخرى

قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ، إن قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)

هذا الأمر من الله لعباده بالصلاة التى أمر بها فى آيات متعددة ، ويأتي الأمر بها فى القرآن بلفظ الاقامة كهذه الآية ، ومثل « وأقيموا الصلاة » ونحوها . وهو أبلغ من قوله افعلوها ، فان هذا أمر بفعلها ، وبتكميل أركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً ، وبجعلها شريعة ظاهرة قائمة من أعظم شعائر الدين ، وفى هذه الآية زيادة عن بقية الآيات ، وهى الأمر بها لأوقاتها الخمسة أو الثلاثة ، وهذه هى الفرائض وإضافتها إلى أوقاتها من باب إضافة الشىء إلى سببه الموجب له « فدلوك الشمس » أى زوالها واندفاعها من المشرق نحو المغرب ، فيدخل فى هذا صلاة الظهر وهو أول الدلوك ، وصلاة العصر وهو آخر الدلوك « إلى غسق الليل » أى ظلمته ؛ فدخل فى ذلك صلاة المغرب وهو ابتداء الغسق ، وصلاة العشاء الآخرة ، وبها يتم الغسق والظلمة « وقرآن الفجر » أى صلاة الفجر ، وسماها قرآناً لمشروعية اطالة القراءة فيها ، ولفضل قراءتها لكونها مشهودة يشهدها الله وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار ، ففى هذه الآية الكريمة فوائد :

منها ذكر الأوقات الخمسة صريحاً ؛ ولم يصرح بها فى القرآن فى غير هذه الآية - وأتت ظاهرة فى قوله « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » الآية . وفيها أن هذه المأمورات كلها فرائض لأن الأمر بها مقيد فى أوقاتها ، وهذه هى الصلوات الخمس وقد تستتبع ما يتبعها من الرواتب ونحوها .

ومنها أن الوقت شرط لصحة الصلاة وسبب لوجوبها ؛ ويرجع فى مقادير الأوقات إلى تقدير النبي ﷺ كما يرجع اليه فى تقدير ركعات الصلاة وسجداتها وهيئاتها .

وفيها أن العصر والظهر يجمعان للعذر ، وكذلك المغرب والعشاء ، لأن الله جمع وقتهما فهو وقت واحد للمعذور ، ووقتان لغير المعذور .

وفيها فضيلة صلاة الفجر وفضيلة اطالة القرآن فيها ، وأن القراءة فيها ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها دل ذلك على فضيلته وركنيته ، وقد عبر الله عن الصلاة بالقراءة وبالركوع وبالسجود وبالقيام ، وهذه كلها أركانها المهمة .

قوله (ومن الليل فتهجد به) أى صلّ به فى أوقاته (نافلة لك) أى لتكون صلاة الليل زيادة لك فى علو المقامات ورفع الدرجات بخلاف غيرك ، فانها تكون كفارة لسيئاته

ويحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين ، وأما صلاة الليل فانها فرض عليك وحدك دون المؤمنين لكرامتك على الله ، إذ جعل وظيفتك أكثر من غيرك ومنّ عليك بالقيام بها ليكثر ثوابك ويرتفع مقامك ، وتنال بذلك المقام المحمود ، وهو المقام الذى يحمده فيه الأولون والآخرون ؛ مقام الشفاعة العظمى ، حين يستشفع الخلائق بأكابر الأنبياء ، آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من همّ الموقف وكربه ويفصل بينهم ، فيشفعه الله ويقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون ، وتكون له اليد البيضاء على جميع الخلق ﷺ تسليما كثيراً وادخلنا فى شفاعته ، ومنّ علينا بالسعى فى أسباب شفاعته التى أهمها اخلاص الأعمال لله ، وتحقيق متابعته فى هديه وقوله وعمله .

« ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير »

لما أمر الله تعالى رسوله خصوصاً والمؤمنين عموماً باستقبال بيته الحرام ، أخبر أن كل أهل دين لهم وجهة يتوجهون اليها فى عباداتهم ، وليس الشأن فى القبل والوجهات المعينة ، فانها من الشرائع التى تختلف باختلاف الأزمنة ، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى أخرى ، ولكن الشأن كل الشأن فى امتثال طاعة الله على الاطلاق والتقرب اليه وطلب الزلفى عنده .

فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية ، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس حصلت لها الخسارة فى الدنيا والآخرة ، كما أنها إذا اتصفت به فهى الرابحة على الحقيقة ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الشرائع ، وهو الذى خلق الله له الخلق وأمرهم به ، والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعلها ؛ فان الاستباق اليها يتضمن الأمر بفعلها وتكميلها وإيقاعها على أكمل الأحوال والمبادرة اليها ، ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات

فالسابقون أعلى الخلق درجة ، والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وعمرة وجهاد ونفع متعد وقاصر ، فهذه الآية تحث على الاتيان بكل ما يكمل هذه العبادات من ركن وواجب وشرط ومستحب ومكمل ومتمم ظاهراً وباطناً كالمبادرة فى أول الوقت وفعل السنن المكملات والمبادرة إلى ابراء الذمم من الواجبات وفعل جميع الآداب المتعلقة بالعبادات فلله ما أجمعها من آية وأنفعها ؛ ولما كان أقوى ما يحث النفوس الى المسارعة إلى الخيرات ما رتب الله عليها من الثواب ، وما يخشى بتفويتها من الحرمان والعقاب قال (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير) فيجمع الله العباد يوم القيامة بقدرته ويجازيهم بما أسلفوه من الأعمال خيرها وشرها .

« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فان خفتم فرجالا أو ركباناً » إلى آخر الآية .

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً ، وعلى الصلاة الوسطى وهى صلاة العصر خصوصاً ، لفضلها وشرفها وحضور ملائكة الليل والنهار فيها ، ولكونها ختام النهار ، والمحافظة على الصلوات عناية العبد بها من جميع الوجوه التى أمر الشارع بها وحث عليها من مراعاة الوقت وصلاة الجماعة والقيام بكل ما به تكمل وتتم ، وأن تكون صلاة كاملة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ويزداد بها إيمانه ، وذلك إذا حصل فيها حضور القلب وخشوعه الذى هو لُبها وروحها ، ولهذا قال (وقوموا لله قانتين) أى مخلصين خاشعين لله ، فان القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع ؛ ومن تمام ذلك سكون الأعضاء عن كل كلام لا تعلق له بالصلاة .

وفيها أن القيام فى صلاة الفريضة ركن إن كان المراد بالقيام هنا الوقوف ، فان أُريد به القيام بأفعال الصلاة عموماً دل على الأمر باقامتها كلها وأن تكون قائمة تامة غير ناقصة .

(فان خفتم فرجالا أو ركباناً) أى فصلوا الصلاة رجالا أى ماشين على أرجلكم أو ساعين عليها، أو ركباناً على الابل وغيرها من المركوبات،وحذف المتعلق ليعم الخوف من العدو والسبع ومن فوات ما يتضرر بفواته أو تفويته ، وفى هذه الحال لا يلزمه استقبال القبلة ، بل قبلته حيثما كان وجهه .

ومثل ذلك إذا اشتبهت القبلة فى السفر ، ومثل ذلك صلاة النافلة فى السفر على الراحلة ، وكل هذا داخل فى قوله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) فهذه صلاة المعذور بالخوف ، فاذا حصل الأمن صلى صلاة كاملة ، ويدخل فى قوله (فاذا أمنتم فاذكروا الله) تكميل الصلوات ، ويدخل فيه أيضا الاكثار من ذكر الله شكراً له على نعمة الأمن وعلى نعمة

التعليم ، وفى الآية الكريمة فضيلة العلم وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الاكثار من ذكر الله وفيه تنبيه على أن الاكثار من ذكر الله سبب لنيل علوم أُخر لم يكن العبد ليعرفها ، فان الشكر مقرون بالمزيد ، وقد ذكر الله صلاة الخوف فى سورة النساء فى قوله (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) فأمر بها على تلك الصفة تحصيلا للجماعة لها وقياماً للألفة وجمعاً بين القيام بالصلاة والجهاد حسب الامكان وبالقيام بالواجبات مع التحرز من شرور الأعداء ، فسبحان من جعل فى كتابه الهدى والنور والرشاد واصلاح الأمور كلها .

فصل

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقال (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ،ولستم بآخذيه إلا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غنى حميد) وقال (وآتوا حقه يوم حصاده)

قد جمع الله فى كتابه فى آيات كثيرة بين الأمر باقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما مشتركتان فى أنهما من أهم فروض الدين ومبانى الاسلام العظيمة ، والايمان لا يتم إلا بهما ، ومن قام بالصلاة وبالزكاة كان مقيما لدينه ، ومن ضيعهما كان لما سواهما من دينه أضيع . فالصلاة فيها الاخلاص التام للمعبود وهى ميزان الايمان ، والزكاة فيها الاحسان إلى المخلوقين وهى برهان الايمان . ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعى الزكاة ، وقال أبو بكر رضى الله عنه « لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » فقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) هذا الأمر موجه للنبى ﷺ ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة وهى الزكاة ، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض كما صرح به فى الآية الأخرى (من طيبات ما كسبتم) من النقود والعروض والماشية المنماة (ومما أخرجنا لكم من الارض) من الحبوب والثمار ، وقد وضح النبي ﷺ النُّصب فى هذه الانواع كلها ، وبين مقدار الواجب منها وأنها عشر الخارج من الارض مما يسقى بلا مؤنة ، ونصف عشره فيما سقى بمؤنة ، وربع العشر من أموال التجارة وذلك إذا حال الحول فى أموال التجارة ، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار كما هو صريح الآية المذكورة .

وأمر تعالى باخراج الوسط فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالى من ماله إلا أن يختار هو ذلك

ولا يحل له أن يتيمم الخبيث وهو الردىء من ماله فيخرجه ، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضاً ، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلا ، وبين تعالى الحكمة فى ذلك وأنها حكمة معقولة ، فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الردىء من ماله الذى هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والاغماض ، فكيف ترضون لربكم ولاخوانكم مالا ترضونه لأنفسكم فليس هذا من الانصاف والعدل .

وبيّن تعالى الحكمة فى الزكاة وبيان مصالحها العظيمة فقال (تطهرهم وتزكيهم بها) فهذه كلمة جامعة يدخل فيها من المنافع للمعطى والمعطى والمال والامور العمومية والخصوصية شىء كثير . فقوله (تطهرهم) أى من الذنوب ومن الاخلاق الرذيلة ، فان من أعظم الذنوب وأكبرها منع الزكاة ، وأيضاً اعطاؤها سبب لمغفرة ذنوب أخرى ، فانها من أكبر الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات

ومن أشنع الاخلاق الرذيلة البخل . والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل ، ويتصف صاحبها بالرحمة والاحسان والشفقة على الخلق وتطهر المال من الاوساخ والآفات ، فان للأموال آفات مثل آفات الابدان ، وأعظم آفاتها أن تخالطها الاموال المحرمة ، فهى للأموال مثل الجرب تسحته وتحل به النكبات والنوائب المزعجة ، فاخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء ، فيستعد بذلك للنماء والبركة وتوجيهه للامور النافعة ، وأما قوله (وتزكيهم بها) فالزكاة هى النماء والزيادة ، فهى تنمى المؤتى للزكاة ، تنمى أخلاقه وتحل البركة فى أعماله ويزداد بالزكاة ترقياً فى مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ؛ وتنمى المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره وتحل فيه البركة من الله ، ولهذا قال النبى ﷺ « ما نقصت صدقة من مال » بل تزيده وتنمى أيضا المخرج اليه فتسد حاجته ، وتقوم المصلحة الدينية التى تصرف فيها الزكاة كالجهاد والعلم والاصلاح بين الناس والتأليف ونحوها ، وأيضاً تدفع عادية الفقر والفقراء ، فان أرباب الاموال اذا احتكروها واحتجزوها ولم يؤدوا منها شيئا للفقراء ، اضطر الفقراء وهم جمهور الخلق وثاروا بالشر والفساد على أرباب الاموال ، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق ، فالقيام بالدين الاسلامى على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه هو السد المانع شرعا وقدراً لهذه الطائفة التى بها فساد الاديان والدنيا والآخرة ، وأمر تعالى الآخذ منهم الزكاة أن يصلى عليهم فيدعو لهم بالبركة ، فان فى ذلك تطمينا لخواطرهم وتسكينا لقلوبهم وتنشيطا لهم وتشجيعاً على هذا العمل الفاضل ، وكما أن الامام والساعى مأمور بالدعاء للمزكى عند أخذها فالفقير المحتاج إذا أعطيها من باب أولى أن يشرع له الدعاء للمعطى تسكينا لقلبه ، وفى هذا اعانة على الخير .

ودل تعليل الآية الكريمة أن كل ما أعان على فعل الخير ونشط عليه وسكن قلب صاحبه

أنه مطلوب ومحبوب لله ، وأنه ينبغى للعبد مراعاته وملاحظته فى كل شأن من شئونه ، فان من تفطن له فتح له أبوابا نافعة له ولغيره بلا تعب ولا مشقة ، وأنه ينبغى ادخال السرور على المؤمنين

ولما امر فى آية البقرة بالنفقات قال « واعلموا أن الله غنى حميد » غنى بذاته عن جميع المخلوقين وهو الغنى عن نفقات المنفقين وطاعات الطائعين ، وانما أمرهم بها وحثهم عليها لمحض مصلحتهم ونفعهم ، وبمحض فضله وكرمه عليهم ، إذ تفضل عليهم بالأمر بهذه الأعمال والتوفيق لفعلها التى توصل أصحابها الى أعلى المقامات وأفضل الكرامات . ومع كال غناه وسعة عطاياه فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم الى دار السلام ، وحميد فى أفعاله التى لاتخرج عن الفضل والعدل والحكمة ، وحميد الأوصاف لان أوصافه كلها محاسن وكمالات لايدرك العباد كنهها ولايقدرونها حق قدرها . فلما حثهم على الانفاق النافع نهاهم عن الامساك الضار ، وبين لهم أنهم بين داعيين : داعى الرحمن يدعوهم الى الخير ويعدهم عليه الفضل والثواب العاجل والآجل ، وخلف ما أنفقوا . وداعى الشيطان الذى يحثهم على الامساك ويخوفهم إن أنفقوا افتقروا ، فمن كان مجيباً لداعى الرحمن وأنفق مما رزقه الله فليبشر بمغفرة الذنوب ، وحصول كل مطلوب ومن كان مجيباً لداعى الشيطان فانه انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ، فليختر العبد أى الامرين أليق به ، وختم الآية بالاخبار بأنه « واسع عليم » أى واسع الصفات كثير الهبات ، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين المخلصين الصادقين ، وعليم بمن هو أهل لذلك فيوفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ؛ وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

المراد بالصدقات هنا الزكاة ، فهؤلاء الثمانية هم أهلها ، إذا دفعت الى جهة من هذه الجهات أجزأت ووقعت موقعها ، وإن دفعت فى غير هذه الجهات لم تجز ، وهؤلاء المذكورون فيها قسمان قسم يأخذ لحاجته كالفقراء والمساكين والرقاب وابن السبيل والغارم لنفسه ، وقسم يأخذ لنفعه العمومى والحاجة اليه ، وهم البقية . فأما الفقراء والمساكين فهم خلاف الأغنياء ، والفقير أشد حاجة من المسكين لأن الله بدأ به ، والأهم مقدم فى الذكر غالبا ، ولكن الحاجة تجمع الصنفين « والعاملين عليها » وهم السعاة الذين يجبونها ويكتبونها ويحفظونها ، ويقسمونها على أهلها فهم يعطون ولو كانوا أغنياء لأنها بمنزلة الأجرة فى حقهم « والمؤلفة قلوبهم » وهم سادات العشائر والرؤساء الذين إذا أعطوا حصل فى إعطائهم مصلحة للاسلام والمسلمين ، إما دفع شرهم عن المسلمين وإما رجاء إسلامهم واسلام نظرائهم ، أو جبايتها ممن لايعطيها أو يرجى قوة ايمانهم « وفى الرقاب » أى فى فكها من الرق كإعانة المكاتبين وكبذلها فى شراء الرقاب لعتقها

وفى فك الأسارى من المسلمين عند الأعداء «والغارمين» للاصلاح بين الناس إذا كان الصلح يتوقف على بذل مال فيعانون على القيام بهذه المهمة والمصلحة العظيمة وهى الاصلاح بين الناس ، ولو أغنياء ، ومن الغارمين مَن ركبتهم ديون للناس وعجزوا عن وفائها فيعانون من الزكاة لوفائها (وفى سبيل الله) أى بذلها فى إعانة المجاهدين بالزاد والمزاد والمركوب والسلاح ونحوها مما فيه إعانة المجاهدين ، ومن الجهاد التخلى لطلب العلم الشرعى والتجرد للاشتغال به (وابن السبيل) وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده فيعان على سفره من الزكاة

فالله تعالى فرضها لهؤلاء الأصناف بحسب حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها ، فان سد الكفايات وقيام المصالح العمومية النافعة من الفروض على المسلمين ، وهى على أهل الأموال شكر منهم لله تعالى على نعمته بالمال وتطهير لهم ولها ونماء وبركة واتصاف بصفات الأخيار ، وسلامة من نعوت الأشرار

فصل فى الطهارة بالماء والتيمم

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم - إلى قوله - لعلكم تشكرون)

هذه الآيات جمع الله فيها أحكام طهارة الماء وطهارة التيمم والتنبيه على شروطهما وبيان كيفياتهما وذكر فوائد ذلك وثمراته الطيبة فبين فيها الأحكام وحكمها وأسرارها ، وهى أحكام كثيرة تستفاد من هذا الموضع

منها أن الطهارة من الحدثين شرط لصحة الصلاة لقوله (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) الخ ومنها أن ذلك عام للفرائض من الصلوات والنوافل ، فكل مايسمى صلاة فلا بد فيه من هذه الطهاره ومنها اشتراط النية للطهارة لقوله « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » أى لأجل الصلاة فان المتطهر إما أن ينوى رفع ماعليه من الأحداث أو ينوى الصلاة ونحوها مما يحتاج إلى الطهارة ، أو ينويهما

ومنها أن غسل هذه الأعضاء لابد منه فى الحدث الأصغر ، فحد الوجه مايدخل فى مسماه وما تحصل به المواجهة ، وذلك من الأذن إلى الأذن عرضاً ، ومن منابت شعر الرأس إلى ماانحدر من اللحيين والذقن طولا مع مسترسل اللحية ، لأن هذا هو الذى تحصل به المواجهة ، وأما اليدان فقد حدها الله الى المرفقين فقال العلماء إن « إلى » بمعنى مع المرفقين ، وأيدوا هذا بأن النبى صلى الله عليه وسلم أدار الماء على مرفقيه ، وكذلك يقال فى الرجلين إلى الكعبين ، وأما الرأس فانه يتعين استيعاب مسحه فان الله امر بمسحه ، والباء للالصاق الذى يقتضى إلصاق المسح بهذا الممسوح ،

وليست للتبعيض . ومنها أن الترتيب بين هذه الأعضاء الأربعة شرط ، لأن الله رتبها وأدخل عضواً ممسوحاً بين الأعضاء المغسولة ، ولا يعلم لهذا فائدة سوى الترتيب وعموم قوله ﷺ « ابدأ بما بدأ الله به » فهو وإن كان وارداً فى الحج فانه يعم كل شيء ، مع أن جميع الواصفين لوضوئه ﷺ ذكروه مرتباً .

ومنها أن الموالاة شرط أيضاً ، ووجه ذلك أن الله تعالى ذكر الوضوء مقترناً بعض الأعضاء ببعض بالواو الدالة على اجتماع هذه العبادة بوقت واحد ، فاذا فرقها فى وقتين لم تكن عبادة واحدة كما لو فرق الصلاة ، وبفعل النبى صلى الله عليه وسلم الدائم الذى كأنك تشاهده أنه كان يوالى بين أعضاء وضوئه ، وهذا أولى من استدلال كثير من أهل العلم بقصة صاحب اللمعة الذى أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يعيد الوضوء كله ، فهو وإن كان فيه بعض الدلالة على هذه المسألة ، لكن يحتمل أن أمره بالاعادة كأمر المسيء فى صلاته أن يعيد ، لأنه رآه مخلا بوضوئه غير متمم له .

ومنها بيان الطهارة الكبرى ، كيفيتها وذكر سببها ، فكيفيتها أن يطهر العبد جميع ظاهر بدنه بالماء لقوله (وإن كنتم جنباً فاطهروا) فلم يخصه بعضوأو بأعضاء معينة ، بل جعل الله التطهير لجميع البدن ، فعلى المتطهر أن يعمم التطهير لجميع ظاهر بدنه وما تحت الشعور ، خفيفة أو كثيفة ، وأن يكون ذلك غسلا لامسحاً .

ومنها أن طهارة الحدث الأكبر لا ترتيب فيها ولا موالاة . ومنها أن من أسبابها الجنابة ، والجنابة قد عرفها المسلمون عن نبيهم صلى الله عليه وسلم أنها انزال المنى يقظة أو مناماً وإن لم يكن جماع أو الجماع وإن لم يحصل انزال ، أو وجود الأمرين كليهما .

وقد بين الله أيضاً فى سورة البقرة سبباً آخر للاغتسال وهو الحيض فى قوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله) فأضاف التطهير فيها إلى البدن كله كالجنابة ، ويشمل ذلك النفاس ، وأما التطهير من اسلام الكافر وتطهير الميت فانه يؤخذ من السنة .

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم فى قراءة الجر فى قوله (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) أنها تدل على مسح الخفين الذى بينته السنة وصرحت به ، وأما قراءة النصب (فى أرجلكم) فانها معطوفة على المغسولات .

ومنها مشروعية التيمم ، وأن سببه أحد أمرين ، إما عدم الماء لقوله (فلم تجدوا ماء) أو التضرر باستعماله لقوله (وإن كنتم مرضى) فكل ضرر يعترى العبد إذا استعمل الماء ، فانه يسوغ له العدول إلى التيمم ، وأنواع الضرر كثيرة ، وأما ذكر السفر فلأنه مظنة الحاجة إلى التيمم لفقد الماء كتقييد الرهن فى السفر ، لا لأن السفر وحده مسوغ للتيمم كما ظنه بعض الناس وهو مناف

لقوله (فلم تجدوا ماء) ومنها أن التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض سواء كان له غبار أم لا ، إذا كان طيباً غير خبيث ، والخبيث هو النجس فى هذا الموضع .

ومنها أن التيمم خاص بعضوين ، بالوجه واليدين ، وأن اليدين عند الاطلاق وعدم التقييد هما الكفان كما فى آية السرقة ، وإذا قيدت كما فى آية الوضوء إلى المرفقين تقيدت بذلك

ومنها التنبيه على ما يوجب الطهارة الصغرى ، وهو الاتيان من الغائط ، يعنى خروج الخارج من أحد السبيلين وملامسة النساء لشهوة ، والسنة بينت الوضوء من النوم الكثير ، ولمس الفرج وأكل لحوم الابل على اختلاف من أهل العلم فى ذلك .

ومنها أن التيمم كما أنه مشروع فى الحدث الأصغر ، فكذلك فى الحدث الأكبر ، لأن الله تعالى ذكره بعد سبب الطهارتين .

ومنها أنه فى طهارة التيمم تستوى فيه الطهارة الصغرى بالكبرى فى مسح العضوين فقط .

ومنها أن الآية الكريمة تدل على أن طهارة التيمم تنوب وتقوم مقام طهارة الماء عند عدمه أو التضرر باستعماله ، لأن الله أنابه منابه وسماه طهارة .

وكذلك الاحاديث الكثيرة تدل على هذا ، وبهذا يعرف أن الصحيح أن طهارة التيمم لا تبطل بخروج وقت ولا دخوله ولا غير ذلك مما قاله كثير من أهل العلم . بل إنها تبطل بأحد أمرين : إما حصول ناقض من نواقض الطهارة ، وإما وجود الماء أو زوال الضرر المانع من استعمال الماء .

ومنها أن الماء المتغير بالطاهرات ، ولو تغيراً كثيراً ، أنه يجب تقديمه على طهارة التيمم ، لأن قوله (فلم تجدوا ماء) نكرة فى سياق النفى فيعم أى ماء سوى الماء النجس .

ومنها ما استدل به كثير من أهل العلم أن من كان فى موضع ليس فيه ماء وهو يشك فى وجوده فيما يقاربه أن عليه أن يطلبه ويفتش فيما حوله قبل أن يعدل إلى التيمم ، لأن قوله (فلم تجدوا) لا يقال إلا بعد طلب ما يمكن طلبه فيه من دون مشقة ، وهو استدلال لطيف .

ومنها أنه لابد فى الطهارة من النية لقوله فى طهارة الماء (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إلى آخره وفى طهارة التيمم « فتيمموا » أى اقصدوا « صعيداً طيباً » ومن لازم ذلك النية

ومنها أن هذه الاحكام التى شرعها الله لعباده إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التى تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها ، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التى لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم ، فمنه التفضل على عباده بالسبب والمسبب .

ومنها أن طهارة التيمم ، وإن لم يشاهد فيها نظافة حسية ، فان فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال العبد لأمر الله ورسوله .

ومنها : القاعدة الكلية فى قوله (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وأن الحرج منفى شرعاً فى جميع ما شرعه الله لعباده ، فأصل العبادات فى غاية السهولة على المكلفين ، ثم إذا عرضت فيها عوارض عجز أو مرض أو تعذر لبعض شروطها ؛ فان الشارع يخففها تخفيفاً يناسب ذلك العارض .

ومنها : أن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الاسلامى ، لما فيها من المنافع للعباد فى قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم ، والتقرب بها إلى الله ، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل ، فجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الاسلام ، وأنه الدين الحق الذى فيه الصلاح والاصلاح ، وأن سعادة الدنيا والآخرة منوطة به ، مترتبة عليه ، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار ، تجد هذا مشاهداً فيها .

فصل في صلاة الجمعة والسفر والأذان

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها من حين ينادى لها ، والمراد بالسعى هنا : الاهتمام بها وعدم الاشتغال بغيرها ، لا المراد به العدْوُ الذى نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، عند المضى الى الصلاة ، فالمشى الى الصلاة بسكينة ووقار ، هو المراد بالسعى هنا (وذروا البيع) أى اتركوه فى هذه الحالة التى أمرتم بالمضى فيها إلى الصلاة ، وإذا أمر بترك البيع الذى ترغب فيه النفوس ، وتحرص عليه ، فترك غيره من الشواغل من باب أولى ، كالصناعات وغيرها (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) حقائق الأمور وثمراتها ، وذلك الخير هو امتثال أمر الله ورسوله ، والاشتغال بهذه الفريضة ، التى هى من أهم الفرائض ، واكتساب خيرها وثوابها ، وما رتب الشارع على السعى لها والمبادرة والتقدم والوسائل ، والمتممات لها من الخير والثواب ، ولما فى ذلك من اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، فان من أرذل الخصال الحرص والجشع الذى يحمل العبد على تقديم الكسب الدنىء على الخير الضرورى ، ومن الخير أن من قدم أمر الله وآثر طاعته على هوى نفسه ، كان ذلك برهان إيمانه ، ودليل رغبته ، وإنابته

إلى ربه ، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، ومن قدم هواه على طاعة مولاه ، فقد خسر دينه ، وتبع ذلك خسارة دنياه ـ وهذا الأمر بترك البيع موقت الى انقضاء الصلاة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) لطلب المكاسب المباحة (وابتغوا من فضل الله) أى ينبغى للمؤمن الموفق وقت اشتغاله فى مكاسب الدنيا ، أن يقصد بذلك الاستعانة على قيامه بالواجبات ، وأن يكون مستعيناً بالله فى ذلك ، طالباً لفضله جاعلا الرجاء والطمع فى فضل الله نصب عينيه فان التعلق بالله والطمع فى فضله من الايمان ومن العبادات ، ولما كان الاشتغال بالتجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله وطاعته أمر الله بالاكثار من ذكره ، فقال (واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أى فى حال قيامكم وقعودكم وفى تصرفاتكم وأحوالكم كلها ، فان ذكر الله طريق الفلاح الذى هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ومن المناسب فى هذا أن يجعل المعاملة الحسنة والاحسان إلى الخلق نصب عينيه ، فان هذا من ذكر الله ، فكل ما قرب الى الله فانه من ذكره ، وكل أمر يحتسبه العبد فانه من ذكره ، فاذا نصح فى معاملته وترك الغش تقرب فى هذه المعاملة الى الله لأن الله يحبها ؛ ولأنها تمنع العبد من المعاملة الضارة وكلما سامح أحداً أو حاباه فى ثمن أو مثمن أو تيسير أو إنظار أو نحوه ، فانه من الاحسان والفضل ، وهو من ذكر الله . قال تعالى « ولا تنسوا الفضل بينكم » « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً » أى خرجوا من المسجد حرصاً على تلك التجارة واللهو ، وتركوا ذلك الخير الحاضر ، حتى انهم تركوا النبى ﷺ قائماً يخطب ، وذلك لحاجتهم لتلك العير التى قدمت المدينة ، وقبل أن يعلموا حق العلم ما فى ذلك من الذم وسوء الأدب ، فاجتماع الأمرين حملاهم على ما ذكر ؛ وإلا فهم رضى الله عنهم كانوا أرغب الناس فى الخير ، وأعظمهم حرصاً على الأخذ عن الرسول وعلى توقيره وتبجيله وحالهم المعلومة فى ذلك أكبر شاهد ، ولكن لكل جواد كبوة ، ثم إن الكبوة التى عوتب عليها العبد ؛ وتاب منها وأناب وغفرها الله وأبدل مكانها حسنة ، لا يحل لأحد اللوم عليها ، قل لمن قدم اللهو والتجارة على الطاعة : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، التى وإن حصل منها بعض المقاصد فان ذلك قليل منغص مفوت لخير الآخرة ، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق ؛ فان الله خير الرازقين ، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب ، ومن قدم الاشتغال بالتجارة على طاعة الله ، لم يبارك له فى ذلك ، وكان هذا دليلا على خلو قلبه من ابتغاء الفضل من الله ، وانقطاع قلبه عن ربه وتعلقه بالأسباب وهذا ضرر محض يعقب الخسران . وفى هذه الآيات فوائد عديدة .

منها : أن الجمعة فريضة على المؤمنين يجب عليهم السعي لها والاهتمام بشأنها ، وأن الخيرات المترتبة عليها لا يقابلها شىء .

ومنها مشروعية الخطبتين ، وأنهما فريضتان ، وأن المشروع أن يكون الخطيب قائما ، لأن قوله (واسعوا الى ذكر الله) يشمل السعى الى الصلاة وإلى الخطبتين ، وأيضاً فان الله ذم من ترك استماع الخطبة .

ومنها : مشروعية النداء يوم الجمعة وغيرها ، لأن التقييد بيوم الجمعة دليل على أن هنـاك نداء لبقية الصلوات الخمس ، كما قال تعالى (وإذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً)

ومنها : النهى عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة ، وذلك يدل على التحريم وعدم النفوذ .

ومنها : أن الوسائل لها أحكام المقاصد ، فان البيع فى الأصل مباح ، ولكن لما كان وسيلة لترك الواجب نهى الله عنه .

ومنها : تحريم الكلام والامام يخطب ، لأنه اذا كان الاشتغال بالبيع ونحوه ، ولو كان المشتغل بعيداً عن سماع الخطبة محرما ، فمن كان حاضراً تعين عليه أن لا يشتغل بغير الاستماع ، كما أيد هذا الاستنباط الأحاديث الكثيرة :

ومنها : أن المشتغل بعبادة الله وطاعته إذا رأى من نفسه الطموح إلى ما يلهيها عن هـذا الخير من اللذات الدنيوية والحظوظ النفسية شرع أن يذكرها ما عند الله من الخيرات ، وما لمؤثر الدين على الهوى ، وما يترتب من الضرر والخسران على ضده .

(واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا)

أى اذا سافرتم فى الأرض لتجارة أو عبادة أو غيرهما ، فقد خفف الله عنكم ورفع عنكم الجناح وأباح لكم بل أحب لكم أن تقصروا الصلاة الرباعية الى ركعتين ، فان حصل مع ذلك خوف ، فلا حرج فى قصر كيفية الصلوات كلها ، وهذا والله أعلم الحكمة فى تقييد القصر بالخوف ، لأنه من المعلوم المتواتر عن النبى ﷺ جواز القصر فى السفر ، ولو كان ليس فيه خوف ، ولكن اذا اجتمع السفر والخوف ، كان رخصة فى قصر العدد للرباعية والهيئة لغيرها ، فان وجد الخوف وحده ، ترتب عليه قصر الهيئات على الصفة التى ثبتت عن النبى ﷺ ، وإن وجد السفر وحده ، لم يكن فيه إلا قصر العدد ، ولهذا لما سئل النبى ﷺ عن هذا القيد قال : صدقة تصدق الله عليكم بها ؛ فاقبلوا صدقته ، أو يقال هذا القصر المذكور فى الآية الكريمة مطلق ، والسنة عن النبى (ص) تقيده وتبين المراد به .

﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ؛ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾

أى ولا تصل على أحد مات من المنافقين ولا تقم على قبره بعد الدفن لتدعو له ، فان الصلاة عليهم والوقوف على قبورهم للدعاء لهم شفاعة لهم وهم لاتنفع فيهم الشفاعة (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) خارجون عن دين الله بالكلية ، ومن كان كافراً ومات على ذلك فما تنفعه شفاعة الشافعين ، وفى ذلك عبرة لغيرهم وزجر ونكال لهم ، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق فانه لا يصلى عليه ولا يدعى له بالمغفرة ، وفى هذه الآية مشروعية الصلاة على المؤمنين والوقوف على قبورهم ، خصوصاً وقت دفنهم للدعاء لهم ، وإن هذا كان عادته صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، وقد بينت السنة وجوب تجهيز الميت المسلم بالتغسيل والتكفين والصلاة عليه وحمله ودفنه كما هو معلوم .

« فصل فى الصيام وتوابعه »

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) الى قوله (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون)

يخبر تعالى بمنته على عباده المؤمنين بفرضه عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة ، لأنه من الشرائع الكبار التى هى مصلحة للخلق فى كل زمان ، وفى هذا حث للأمة أن ينافسوا الامم فى المسارعة اليه وتكميله و بيان عموم مصلحته وثمراته التى لاتستغنى عنها جميع الأمم ، ثم ذكر حكمته بقوله (لعلكم تتقون) فان الصيام من أكبر أسباب التقوى ، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فالصيام هو الطريق الأعظم للوصول إلى هذه الغاية التى فيها سعادة العبد فى دينه ودنياه وآخرته ، فالصائم يتقرب إلى الله بترك المشتهيات تقديماً لمحبة ربه على محبة نفسه ، ولهذا اختصه الله من بين الأعمال حيث أضافه إلى نفسه فى الحديث الصحيح ، وهو من أعظم أصول التقوى ، فان الاسلام والايمان لا يتم بدونه .

وفيه من حصول زيادة الايمان والتمرن على الصبر والمشقات المقربة إلى رب العالمين ، وأنه سبب لكثرة الطاعات من صلاة وقراءة وذكر وصدقة وغيرها ما يحقق التقوى ، وفيه من ردع النفس عن الامور المحرمة من أقوال وأفعال ما هو من أصول التقوى .

ومنها أن فى الصيام من مراقبة الله بترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه ، لعلمه باطلاع ربه عليه ما ليس فى غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم عون على التقوى .

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان « فانه يجرى من ابن آدم مجرى الدم » فبالصيام يضعف نفوذه وتقل معاصى العبد .

ومنها أن الغنى إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك وحمله على مواساة الفقراء المعدمين ، وهذا كله من خصال التقوى .

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام أخبر أنها أيام معدودات ، أى قليلة سهلة ، ومن سهولتها أنها فى شهر معين يشترك فيه جميع المسلمين ، ولا ريب أن الاشتراك هذا من المهونات المسهلات ومن ألطاف المولى ومعونته للصائمين ، ثم سهل تسهيلا آخر فقال « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعـدة من أيام أخر » وذلك للمشقة غالباً رخص الله لهما فى الفطر ، ولما كان لا بد من تحصيل العبد لمصلحة الصيام أمرهما أن يقضياه فى أيام أُخر إذا زال المرض وانقضى السفر وحصلت الراحة

وفى قوله (فعـدة من أيام أُخر) دليل على أنه يقضى عدد أيام رمضان كاملا كان أو ناقصاً ، وعلى أنه يجوز أن يقضى أياماً قصيرة باردة ، عن أيام طويلة حارة كالعكس .

وبهذا أجبنا عن سؤال ورد علينا : أنه يوجد مسلمون فى بعض البلاد التى يكون فى بعض الأوقات ليلها نحو أربع ساعات أو تنقص ، فيوافق ذلك رمضان ، فهل لهم رخصة فى الاطعام إذا كانوا يعجزون عن تتميمها

فأجبنا : إن العاجز منهم فى هذا الوقت يؤخره إلى وقت آخر يقصر فيه النهار ويتمكن فيه من الصيام كما أمر الله بذلك المريض ، بل هـذا أولى ، وأن الذى يقدر على الصيام فى هذه الأيام الطوال يلزمه ولا يحل له تأخيره إذا كان صحيحاً مقيما ، هذا حاصل الجواب .

وقوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قيل هذا فى أول الأمر وفى ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان ابتداء فرضه حتما فيه مشقة عليهم ، درّجهم الرب الحكيم بأسهل ما يكون ، وخيّر المطيق للصوم بين أن يصوم ، وهو الأفضل الأكمل ، أو يطعم ويجزيه ، ثم لما تمرنوا على الصيام وكان ضرورياً على المطيقين فرضه عليهم حتما .

وقيل إن قوله (وعلى الذين يطيقونه) أى يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة لا تحتمل ، كالكبير والمريض الميئوس من برئه فدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره .

وقوله (شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن) أى الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان ، الشهر العظيم الذى قد حصل لكم من الله فيه الفضل العظيم ، وهو إنزال القرآن الذى فيه هدايتكم لجميع مصالحكم الدينية والدنيوية ، وفيه بيان الحق وتوضيحه ، والفرقان بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ، فحقيق بشهر هذا فضله ، وهذا إحسان الله العظيم فيه عليكم أن يكون معظما محترماً موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام ؛ فلما قرر فرضيته وبين حكمته فى ذلك وفى تخصيصه قال (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى من حضر الشهر وهو قادر تحتم عليه صيامه (ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر) أعاد ذلك تأكيداً له ، ولئلا يظن أنه

أيضاً منسوخ مع ما نسخ من التخيير للقادر (يريد الله بكم اليسر) أى يريد الله أن ييسر ويسهل عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ليسهل سلوكها ، ويعين عليها بكل وسيلة ليرغب فيها العباد ؛ وهذا أصل عظيم من أصول الشريعة ، بل الشريعة كلها تدور على هذا الأصل ، فان جميع الأوامر لاتشق على المكلفين ، وإذا حصل بعض المشاق والعجز خفف الشارع من الواجبات بحسب ما يناسب ذلك ، فيدخل فى هذا جميع التخفيفات فى جواز الفطر ، وتخفيفات السفر والأعذار لترك الجمعة والجماعة .

وقوله (ولتكملوا العدة) وذلك لئلا يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود ببعضه دفع هذا الوهم بقوله (ولتكملوا العدة) وأمر بشكره على اتمامه ، لأن من أكبر منن الله على عبده توفيقه لاتمامه وتكميله وتبيين أحكامه للعبيد (ولتكبروا الله على ماهداكم) هداية التعليم وهداية التوفيق والارشاد .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ؛ وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾

هذا سؤال وجواب ، أى إذا سألك العباد عن ربهم ، وبأى طريق يدركون منه مطالبهم ، فأجبهم بهذا الجواب الذى يأخذ بمجامع القلوب ، ويوجب أن يعلق العبد بربه بكل مطلوب دينى ودنيوى ، فأخبرهم أن الله قريب من الداعين ، ليس على بابه حجاب ولا بواب ، ولا دونه مانع فى أى وقت وأى حال ، فاذا أتى العبد بالسبب والوسيلة ، وهو الدعاء لله المقرون بالاستجابة له بالايمان به والانقياد لطاعته ، فليبشر بالاجابة فى دعاء الطلب والمسئلة ، وبالثواب والاجر والرشد إذا دعا دعاء العبادة ، وكل القربات الظاهرة والباطنة تدخل فى دعاء العبادة ، لأن المتعبد لله طالب بلسان مقاله ولسان حاله من ربه قبول تلك العبادة والاثابة عليها .

وفى هذه الآية تنبيه على الاسباب الموجبة لاجابة الدعاء التى مدارها على الايمان بالله وتحقيقه بالانقياد لله امتثالا لأمره واجتناباً لنهيه ، وتنبيه أيضاً على أن موانع الاجابة ترك تحقيق الايمان وترك الانقياد ، فأكل الحرام وعمل المعاصى من موانع الاجابة ، وهى تنافى الاستجابة لله ، وفيه تنبيه على أن الايمان بالله والاستجابة له سبب إلى حصول العلم ، لأن الرشد هو الهدى التام علماً وعملا ، ونظير هذا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً » أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل وبين كل ما يحتاج الى تفصيله .

﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ـ إلى قوله ـ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾

كان أول ما فرض الصيام منع المسلمون من الأكل والشرب فى الليل إذا ناموا ، فحصلت المشقة لكثير منهم ، فخفف الله ذلك وأباح فى ليالى الصيام كلها الأكل والشرب والجماع ، سواء نام أو لم ينم ، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به لو بقى الأمر على ما كان أولا ، فتاب الله عليكم بأن وسع لكم أمراً لولا توسعته لكان داعياً إلى الاثم والاقدام على المعاصى ، وعفا عنكم ما سلف من التخون .

فالآن بعد هذه الرخصة والسعة من الله (باشروهن) وطئاً وقبلة ولمساً (وابتغوا ما كتب الله لكم) أى اقصدوا فى مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله بذلك ، واقصدوا أيضاً حصول الذرية واعفاف الفرج وحصول جميع مقاصد النكاح ، وابتغوا أيضاً ليلة القدر ، فإياكم أن تشتغلوا بهذه اللذة وتوابعها وتضيعوا ليلة القدر ، وهى مما كتبه الله لهذه الأمة ، وفيها من الخير العظيم مايعد تفويته من أعظم الخسران ، فاللذة مدركة ، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك ، ولم يعوض عنها شىء (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هذا غايه جواز الأكل والشرك والجماع فى ليالى الصيام ؛ وفيه أن هذه الثلاثة إذا وقعت وصاحبها شاك فى طلوع الفجر فلاحرج عليه ، ودليل على استحباب السحور ، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد ، ودليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل لأن من لازم اباحة الجماع إلى طلوع الفجر أن يدركه الفجر وهو جنب ، ولازم الحق حق ، ثم إذا طلع الفجر أتموا الصيام ، أى أمسكوا عن المفطرات إلى الليل ، وهو غروب الشمس

ولما كانت إباحة الوطء فى ليالى الصيام ليست إباحة عامة لكل أحد ، استثنى تعالى المعتكف بقوله (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) أى وأنتم متصفون بذلك ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف ؛ وهو لزوم المساجد لطاعة الله ، وإن الاعتكاف لا يصح إلا بمسجد ؛ ويستفاد من تعريف المساجد بالألف واللام أنها المساجد التى يعرفها المسلمون ، وأنها التى تقام فيها الصلوات الخمس

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف ، تلك المذكورات وهى تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوها من مفطرات الصيام ، وتحريم الوطء على المعتكف ونحو ذلك من المحرمات التى حدها لعباده ونهاهم عنها « فلا تقربوها » أى لاتفعلوها ولا تحوموا حولها وتفعلوا وسائلها ، والعبد مأمور بترك المحرمات والبعد عنها بترك كل وسيلة تدعو اليها .

وأما الأوامر فيقول الله فيها « تلك حدود الله فلا تعتدوها » فينهى عن مجاوزتها ، كذلك البيان السابق والتوضيح التام من الله لعباده « يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » فان العلم الصحيح سبب للتقوى لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه ، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه ، ومن علم الحق فتركه والباطل فاتبعه كان أعظم لجرمه وأشد لاثمه .

(فصـل فى الحج وتوابعه)

قال الله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين ﴾ وقال ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ إلى آخر الآيات المتعلقة بالحج

لما قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ؛ فيه آيات بينات ، مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمناً) وكان فى ذلك تنبيه على الحكم والأسرار والمصالح والبركات المتنوعة المحتوى هذا البيت العظيم عليها ، وكان ذلك داعياً إلى تعظيمه بغاية مايمكن من التعظيم أوجب الله على العباد حجّه وقصده لاداء المناسك التى فعلها رسول الله ﷺ وعلمها أمته وأمرهم أن يأخذوا عنه مناسكهم ، فأوجبه على من استطاع اليه سبيلا ، بأن قدر على الوصول اليه بأى مركوب متيسر وبزاد يتزوده ويتم به السبيل ، وهذا هو الشرط الأعظم لوجوب الحج وهذه الآية صريحة فى فرضية الحج ، وأنه لايتم للعبد اسلام ولا إيمان وهو مستطيع إلا بحجه ، وأن الله إنما أمر به العباد رحمة منه بهم وإيصالا لهم إلى أجلّ مصالحهم وأعلى مطالبهم ، وإلا فالله غنى عن العالمين وطاعاتهم ، فمن كفر فلم يلتزم لشرع الله فهو كافر ولن يضر إلا نفسه

وأما آية البقرة فان الله أمر فيها باتمام الحج والعمرة بأركانها وشروطهما وجميع متماتهما ، ولا فرق فى ذلك بين الفرض والنفل ، وبهذا تميز الحج والعمرة عن غيرهما من العبادات ؛ وإن من شرع فيهما وجب عليه إتمامها لله مخلصاً ، ويدخل فى الأمر باتمامهما أنه ينبغى للعبد أن يجتهد غاية الاجتهاد فى فعل كل قول وفعل ووصف وحالة بها تمام الحج والعمرة ، وذلك شىء كثير مفصل فى كتب أهل العلم ، وأن من دخل فيهما فلا يخرج منهما إلا باتمامهما والتحلل منهما إلا بما استثناه الله وهو الحصر ، ولهذا قال (فان أُحصرتم) أى منعتم من الوصول إلى البيت ومن تتميم المناسك بمرض أو عدو أو ذهاب نفقة أو ضللتم الطريق أو غير ذلك من أنواع الحصر الداخلة فى عموم قوله (أحصرتم) فاذبحوا ما تيسر من الهدى وهو شاة أو سُبع بدنة أو سبع بقرة يذبحها المحصر ويحلق رأسه ويحل من احرامه بسبب الحصر ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لما صدهم المشركون عن البيت وهم محرمون عام الحديبية ، فان لم يتيسر الهدى على المحصر فهل يكفيه الحلق وحده ويحل ، كما فعله الصحابة الذين لم يكن معهم هدى ، وهو الصحيح ، أو ينوب عن الهدى صيام عشرة أيام قياساً على هدى التمتع كما قاله آخرون ثم يحل ؟ ثم قال تعالى (ولاتحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله)

وفى هذا أن المحرم يحرم عليه إزالة شىء من شعر بدنه تعظيما لهذا النسك ، وقاس عليه أهل العلم

ازالة الأظفار بجامع الترفه ، ويستمر المنع من ذلك حتى يبلغ الهدى محله ، وهو وقت ذبحه يوم النحر ، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر ، ويجوز أن يقدم الحلق على النحر كما رخص فى ذلك النبي ﷺ حين سئل عمن قدم الحلق أو الرمى أو الذبح أو الطواف بعضها على بعض . فقال افعل ولا حرج .

ويستدل بالآية الكريمة على أن المتمتع كالقارن والمفرد لايحل من عمرته إذا كان سائقاً للهدى حتى يبلغ الهدى محله ، فقيل إنه إذا حل من عمرته بأن فرغ من الطواف والسعى بادر بالدخول بالحج بالنية ، وقيل إنه بسوقه للهدى صار قارناً ، وأن الهدى الذى استصحبه حيث أنه كان للنسكين كليهما مزج بين النسكين وصار صاحبه قارناً ، وهذا هو القول الصواب ، وإنما منع تعالى من الحل لمن ساق الهدى قبل محله ، لما فى سوق الهدى وما يتبعه من كشف الرأس وترك أخذ الشعور ونحوها من الذل والخضوع لله والانكسار له والتواضع الذى هو روح هذا النسك وعين صلاح العبد وكماله ، وليس عليه فى ذلك ضرر ؛ فاذا حصل الضرر بأن كان به أذى من رأسه من مرض ينتفع بحلق رأسه أو قروح أو قمل أو نحو ذلك ، فانه يحل له أن يحلق رأسه ، ولكن يكون عليه فدية تخيير ، يخير بين صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام ستة مساكين ، أوذبح شاة ، وهذه تسمى فدية الأذى وألحق بذلك إذا قلم أظفاره ، أو لبس الذكر المخيط ، أو غطى رأسه ، أو تطيب المحرم من ذكر وأنثى ، فكل هذا فديته فدية تخيير بين الصيام أو الأطعام أو النسك

وأما فدية قتل الصيد فقد ذكر الله التخيير فيها بين ذبح المثل من النعم أو تقويمه بطعام فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره ، أو يصوم عن اطعام كل مسكين يوماً ؛ فهذه الأنواع فديتها تخيير .

وأما المتمتع والقارن ، فان هديهما هدى نسك ، غير هدى جبران ، وهو على الترتيب ، إن تيسر الهدى وجب الهدى ، فان لم يتيسر فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة فى الحج ولايؤخرها عن أيام التشريق ، وسبعة إذا رجع - أى فرغ من جميع شئون النسك - ودل اطلاق ايجاب الصيام على أنه يجوز فيها التتابع والتفريق (ذلك) أى وجوب الهدى على المتمتع والقارن ؛ أو بدله لمن لم يجد من الصيام ، لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، وهم الأفقية ، لأن من الحكمة فى ايجاب الهدى على الأفقى أنه لما حصل نسكين فى سفرة واحدة كان هذا من أعظم نعم الله ، فكان عليه أن يشكر الله على هذه النعمة الجليلة ، ومن جملة الشكر ايجاب الهدى عليه .

وأما المقيمون فى مكة أو كانوا فى قربها بحيث لايقال لهم مسافرون ، فليس عليهم هدى ولا بدله لما ذكرنا من الحكمة (واتقوا الله) فى جميع أموركم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات فى هذه العبادة الجليلة واجتنابكم لمحظوراتها (واعلموا أن الله

شديد العقاب) أى لمن عصاه ، وذلك موجب للتقوى ، فان من خاف عقاب الله انكف عن السيئات ، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب ، وأما من لم يخف الله فانه لا بد أن يتجرأ على المحارم ويتهاون بالفرائض .

ثم أخبر تعالى ان الحج واقع فى أشهر معلومات عند المخاطبين ، بحيث لا تحتاج إلى تعيين كما احتاج الصيام لتعيين شهره ، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس ، وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التى لم تزل مستمرة فى ذريته معروفة بينهم ، والمراد بالأشهر المعلومات عند الجمهور : شوال وذو القعدة ، وعشر أو ثلاثة عشر من ذى الحجة ، فهى التى يقع فيها الاحرام بالحج غالبا ، وهى التى تقع فيها أفعال الحج ، أركانه وواجباته ومكملاته ، فمن فرض فيهن الحج أى عقده وأحرم به ، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان قبل ذلك نفلا .

واستدل بهذه الآية الشافعى ومن قال بقوله : انه لايجوز الاحرام بالحج قبل أشهره ، ولو قيل إن الآية فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الاحرام بالحج قبل أشهره لكان قريباً ، لأن قوله (فمن فرض فيهن الحج) دليل على أنه يقع الفرض فيهن وفى غيرهن ، وإلا لما كان فى القيد فائدة « فلا رفث ولا فسوق ولاجدال فى الحج » أى يجب عليكم أن تعظموا حرمة الاحرام بالحج ، وخصوصاً الواقع فى أشهره ، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث ، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ، خصوصاً التكلم فى أمور النكاح بحضرة النساء « ولا فسوق » وهو جميع المعاصى ، ومنها محظورات الاحرام « ولاجدال » والجدال هو المماراة والمنازعة والمخاصمة لكونها تثير الشر وتوقع العداوة ، والمقصود من الحج الذل والانكسار لله والتقرب اليه بما أمكن من القربات والتنزه عن مقارفة السيئات ، فانه يكون بذلك مبروراً ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة فى كل زمان ومكان ، فانه يتأكد المنع منها فى الحج .

واعلم أنه لا يتم التقرب الى الله بترك المعاصى حتى يفعل الأوامر فلهذا أتبعه بقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) أتى بمن المفيدة لتنصيص العموم فكل عبادة وقربة فانها تدخل فى هذا، والاخبار بعلمه يتضمن الحث على أفعال الخير خصوصا فى تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة فانه ينبغى اغتنام الخيرات والمنافسة فيها من صلاة وصيام وصدقة وقراءة وطواف واحسان قولى وفعلى (وتزودوا) لهذا السفر المبارك فان التزود فيه الاستغناء عن الخلق وعدم التشوف لما عندهم واعانة المسافرين والتوسعة على الرفقة والانبساط والسرور فى هذا السفر وزيادة التقرب الى الله تعالى وهذا الزاد المراد به اقامة البنية بلغة ومتاع وأما الزاد الحقيقى المستمر نفعه لصاحبه فى دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذى هو زاد الى دار القرار وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائما أبدا ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذى هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول الي دار المتقين وقد يتمكن

الموفق من جعل الزاد الحسى يجمع الزادين بأن يقصد به وجه الله والقيام بواجب النفس والرفقة ومن يتصل به ، والقيام بالاحسان المستحب وقصد امتثال أمر الله ، فالنية هى الأساس لكل خير التى تجعل الناقص كاملا والعادة عبادة ، ثم قال « واتقون يا أولى الألباب » أى يا أهل العقول الرزينة اتقوا ربكم الذى تقواه أعظم ما تأمر به العقول ، وتركها دليل على فساد العقل والرأى .

ولما أمر بتقواه أخبر أن ابتغاء فضله بالاشتغال بالتكسب فى التجارة فى مواسم الحج وغيرها ، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج وكان الكسب حلالا منسوباً إلى فضل الله معترفاً فيه بنعمة الله ، لا منسوباً إلى حذق العبد والوقوف مع السبب ونسيان المسبب ، فان هذا هو الحرج بعينه فى كل وقت ، فكيف إذا قارن النسك الفاضل ، وفى قوله « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » دلالة على أمور :

أحدها : أن الوقوف بعرفة من المشاعر الجليلة ، ومن أركان الحج ، فان الافاضة من عرفات لاتكون إلا بعد الوقوف الذى هو ركن الحج الأعظم بعد الطواف .

الثانى : الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ، وذلك أيضاً معروف يكون الحاج ليلة النحر بائتاً بها ، وبعد صلاة الفجر يقف فى المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً .

ويدخل فى ذكر الله عند المشعر الحرام ما يقع فى المشعر من الصلوات فرضها ونفلها

الثالث : أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة ، كما تدل عليه الفاء المفيدة للترتيب

الرابع والخامس : أن عرفات ومزدلفة كليهما من مشاعر الحج المقصود فعلها واظهارها .

السادس : أن مزدلفة فى الحرم كما قيده بالمشعر الحرام

السابع : أن عرفة بالحل كما هو مفهوم التقييد بمزدلفة « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » أى اذكروا الله كما منّ عليكم بالهداية بعد الضلالة ، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فهذه من أكبر النعم التى يجب شكرها ومقابلتها بالاكثار من ذكر المنعم بالقلب واللسان « ثم أفيضوا » أى من مزدلفة من حيث أفاض الناس من لدن ابراهيم إلى هذا الوقت والمقصود من هذه الافاضة كان معروفا عندهم ، وهو رمى الجمار وذبح الهدايا والطواف والسعى والمبيت بمنى ليالى أيام التشريق ، وتكميل بقية المناسك .

ولما كانت هذه الافاضة يقصد بها ما ذكر ، والمذكورات آخر المناسك ، أمر تعالى بعد الفراغ منها باستغفاره ، خشية الخلل الواقع من العبد فى اداء العبادة وتقصيره فيها ، وبالاكثار من ذكره شكراً له على نعمة التوفيق لهذه العبادة العظيمة وتكميلها ، وهكذا ينبغى للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير ويشكره على التوفيق ، فهذا حقيق بأن الله يجبر له ما نقص منها ويتقبلها ويزيده نعما أخرى ، لا من جهل حق ربه فرأى نفسه أنه قد كمل حقوق

العبادة فأعجب بنفسه ومنّ بعبادته على ربه ، وتراءى له أنه قد جعلت له محلا ومنزلة رفيعة ، فهذا حقيق بالمقت ويخشى عليه من رد العمل .

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق ، وأن الجميع يسألونه مطالبهم ، ويستدفعونه ما يضرهم ؛ ولكن هممهم ومقاصدهم متباينة ، فمنهم من يقول « ربنا آتنا فى الدنيا » أى يسأل ربه من مطالب دنياه وشهواته فقط « وما له فى الآخرة من خلاق » لا رغبة له فيها ولا حظ له منها ، ومنهم عالى الهمة من يدعو الله لمصلحة الدارين ، ويفتقر الى ربه فى مهمات دينه ودنياه ، وكل من هؤلاء وهؤلاء له نصيب من كسبهم وعملهم ، وسيجازيهم الله على حسب أعمالهم ونياتهم ، جزاء دائراً بين الفضل والاحسان والكرم للمقبولين ، وبين العدل والحكمة لغيرهم ، وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى يقبل دعوة كل داع مسلما كان أو كافراً براً أو فاجراً ، ولكن ليست اجابته دعاء من دعاه دليلا على محبته وقربه منه إلا فى مطالب الآخرة ومهمات الدين ، فمن أجيبت دعوته فى هذه الأمور الدائم نفعها كان من البشرى ، وكان أكبر دليل على بره وقربه من ربه .

والحسنة المطلوبة فى الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد وما به تكمل حياته ، من رزق هنىء واسع حلال ، وزوجة صالحة ، وولد تقرّ به العين ، ومن راحة وعلم نافع وعمل صالح ، وما يتبع ذلك من المطالب النافعة المحبوبة والمباحة .

وأما حسنة الآخرة ، فهى السلامة من العقوبات التى يستقبلها العباد من عذاب القبر والموقف وعذاب النار ، وحصول رضا الله والفوز بالنعيم المقيم والقرب من الرب الرحيم ، فهذا الدعاء أجمع الأدعية وأكملها وأولاها بالايثار ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر من الدعاء به ويحث عليه

ولما أكمل الله تعالى أحكام النسك أمر بالاكثار من ذكره فى الأيام المعدودات . وهى أيام التشريق فى قول جمهور المفسرين ، وذلك لمزيتها وشرفها وكون بقية المناسك تفعل بها ، ولكون الناس فيها أضيافاً لله ، ولهذا حرم صيامها ، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » ويدخل فى ذكر الله رمى الجمار والتكبير عند رميها ، والدعاء بين الجمرتين ، والذبح والتسمية فيه ، والصلوات التى تفعل فيها من فرائض ونوافل ، والذكر المقيد بعد الفرائض فيها ، وعند كثير من أهل العلم أنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر ، فجميع ما يقرب إلى الله داخل بذكره (فمن تعجل فى يومين) أى خرج من منى ونفر منها قبل غروب الشمس فلا إثم عليه ، ومن تأخر بأن بات بها ليلة الثالث من أيام التشريق ليرمى من غده فلا إثم عليه ، وهذا تخفيف من الله على عباده حين

أباح الأمرين مع أن التأخر أرجح لموافقته فعل النبي ﷺ وزيادة العبادات ، وقوله (لمن اتقى) هذا من الاحتراز العالى ، لأن نفى الحرج يوهم العموم ، فقيل ذلك بهذا الشرط الذى هو شرط لنفى الحرج فى كل شيء (واتقوا الله) بامتثال أوامره واجتناب نواهيه (واعلموا أنكم اليه تحشرون) فمجازيكم بأعمالكم ، فمن اتقاه وجد عنده جزاء المتقين ، ومن لم يتقه عاقبه عقوبة تارك التقوى ، فان التقوى هى ميزان الثواب والعقاب فى القائم بها والمضيع لها ، فالعلم بالجزاء والايمان به هو أعظم الدواعى للقيام بالتقوى .

وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود

يذكر الله تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته ، وعظمة بانيه ، وهو خليل الرحمن فقال « وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت » أى هيئناه له وأنزلناه إياه ، بحيث جعل قسما من ذريته هم سكانه وأمره الله ببنيانه ، فبناه وأسسه على تقوى الله ورضوانه هو وابنه اسماعيل بنية صادقة وخضوع لله واخلاص ودعاء منهما أن يتقبل منهما هذا العمل الجليل ، فتقبله الله .

فهذه آثار القبول لهذا البيت فى كل وقت وجيل متواصلة ، ووصاه بأن لايشرك به شيئاً ، بأن ينفى الشرك عنه وعن ذريته ، وعمن وصلت اليه دعوته « وطهر بيتى » أى من الشرك والمعاصى ، ومن الأنجاس والأدناس ، وأضافه إلى نفسه ليكتسب شرفاً إلى شرفه ، ولتعظم محبته فى القلوب ، لكونه بيت محبوبها الأعظم ، وتنصب وتهوى اليه الأفئدة من كل جانب وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه للطائفين به ، والقائمين عنده للعبادات المتنوعة « والركع السجود » أى المصلين ، أى طهره لهؤلاء الفضلاء الذين ليس لهم همّ إلا طاعة مولاهم وما يقربهم اليه ، فهؤلاء لهم الحق ، ومن اكرامهم تطهير هذا البيت لهم وتهيئته لما يريدونه عنده ، ويدخل فى تطهيره ، تطهيره من الأصوات اللاغية المرتفعة التى تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف والقراءة وغيرها ، وقدم الطواف لاختصاصه بهذا البيت ، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد (وأذن فى الناس بالحج) أى أعلمهم به وادعهم اليه ، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته ، فانك إذا دعوتهم عن أمر الله أتوك حجاجاً وعماراً « رجالا » أى مشاة على أرجلهم من الشوق « وعلى كل ضامر » أى ناقة ضامر تقطع المهامه والمفاوز وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن « من كل فج عميق » أى مكان وبلد بعيد ، وقد فعل الخليل صلى الله عليه وسلم ذلك ، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم فدعيا الناس إلى حج هذا البيت ، وأبديا وأعادا فيه فحصل ما وعد الله به ، أتاه الناس رجالا وركبانا من مشارق الارض ومغاربها ؛

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الحرام مرغبا فيه فقال (ليشهدوا منافع لهم) أى لينالوا بوصولهم لبيت الله فى الانساك منافع متنوعة دينية ، ومنافع دنيوية كالتكسب وحصول الارباح ، وهذا أمر مشاهد يعرفه كل أحد ، فجميع العلوم والعبادات الدينية التى تفعل فى تلك البقاع الفاضلة ، وماجعل الله لها من التضعيف داخل فى هذه المنافع ، وجميع المنافع الدنيوية التى لا تعد ولا تحصى داخلة فى ذلك فصدق الله وعده ، وأنجز ما قاله ، وكان ذلك آية وبرهانا على توحيده وصدق رسله

وقوله (ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) وهذه تجمع الأمرين : الدينية والدنيوية أى ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم ، فاذا ذبحتموها (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أى شديد الفقر ، والآية الأخرى (القانع)وهو الفقير الذى لا يسأل الناس (والمعتر) الفقير السائل. وفى هذا الأمر بالأكل والاهداء والصدقة فان الأمر يشمل أكل أهلها منها وإهداءهم للأغنياء (ثم ليقضوا تفثهم) أى يستكملوا بقية إنساكهم ويزيلوا عنهم محظورات الاحرام وما ترتب عليها من الشعث ونحوه (وليوفوا نذورهم) التى أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا فنفس عقد العبد للاحرام ايجاب منه على نفسه (وليطوفوا بالبيت العتيق) أى القديم أقدم المساجد على الاطلاق ، المعتق من تسلط الجبابرة عليه ، وتخصيص الطواف به دون غيره من المناسك لفضله وشرفه ، ولكونه المقصود وما قبله وما بعده وسائل وتوابع ، ولأنه يتعبد به لله مع الانساك ووحده وأما بقية الانساك فلا تكون عبادة إلا إذا كانت تابعة لنسك

فصل فى آيات تتعلق بالجهاد وتوابعه

قال الله تعالى (أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) الآيات

كان المسلمون فى أول الأمر مأمورين بكف الأيدى عن قتال الكفار ، وإنما جهادهم بالدعوة لحكمة ظاهرة ، فلما اضطهدوا واضطرهم الأعداء إلى ترك بلادهم وأوطانهم وقتلوا من قتلوا وحبسوا من حبسوا ، وجدّوا فى العداوة البليغة بكل طريق ، وهاجر المسلمون بسبب ذلك إلى المدينة وقواهم الله على قتال الأعداء ، وقد رماهم الاعداء عن قوس واحدة ، فحينئذ أذن الله لهم فى القتال ولهذا قال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) لمنعهم من دينهم وإخراجهم من ديارهم ومطاردتهم لهم فى كل مكان (وان الله على نصرهم لقدير) وهذا مع أمره لهم بفعل الأسباب ومقاومة الاعداء بكل مستطاع أمر لهم بالتوكل عليه واستنصاره والطلب منه

ثم ذكر صفة عدوانهم فقال (الذين أخرجوا من ديارهم) بالأذية والفتنة بغير حق إلا أن ذنبهم إيمانهم بالله واعترافهم بأنه ربهم وإلههم ، وأنهم أخلصوا له الدين وتبرؤا من عبادة المخلوقين

وهذا كما قال تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وهذا ظاهر فى حكمة الجهاد وعظم مصلحته ، وانه من الضروريات فى الدين فان المقصود به إقامة دين الله والدعوة إلى عبادته التى خلق الله المكلفين لها ، وأوجبها عليهم ودفع كل من قاوم الأمر الضرورى ومقاومة الظالمين المعتدين على دين الله وعلى المؤمنين من عباده كما قال تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ولهذا قال (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) فلولا مدافعة الله الناس بعضهم ببعض بأسباب متعددة وطرق متنوعة قدرية وشرعية وأعظمها وأجلها وأزكاها الجهاد فى سبيله لاستولى الكفار الظالمون ومحقوا أديان الرسل فقتلوا المؤمنين بهم وهدموا معابدهم ، ولكن ألطاف الله عظيمة ، وأياديه جسيمة ، وبهذا وشبهه يعرف حكمة الجهاد الدينى ، وأنه من الضروريات لا كقتال الظلمة المبنى على العداوات والجشع والظلم والاستعباد للخلق ، بل الجهاد الاسلامى مرماه وغرضه الوحيد اقامة العدل وحصول الرحمة واستعباد الخلق لخالقهم ، وأداء الحقوق كلها ونصر المظلومين وقمع الظالمين ، ونشر الصلاح والاصلاح المطلق بكل وجه واعتبار ، وهو من أعظم محاسن دين الاسلام

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ؛ واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)

هذه الآيات تضمنت الأمر بجهاد الأعداء ، والارشاد إلى الأسباب التى ينبغى للجيوش والمجاهدين الأخذ بها ، فمن أعظمها وأهمها أمران : الصبر وهو الثبات التام وإبداء كل مجهود فى تحصيل ذلك ، والثانى التوكل على الله والتضرع اليه والاكثار من ذكره ، فمتى اجتمع الأمران على وجه الكمال والتكميل فقد أتى المجاهدون بالأسباب الوحيدة للنصر والفلاح فليبشروا بنصر الله وليثقوا بوعده

فيدخل بالأمر بالصبر والثبات تمرين النفوس على ذلك فانه من يتصبر يصبره الله ، وتعلم الرمى والركوب والفنون العسكرية المناسبة للزمان ، فان التعلم وتعلم أمور الجهاد من أكبر العون على الثبات والصبر ، ومن ذلك الحث على الشجاعة والسعى فى أسبابها والترغيب فى فضائل الجهاد وما فيه من الثمرات العاجلة والآجلة وما فى تضييعه من ضياع الدين والدنيا واستيلاء الأعداء والذل والدمار ، فان النفوس الأبية والهمم العلية لا ترضى لأنفسها بغير هذا الخلق الفاضل الذى هو أعلى الأخلاق وأنفعها قال تعالى (إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) فحثهم على الصبر بتأملهم وطمعهم فى الأجر والثواب وإدراك المقامات العالية

وقال أيضا فى ذم الناكلين وترغيب التائبين الصابرين (ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقال عن المنافقين ونكولهم عن مشقة الجهاد (وقالوا لاتنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) أى لو كان عندهم فقه نافع فى تنزيل الأشياء منازلها وتقديم ما ينبغى تقديمه لآثروا مشقة الجهاد على راحة القعود الضار عاجلا وآجلا

وفى هذا انه بحسب فقه العبد وعلمه ويقينه يكون قيامه بالجهاد وصبره عليه وثباته ،ومن دواعى الصبر وهو من الفقه أيضا أنه إذا علم المجاهد انه على الحق ويجاهد أهل الباطل ان هذا أعلى الغايات وأشرفها وأحقها وأن الحق منصور وعاقبته حميدة

ومن دواعى الصبر الثقة بالله وبوعده فان الله وعد الصابرين العون والنصر ، وانه معهم فى كل أحوالهم ومن كان الله معه فلو اجتمع عليه من بأقطارها لم يخف إلا الله ؛ ومما يعين على الصبر والثبات . (الأمر الثانى) وهو التوكل على الله وقوة الاعتماد عليه والتضرع إليه فى طلب النصر والاكثار من ذكره كما قال تعالى هنا حيث رتب على هذا الفلاح (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) . وقال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقال تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) أى تقوموا بدينه وبالحق الذى جاء به رسوله مخلصين لله قاصدين أن تكون كلمة الله هى العليا ينصركم ويثبت أقدامكم وقال تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون)فاخباره بأنه المتفرد بنصرهم وأن غيره لايملك من النصر شيئا وأمرهم بالتوكل عليه أمر لهم بأقوى الأسباب النافعة فى هذا المقام العظيم ، وقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه. أليس الله بكاف عبده) أى الذى قام بعبوديته فبحسب توكلهم عليه وقيامهم بعبوديته يحصل لهم النصر والكفاية التامة

ومن أسباب النصر والصبر والثبات اتفاق القلوب وعدم التفرق والتنازع ، فان ذلك محلل للقوة موجب للفشل وأما اجتماع الكلمة وقيام الألفة بين المؤمنين واتفاقهم على إقامة دينهم وعلى نصره فهذا أقوى القوى المعنوية التى هى الأصل والقوة المادية تبع لها ، والكمال الجمع بين الأمرين كما أمر الله بذلك فى هذه الآية وفى قوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم) الآية

ومن أسباب الثبات والنصر حسن النية وكمال الاخلاص فى إعلاء كلمة الحق فلهذا حذر

تعالى من مشابهة الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، فهؤلاء لما لم يعتمدوا على ربهم وأعجبوا بأنفسهم وخرجوا أشرين بطرين ، وكان قتالهم لنصر الباطل باءوا بالخيبة والفشل والخذلان ، ولهذا أدّب خيار الخلق لما حصل من بعضهم الاعجاب بالكثرة فى غزوة حنين حيث قال القائل : لن نغلب اليوم عن قلة . فقال « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » فلما زال هذا الأمر عنهم وعرفوا ضعفهم وعاقبة الاعجاب « انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها » الآية

ومن الأسباب التى أرشد الله اليها فى القتال : الثبات والصبر وحسن التدبير ، والنظام الكامل فى جميع الحركات العسكرية ، قال تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم »

وكان ﷺ يرتب الجيش وينزلهم منازلهم ، ويجعل فى كل جنبة كفؤها ، ويسد الثغرات التى يخشى أن يتسرب منها العدو ، يحفظ المكامن ، ويبعث العيون لتعرّف أحوال العدو ، ويستعين بمشاورة أصحابه كما أمره الله بذلك ، خصوصاً فى هذا الأمر المهم ، وتعرّف أسرار العدو وبث العيون ووضع الجواسيس السريين الذين لا يكاد يشعر بهم ، كما أن من المهم التحرز من جواسيس العدو وعمل الأسباب لأخذ الحذر من ذلك بحسب ما يليق ويناسب الزمان والمكان

ومن المهم أيضا أن تفعل جميع الأسباب الممكنة فى اخلاص الجيوش وقتالها عن الحق ، وأن تكون غايتها كلها واحدة لا يزعزعها عن هذا الغرض السامى فقد رئيس ، أو انحراف كبير أو تزعزع مركز قائد أو توقف فى صمودها فى طريقها النافع على أمور خارجية ، فانه متى كانت هذه الغاية العالية هى التى يسعى لها أهل الحل والعقد ، ويعملون لها التعليمات القولية والفعلية ، كانت الجيوش التى على هذا الوصف مضرب المثل فى الكمال وسداد الأحوال وحصول المقاصد الجليلة ، ولهذا أرشد الله المؤمنين يوم أُحد إلى هذا النظام العجيب ، فقال تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين)

فنبههم على أنه وإن كان محمد هو الامام الأعظم والرسول المعظم ، فانه لا ينبغى لكم أن يفتّ فقده فى عزيمتكم وانحلال قوتكم ، بل أنتم تقاتلون لله ، وعلى الحق الذى بعث به رسوله ، ولدفع الباطل والشرور ، فاجعلوا هذه الغاية نصب أعينكم وأساس عملكم ، وامضوا قدما فى سبيل الله غير هائبين ولا متأثرين إذا أتت الأمور على خلاف مرادكم ، فان الأمور هكذا تكون : تارة لك وتارة عليك ، والكمال كل الكمال أن يكون العبد عبداً لله فى الحالين ، فى السراء والضراء ، فى حال اتيان الأمور على ما يحب ، أو ضد ذلك ، وهذا الوصف هو كمال الفرد وكمال الجماعات والله الموفق

ومن الأمور المهمة جداً أن يكون الرئيس رحيما برعيته ، ناصحاً محباً للخير ساعيا فيه جهده ، كثير المراودة والمشاورة لهم ، خصوصا لأهل الرأى والحجى منهم ؛ وأن تكون الرعية مطيعة منقادة ليس عندهم منازعات ولا مشاغبات ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) أى إذا حصل النزاع فى أى أمر من الأمور ، خصوصا فى الامور المتعلقة فى سياسة الحرب ، ردت إلى هذا الاصل الذى يطمئن اليه المؤمنون ، ويلجأ اليه كبارهم وصغارهم ، لعلمهم أنه فرض على جميعهم ، ولعلمهم أن حكم الله ورسوله هو الخير والصلاح ، وأن الله يعلم من مصالحهم مالا يعلمون ويرشدهم إلى كل ما به ينتفعون .

ومن الامور المهمة جداً سلوك طريق الحق والعدل فى قسمة الغنائم ، وأن لا تكون ظالمة مستبداً بها الاقوياء ، محروما منها الضعفاء ، أو تكون فوضى ، فان هذين الامرين مع ضررهما فى الدين ، وأن هذا لايحل ولايجوز ، وهو من أعظم المحرمات ، فانهما يضران غاية الضرر فى الجيوش فى وقوع العداوات وحصول الجشع والطمع وكون وجهتها تكون متباينة ، فبذلك ينحل النظام ويقع الفشل ويكون هذا الامر أعظم سلاح للأعداء على المسلمين

ومن الامور المهمة جداً أيضا ، وهى عون كبير فى الحروب ، السعى بقدر الاستطاعة فى إيقاع الانشقاق فى صفوف الاعداء ، وفعل كل سبب يحصل به تفريق شملهم وتفريق وحدتهم ؛ ومهادنة من يمكن مهادنته منهم ، وبذل الاموال للرؤساء إذا غلب على الظن أن ينكف شرهم عن المسلمين فكم حصل بهذا الطريق من نكاية العدو مالا يحصل بالجيوش الكثيرة ، ولهذا قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ، أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم) فذكر الله هذه المصلحة العظيمة فى الكف عن أمثال هؤلاء الموصوفين .

وللموفقين من الرؤساء وقواد الجيوش فى هذه الامور مقامات معروفة صار لهم فيها اليد البيضاء على المسلمين .

فانظر إلى هذه التعاليم الالهية التى هى النظام الكامل الوحيد فى جميع الازمنة والامكنة ، واستدل بذلك على أن الاسلام الحقيقى هو الدين الحق الذى اليه ملجأ الخليقة وبه سعادتها وسلامتها من الشرور ، وأن النقص والهبوط بتضييع تعاليم هذا الدين الذى أكمله الله وأتم به النعمة على المؤمنين

فصل فى البيوع وأنواع المعاملات

قال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) الآيات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ الآية ، وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » الآية « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه — إلى قوله — واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم »

اشتملت هذه الآيات الكريمات على أحكام جمة وفوائد مهمة ، منها أن الأصل فى البيوع والمعاملات والتجارات كلها الحل والاطلاق ، كما هو صريح هذه الآيات ، لافرق بين تجارة الادارة التى يديرها التجار بينهم ، هذا يأخذ العوض ، وهذا يعطى المعوض ، ولا بين التجارة فى الديون الحال ثمنها المؤجل مثمنها كالسلم ، وبيع السلع بأثمان مؤجلة لعموم قوله (إذا تداينتم بدين) ولا بين تجارة التربص والانتظار ، بأن يشترى السلع فى أوقات رخصها وينتظر بها الفرص من مواسم وغيرها ، ولا بين التجارة بالتصدير والتوريد من محل إلى آخر ، ولا بين التجارة والتكسب أفراداً ومشتركين ، فكل هذه الأنواع وما يتبعها قد أباحها الشارع وأطلقها لعباده رحمة بهم وقياماً لمصالحهم ودفعاً للاضرار عنهم ، وكلها جائزة بما يقترن بها ويتبعها من شروط ووثائق ونحوها إذا سلمت من المحاذير الشرعية التى نبه الله عليها ورسوله ، يدخل فى هذا العموم جميع أجناس المبيعات وأنواعها وافرادها من عقارات وحيوانات وأمتعة وأطعمة وأوانى وأشربة وأكسية وفرش وغيرها وكلها لا بد أن تقترن بهذا الشرط الذى ذكره الله ، وهو التراضى بين المتعاوضين ، الرضا الصادر عن معرفة ، وأما السفيه والمجنون ومن لا يعتبر كلامه ، فوليه يقوم مقامه فى معاملاته

وأعظم المحاذير المانعة من صحة المعاملات : الربا والغرر والظلم .

فالربا الذى حرمه الله ورسوله يدخل فيه ربا الفضل ، وهو بيع المكيل بالمكيل من جنسه متفاضلا ، وبيع الموزون بالموزون من جنسه متفاضلا ، ويشترط فى هذا النوع فى حله ما شرط الشارع ، وهو التماثل بين المبيعين بمعياره الشرعى ، مكيلا كان أو موزوناً ، والقبض للعوضين قبل التفرق . وربا النسيئة : وهو بيع المكيل بالمكيل إلى أجل ، أو غير مقبوض - ولو من غير جنسه - وبيع الموزون بالموزون إلى أجل أو بلا قبض ، ويستثنى من هذا السلم .

وأشد أنواع هذا النوع قلب الديون فى الذمم ، وهو الذى ذكره بقوله (لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) وذلك إذا حل ما فى ذمة المدين ، قال له الغريم : إما أن تقضينى دينى ، وإما أن تزيد ما فى ذمتك ، فيتضاعف ما فى ذمة المعسر أضعافاً مضاعفة بلا نفع ولا انتفاع ، وذلك أن

المعسر قد أوجب الله على غريمه إنظاره كما قال تعـالى (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) وسواء كان قلب الدين المذكور صريحاً أو يتحيل عليه بحيلة ليست مقصودة ، وإنما يراد بها التوصل إلى مضاعفة ما فى ذمة الغريم ، فهذا الذى قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد ، وأن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلى بعثهم ونشورهم إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، أى من الجنون فيقومون مرعوبين منزعجين قد اختلت حركاتهم لما يعلمون ما أمامهم من القلاقل والأهوال المزعجة والعقوبات لأكلة الربا ، وقد آذنهم الله بمحاربته ومحاربة رسوله إذا لم يتوبوا ومن كان محارباً لله ورسوله فانه مخذول وإن عواقبه وخيمة ، وإن استدرج فى وقت فآخر أمره المحق والبوار ، قال تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) فالمرابى يأخذه الأمن والغرور الحاضر ولا يدرى ما خبىء له فى مستقبل أمره ، وأن الله سيجمع له بين عقوبات الدنيا والآخرة ، إلا إن تاب وأناب ، فاذا تاب فله ما سلف وأما العقود الحاضرة فالزيادة لا تحل ، وعليـه أن ينزل على رأس ماله ، كما قال تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون) بأخذ الزيادة ، ولا تُظلمون بأخذ بعض رءوس أموالكم

ومن أنواع الربا القرض الذى يجر نفعاً ، فان القرض من الاحسان والمرافق بين العباد ، فاذا دخلته المعاوضة وشرط المقرض على المقترض رد خير منه بالصفة أو المقدار أو شرط نفعاً أو محاباة فى معاوضة أخرى ، فهو من الربا لأنه فى الحقيقة دراهم بدراهم مؤخرة ، والربح ذلك النفع المشروط ، فالله تعالى وعظ المؤمنين عن تعاطى الربا كله والمعاملة به ، وأن يكتفوا بالمكاسب الطيبة التى فيها البركة وصلاح الدين والدنيا ، وفيها تزكو الاخلاق ويحصل الاعتبار وحسن المعاملة والصدق والعدل وأداء الحقوق والسلامة من جميع التبعات .

ومن المحاذير فى المعاملات محذور الميسر والغرر ، فان الله حرم فى كتابه الميسر وقرنه بالخمر وذكر مضار ذلك ومفاسده ، والميسر يدخل فى المعاملات كما يدخل فى المغالبات ، فكما أن المراهنات والمقامرات وتوابعها من الميسر ، فالبيوع التى فيها غرر ومخاطرات وجهالات داخلة فى الميسر ، ولهذا قال ﷺ كلمة جامعة نهى عن بيع الغرر ، فيدخل فى ذلك بيع الحمل فى البطن ، وبيع الآبق والشارد والشىء الذى لم ير ولم يوصف ، ودخل فيه بيع الملامسة والمنابذة وجميع العقود التى فيها جهالة بينة ، وذلك لأن أحد المتعاملين إما أن يغنم ، وإما أن يغرم ، وهذا مخالف لمقاصد المعاوضات التى يقصد أن يكون العوض فى مقابلة المعوض على وجه يستوى فيه علم المتعاوضين ، فاذا جهل الثمن أو المثمن ، أو كان الأجل فى الديون غير مسمى ولا معلوم دخل هذا فى بيع الغرر والميسر الذى زجر الله عنه .

ومن المحاذير المنهى عنها فى المعاملات ، الظلم والغش والتدليس وبخس المكاييل والموازين

وبخس الحقوق أخذاً وإعطاءاً ، بأن يأخذ أكثر مما له ، أو يعطى أقل مما عليه ، فهذا من أعظم المحرمات ، وقد توعد الله عليه بالعقوبات فى الدنيا والآخرة ، وأهلك أمة عظيمة بسبب هذه المعاملة الخبيثة ، وهذه المعاملات المحرمة تدخل فى قوله (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) كما يدخل فيه الغصب والسرقة ونحوهما .

وفى آية الدين من الفوائد سوى ما تقدم ، الأمر بكتابة المعاملات والاشهاد عليها ، وأن يكون الكاتب عدلا عارفاً بالكتابة وبما ينبغى أن يكتب ، وهذا الأمر للندب والاستحباب عند جمهور العلماء ، إلا إذا وجب حفظ المال وكان على دين مؤجل أو غير مقبوض ، فانه لا يتم حفظه إلا بذلك ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وفيها أن الكاتب لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق إن كان رشيداً ووليه إن كان عاجزاً ضعيفاً ، كالمجنون والصغير والسفيه ، وأن على صاحب الحق أن يقر بالحق كله من غير بخس ، أى نقص لعدده أو صفته

وتدل الآية أن الاقرار من أعظم الطرق التى تثبت بها الحقوق فى الذمم ، كما يثبت فيها براءة الذمم المشتغلة بالحقوق إذا أقرّ من له الحق بالاقبـاض أو الابراء المعتبر ، وأنه لا يعذر من أقر لو ادعى الغلط أو الكذب ونحوه .

وفيها الارشاد إلى حفظ الحقوق بالاشهاد والكتابة والرهن إذا احتيج اليه فى سفر أو غيره وان نصاب الشهادة فى المعـاملات كلها من عقود وفسوخ وثبوت وشروط وإبراء ونحوها رجلان مرضيان إن أمكن ، وإلا فرجل واحد وامرأتان ، وثبت فى السنة قبول شهادة الواحد مع يمين صاحب الحق .

وفيها أن شهادة الفساق والمجهولين غير مقبولة ، وأن الاعتبار بمن يرضاه الناس ويعتبرونه .

وفيها أن شهادة المرأتين تقوم مقام شهادة الرجل لكمال حفظ الرجل وقوة ذاكرته ، كما نبه عليه بقوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)

وفيها دلالة أن من نسى شهادة فتذكرها ، أو ذكرها فذكرها أن شهادته صحيحة .

وفيها أنه لا يحل أن يشهد إلا بما علمه وتيقنه ، فان شك فيه لم يحل له أن يشهد .

وفيها بيان الحكمة العظيمة فى هذه الارشادات من الرب فى حفظ المعاملات ، وأن ذلك صلاح للعباد فى معاملاتهم ؛ وأن تكون جارية على القسط ، وأنها تقطع الخصومات والمنازعات وتبرىء الذمم وتمنع الظالم من ظلمه ، فلهذا قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) فكم حصل بهذه الوثائق التى أرشد الله اليها من مصالح عظيمة ، وكم اندفع بها من مفاسد وشرور كثيرة ، فسبحان من جعل شرعه صلاحاً لدين العباد ودنياهم .

وفيها أن التجارة الحاضرة لا بأس بترك كتابتها لكون التقابض يغنى غالباً عن ذلك ، ولمشقة

كثرة ذلك ، وأما الشهادة فلا ينبغى تركها خصوصاً فى الأمور المهمة ، وقوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) يحتمل أنه مبنى للفاعل أو للمفعول ، والمعنى يشمل الأمرين ، فالكاتب والشهيد يجب عليه أن يعدل فى كتابته وشهادته ؛ ولا يحل له أن يميل مع أحدهما لغرض من أغراضه ، ولا يضارهما بأخذ أجرة لا تحل له على شهادته ، أو يماطل فى شهادته وكتابته مماطلة تضرهما أو أحدهما ، وكذلك المعاملان لا يحل أن يضارا الكاتب والشهيد بأن يكلفاه ما لا يطيقه ، أو يتضرر به ، لأن الشاهد والكاتب محسنان ، حقهما أن يشكرا على ذلك ، فمضارتهما تنافى ذلك .

وفيها أن تعلم الكتابة من الأمور المحبوبة لله ، وأنه نعمة من الله على من علمه الله الكتابة فمن شكر هذه النعمة ـ أن لا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله .

ويستفاد من المعنى المقصود أن الله شرع هذه الأمور حفظاً للحقوق أنه ينبغى تعلم كتابة الوثائق والاصطلاحات الجارية بين الناس فى المعاملات ، حتى يكون الكاتب بهذه الصفة التى يحرر فيها المعاملات فينتفع الناس بحفظ حقوقهم ، فلا يكفى مجرد الكتابة من غير معرفة بهذه الأمور ، كما أنه لابد أن يكون الكاتب معتبراً ثقة ليحصل الاعتماد على كتابته والطمأنينة اليها .

ويستفاد من هذا أن الخط المعروف صاحبه وثقته أنه معتبر معمول به ليتم المقصود من الكتابة فى حياة الكاتب وبعد موته .

وفيها وجوب أداء الشهادة وتعينها على من تحملها ، وأن كتمان الشهادة من كبائر الذنوب وكما أن شهادة الزور بأن يشهد بثبوت ما ليس بثابت ، أو بالبراءة من الحق الثابت وهو كاذب من أكبر الكبائر ، فكذلك السكوت عن اداء الشهادة ، وكلا الامرين ظلم لصاحب الحق بتفويت حقه ، وظلم أيضاً للنفس بوقوع الاثم ، وظلم للظالم لاعانته على الاثم والعدوان .

وفيها مشروعية الوثائق بالحقوق ، وهى أربعه : الشهادة والرهن ـ كما هو مذكور فى هذا الموضع ـ والضمان والكفالة ، يؤخذ من الاعتبار على هذا المعنى ، ومن قوله (وأنا به زعيم) أى كفيل وضامن ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وتقييد الرهن بالسفر لا يدل على أنه لا يكون رهن فى الحضر ، بل قيد لأجل الحاجة اليه لعدم الكاتب غالباً .

وفيها ثبوت الولايه على القاصرين ـ لجنون أو صغر أو سفه ـ لقوله (فان كان صغيراً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) فأقامه فى التصرفات فى ماله مقام المالك الرشيد وعليه أن يفعل فى أموالهم ما هو الأصلح ، قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) ولا يدفع اليهم حتى يرشدوا ، ويعرف ذلك بالاختبار والتجربه كما قال تعالى (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم)

وفيها فى قوله (ولا يضار كاتب ولا شهيد) من الفوائد التنبيه على أن كل من فعل احساناً

ومعروفاً أن عليه أن يتممه ويكمله بالتسهيل والتيسير وعدم المضارة ، وأن للمحسنين على الناس أن يشكروا لهم معروفهم وأن لا يكافوهم الضرر والمشقة جزاءاً لهم على احسانهم وترغيباً فى الاحسان

واستدل بقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم ، كما أن العلم سبب للتقوى ، وأوضح من هذا قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) أى علماً تفرقون به بين الحق والباطل ، وبين الحقائق المحتاج اليها .

وفيها أنه كما أنه من العلوم النافعة تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات والمعاملات ، فمنه أيضاً تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات ، فان الله حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم ، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شىء .

وفيها أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ، بل بمجرد الاستئمان لقوله « فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته » ولكن فى هذه الحال تتوقف الثقة على التقوى والخوف من الله وإلا فصاحب الحق مخاطر ، فلهذا وعظ الله من عليه الحق أن يؤدى أمانته ، ويؤخذ من هذا أن من عاملك ورضى بأمانتك ووثق فيك أنه قد فعل معك معروفاً ورآك موضع الثقة والأمانه ؛ فيتأكد عليك اداء الأمانة من الجهتين ، اداء لحق الله ووفاء بحق من وثق فيك ومكافأة له .

(فصل)

قال الله تعالى ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ وقال يوسف ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾

يؤخذ من هاتين الآيتين أنه ينبغى أن يتخير فى الاجارات والجعالات والأمانات والولايات كلها - كبيرة كانت أو صغيرة - من جمع الوصفين ، القوة على ذلك العمل ، والكفاءة والحفظ وتوابع ذلك من جميع ما تقوم به الأعمال . والأمر الثانى الأمانة ، فبالامانة تتم به الثقة ويعلم نصحه وبذله الواجب ، وبالكفاءة والقوة يحصل العمل ويتم ويتقن ، فان وجد الجامع للوصفين على وجه الكمال فليستمسك بغرزه والا اكتفى بالأمثل فالامثل ، ونقص الأعمال كلها من الاخلال بالوصفين أو أحدهما .

(فصل فى آيات المواريث)

قال الله تعالى ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين - إلى قوله - تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات ﴾ الآية . والتى فى آخر السورة « يستفتونك ، قل الله يفتيكم فى الكلالة » إلى آخرها .

تضمنت هذه الآيات الكريمات أحكام المواريث فى غاية البيان والتفصيل والايضاح وفى غاية الحكمة ، فتوصيته للعباد بأولادهم من كمال رحمته وعنايته ، وأنه أرحم بهم من والديهم ، ولذلك وصى الوالدين بالأولاد ، فالأولاد عند والديهم وصايا من الله وأمانات عندهم على الوالدين أن يربوهم تربية نافعة لدينهم ودنياهم ، فان فعلوا فقد قاموا بهذه الأمانة ، وإلا فقد ضيعوها وباءوا بإثمها وخسرانها ، فذكر الله ميراث الأولاد ، وأن لهم ثلاث حالات : إما أن يجتمع الذكور والاناث فحينئذ يتقاسمون المال أو ما أبقت الفروض على عدد رءوسهم (للذكر مثل حظ الأنثيين) سواء كانوا أولاد صلب أو أولاد ابن ويؤخذ من هذا

الحالة الثانية : ان يكون الأولاد ذكوراً فقط ، فانهم يتقاسمونه متساوين ، ومن ارتفعت درجته حجب من دونه من الاولاد إذا كان الرفيع من الذكور .

الحالة الثالثة : إذا كن إناثا ، فان كانت واحدة فلها النصف ، سواء كانت بنت صلب أو بنت ابن ، وإن كانتا اثنتين فأكثر فلهما الثلثان ، ومن الحكمة فى الاتيان بقوله (فوق اثنتين) التنبيه على أنه لا يزيد الفرض وهو الثلثان بزيادتهن على الثنتين ، كما زاد فرض النصف لما صرن أكثر من واحدة ، وقد نص الله على أن الأختين فرضهما الثلثان ، فالبنتان من باب أولى وأحرى فان كان البنتان بنات صلب لم يبق لبنات الابن شىء ، وصار البقية بعد فرض البنات للعاصب ، وإن كانت العالية واحدة أخذت النصف ، وباقى الثلثين وهو السدس لبنت أو بنات الابن .

هذا ميراث الأولاد قد استوعبته الآية استيعابا ، وقد علمنا من ذلك أن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى من أولاد الصلب وأولاد الابن وان نزل ، وأما أولاد البنات فلا يدخلون فى اطلاق اسم الأولاد فى المواريث .

ثم ذكر الله ميراث الأبوين : الأم والاب . فجعل الله للأم سدساً وثلثا ، جعل لها السدس مع وجود أحد من الاولاد مطلقا ، منفردين أو متعددين ، أولاد صلب أو أولاد ابن ، وكذلك جعل لها السدس بوجود جمع من الاخوة والأخوات اثنين فأكثر ، وجعل لها الثلث إذا فقد الشرطان المذكوران .

وأماثلث الباقى فى زوج أو زوجة وأبوين فقيل إنه يؤخذ من قوله (وورثه أبواه) فاذا كان معهما أحد الزوجين خرجت عن هذا فلم يكن لها ثلث كامل ، أو يقال إن الله أضاف الميراث للأبوين ـ وهو الاب والأم ـ فيكون لها ثلث ما ورثه الأبوان ، ويكون ما يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغريم . فالله أعلم .

وأما الأب فقد فرض الله له السدس مع وجود أحد من الأولاد ، فان كان الأولاد ذكوراً

لم يزد الأب على السدس وصار الأبناء أحق بالتقديم من الأب بالتعصيب بالاجماع .

وإن كان الأولاد إناثاً واحدة أو متعددات ، فرض له السدس ولهن أو لها الفرض ، فان بقى شىء فهو لأولى رجل ، وهو الأب هنا ؛ لأنه أقرب من الاخوة وبنيهم ومن الاعمام وبنيهم ، فجمع له فى هذه الحال بين الفرض والتعصيب ، وإن استغرقت الفروض التركة ، لم يبق للأب زيادة عن السدس ، كما لو خلف أبوين وابنتين ؛ فلكل واحد من الأبوين السدس ، وللبنتين الثلثان

ومفهوم الآية الكريمة أنه إذا لم يكن أولاد ذكور ولا إناث ، أن الأب يرث بغير تقدير ، بل بالعصب ، بأن يأخذ المال كله إذا انفرد ، أو ما أبقت الفروض إن كان معه أصحاب فروض ، وهو اجماع ، وحكم الجد حكم الأب فى هذه الأحكام إلا فى العمريتين ؛ فان الأم ترث ثلثا كاملا مع الجد ؛ وأما ميراث الجدة السدس عند عدم الأم فهو فى السنة .

ثم ذكر الله ميراث الزوجين ، وأن الزوج له نصف ما تركت زوجته إن لم يكن لها ولد ، فان كان لها ولد فله الربع ، وأن الزوجة واحدة أو متعددات لها الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد ، فان كان للزوج ولد منها أو من غيرها ذكر أو أنثى ، ولد صلب أو ولد ابن ، فلها أو لهن الثمن .

ثم ذكر الله ميراث الاخوة من الأم ، وأنهم لايرثون إلا إذا كانت الورثة كلالة ليس فيهم أحد من الفروع ولا الأب والجد ، فللواحد من الاخوة من الام أو الأخوات السدس ، وللاثنين فأكثر الثلث ، يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم ، وهذه الفروض كلها ذكر الله انها من بعد الوصية إذا حصل الايصاء بها ، ومن بعد الدين . وقد قضى النبى ﷺ : أن الدين قبل الوصية . وقد اتفق العلماء على ذلك ، وشرط الله فى الوصية أن لاتكون على وجه المضارة بالورثة ، فان كانت كذلك فانها وصية إثم وجنف يجب تعديلها وردّ الظلم الواقع فيها .

وأخبر تعالى أن هذه التقديرات والفرائض حدود الله قدرها وحددها ، فلا يحل مجاوزتها ولا الزيادة فيها والنقصان ، بأن يعطى وارث فوق حقه ، أو يحرم وارث أو ينقص عن حقه

ثم ذكر فى آخر السورة ميراث الاخوة لغير أم وأخواتهم بأن الانثى الواحدة لها النصف ، وللثنتين فأكثر الثلثان ، وإن اجتمع رجال ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ، ويقال فيهم كما يقال فى الأولاد إذا كانوا ذكوراً تساووا إذا كانوا أشقاء أو لأب ، فان وجد هؤلاء وهؤلاء حجب الأشقاء الاخوة للأب ، وإن كن نساء شقيقات وأخوات لأب واستغرق الشقيقات الثلثين لم يبق للأخوات للأب شىء ؛ فان كانت الشقيقة واحدة أخذت نصفها وأعطيت الاخت للاب أو الاخوات السدس تكملة الثلثين .

وما سوى هذه الفروض فان الورثة من اخوة لغير أم وبنيهم وأعمام وبنيهم وولاء يدخلون فى قوله ﷺ فى حديث ابن عباس الصحيح : الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر . رواه مسلم ، فيقدم الاخوة ثم بنوهم ثم الأعمام ثم بنوهم ثم الولاء ؛ ويقدم منهم الأقرب منزلة ، فان استوت منزلتهم قدم الأقوى وهو الشقيق على الذى لأب . والله أعلم

(فصول تتعلق بالنكاح وتوابعه من الأحكام)

قال الله تعالى ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا ، وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئا)

لما منّ البارى على عباده بالنكاح قدراً وأباحه شرعا بل أحبه ورضيه وحث عليه لما يترتب عليه من المصالح الكثيرة ، رتب عليه أحكاماً كثيرة وحقوقاً متنوعة تدور كلها على الصلاح واصلاح أحوال الزوجين ودفع الضرر والفساد ، وهى من محاسن الشريعة ، والشريعة كلها محاسن وجلب للمصالح ودرأ للمفاسد ، يقول تعالى هنا (وإن خفتم أن لا تقسطوا) أى تقوموا بحق النساء اليتامى اللاتى تحت حجوركم وولايتكم لعدم محبتكم اياهن فاعدلوا إلى غيرهن (وانكحوا ما طاب لكم من النساء) أى ينبغى أن تختاروا منهن الطيبات فى أنفسهن اللاتى تطيب لكم الحياة بالاتصال بهن ، الجامعات للدين والحسب والعقل والآداب الحسنة وغير ذلك من الأوصاف الداعية لنكاحهن

وفى هذه الآية الحث على الاختيار قبل الخطبة ، وأنه ينبغى أن لا يتزوج إلا الجامعة للصفات المقصودة بالنكاح ، فان النكاح يقصد لأمور كثيرة من أهمها كفاءة البيت والعائلة وحسن التدبير وحسن التربية ؛ وأهم صفة هذا النوع الدين والعقل .

ويقصد به احصان الفرج والسرور فى الحياة ، وعمدة هذا حسن الأخلاق الظاهرة وحسن الخلائق الباطنة .

ويقصد به نجابة الأولاد وشرفهم ؛ وأساسه الحسب والنسب الرفيع ، ولهذا أباح الشارع بل أمر بالنظر لمن يخطبها ليكون على بصيرة من أمره (مثنى وثلاث ورباع) أى من أحب أن يتزوج اثنتين فليفعل ، أو ثلاثاً أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد على الأربع ، لأن الآية سيقت للامتنان فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله ، إجماعاً ، وذلك أن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة أو لايحصل مقصوده أو مقاصده بها ، كما تقدم أن النكاح له عدة مقاصد ، فلهذا أباح الله له هذا العدد ، لأن فى الاربع غنية لكل أحد إلا ما ندر ، ومع هذا فاذا خاف من نفسه الجور والظلم بالزيادة على الواحدة فليقتصر على الواحدة أو على ملك يمينه التي لا يجب عليه لها قسم كالزوجات (ذلك) أى

الاقتصار على واحدة من الزوجات ، أو ما ملكت اليمين ؛ أدنى أن لا تعولوا أى تظلموا وتجوروا

ويستفاد من هـذا المعنى أن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم وعدم القيام بالواجب ، ولو كان مباحاً لا ينبغى له أن يتعرض له ، بل يلزم السعة والعافيـة ، فان العافية خير ما أعطى العبد ، ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء ويهضمونهن حقوقهن ، وخصوصاً الصداق الذى يكون شيئا كثيراً دفعة واحدة يشق عليهم ، حثهم على إيتاء النساء صدقاتهن ، أى مهورهن (نحلة) أى عن حال طمأنينة وطيب نفس ، من غير مطل ولا بخس منه شيئاً

وفيه أن المهر للمرأة ، وأنه يدفع اليها أو إلى وكيلها إن كانت رشيدة ؛ أو إلى وليها إن لم تكن رشيدة ، وأنها تملكه بالعقـد لأنه أضافه اليها وأمر باعطائه لها ، وذلك يقتضى الملك (فان طبن لكم عن شىء منه) أى من الصداق (نفساً) باسقاط شىء منه أو تأخيره أو المحاباة فى التعوض عنه (فكلوه هنيئاً مريئاً) لا تبعة عليكم فيـه ولا حرج ، وهذا دليل على أن للمرأة الرشيـدة التصرف فى مالها ، ولو بالتبرع ، وأنه ليس لوليها من الصداق شىء إلا ما طابت نفسها به إذا كانت رشيدة ، ويؤخذ من الأمر بنكاح ما طاب من النساء تحريم نكاح الخبيثة التى لا يحل للمسلم نكاحها ، وهى الكافرة غير الكتابيـة ، وكذلك الزانيـة حتى تتوب كما نص الله على الثنتين .

وفى هـذه الآية دليل على أنه لابد فى النكاح من صداق ، وأنه يجوز فى الكثير واليسير للعموم ، وأنه لا يباح لأحد أن يتزوج بدون صداق ، وإن لم يسم فمهر المثـل ، إلا النبى ﷺ فان له ذلك خاصة ، كما قال تعالى (وامرأة مؤمنـة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) وفى قوله (ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) دليـل على اعتبار الولى فى النكاح ، وهو العاصب ويقدم منهم الأقرب فالأقرب ، فان تعذر الولى القريب والبعيد لعدم أو جهل أو غيبة طويلة ، قام الحاكم مقام الولى ، فالسلطان والحاكم ولى من لا ولى لها من النساء .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشـة مبينـة ، وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ـ إلى قوله ـ ميثاقاً غليظا)

كان أهل الجاهلية إذا مات أحدهم وُرثت زوجته عنه كما يورث ماله ، فرأى قريبه كأخيه وابن عمه أنه أحق بها من نفسها ويحجرها عن غيره ، فان رضى بها تزوجها على غير صداق أو على صداق يحبه هو دونها ، وإن لم يرض بزواجها عضلها ومنعها من الأزواج الا بعوض من الزوج أو

منها ، وكان منهم أيضاً من يعضل زوجته التى هى فى حباله فيمنعها من حقوقها ، ومن التوسعة لها لتفتدى منه ، فنهى الله المؤمنين عن هذه الأحوال القبيحة الجائرة (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها ومن يتصل به ، فيجوز فى هذه الحال أن يعضلها مقابلة لها على فعلها لتفتدى منه ، فان هذا الافتداء بحق لا بظلم ثم قال (وعاشروهن بالمعروف) وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية ، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته ببذل النفقة والكسوة والمسكن اللائق بحاله ويصاحبها صحبة جميلة بكف الأذى وبذل الاحسان وحسن المعاملة والخلق ، وأن لا يمطلها بحقها ، وهى كذلك عليها ما عليه من العشرة ، وكل ذلك يتبع العرف فى كل زمان ومكان وحال ما يليق به ، قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وقوله (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) أى ينبغى لكم يا معشر الأزواج أن تمسكوا زوجاتكم ولو كرهتموهن فان فى ذلك خيراً كثيراً .

منها امتثال أمر الله ورسوله الذى فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه ومجاهدته إياها مع عدم محبة زوجته تمرين على التخلق بالأخلاق الجميلة وربما زالت الكراهة وخلفتها المحبة ، وربما زالت الأسباب التى كرهها لأجلها وربما رزق منها ولداً صالحا نفع الله به والديه فى الدنيا والآخرة ، ولا بد لهذه الكراهة من أسباب من الزوجة ، فينبغى إذا كره منها خلقاً لحظ بقية أخلاقها ، وما فيها من المقاصد الأخر ، ويجعل هذا فى مقابلة هذا ، وهذا عنوان الانصاف والرأى الأصيل ، فان النزق الطائش الذى ليس عنده انصاف يلاحظ بعض أغراضه النفسية ، فاذا لم يأت على ما يريد أهدر المحاسن والمناقب الأخر ، وهذا لا يكاد يصفو له خل فى حياته ، لا زوجة ولا صاحب ولا حبيب ، بل هو سريع التقلب

أما الرجل الحازم الوفى الزكى ، فانه يوازن بين الأمور ويقدم الحق السابق ويفى بالسوابق ويكون نظره للمحاسن أرجح من نظره للمساوىء

فان وصل إلى الدرجة العالية التى لا يصل اليها الأفراد من كمّل الرجال جعل المحاسن نصب عينيه وأغضى عن المساوىء بالكلية ، وعفى عنها لله ولحق صاحب الحق ، فهذا قد كسب الأجر والراحة والخلق الذى لا يلحق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهذا الصبر المأمور به إنما هو مع الامكان ، فان كان لا بد من الفراق ، ولم يبق للصبر والامساك موضع ، فالله قد أباح الفراق ، فلهذا قال (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) أى فلا حرج عليكم ، ولكن إذا آتيتم إحداهن أى الزوجة السابقة أو اللاحقة (قنطاراً) وهو المال الكثير فلا تأخذوا منه شيئا ، بل وفروه لهن

ولا تمطلوهن ، وهذا يدل على جواز اعطاء النساء من المهور وغيرها المال الكثير ، وأنها بذلك تملكه ، ولكن الأكمل والأفضل التساهل فى المهور اقتداء بالنبى ﷺ وتسهيلا للنكاح ولطرقه وبراءة للذمم ، ثم ذكر الحكمة فى تحريم أخذ الزوج ما أعطاه لزوجته ، فقال (أتأخذونه بهتاناً وإثما مبيناوكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا) وبيان ذلك أن الأنثى قبل عقد النكاح محرمة على الزوج ، وهى لم ترض بهذا الحل إلا بالعقد والميثاق الغليظ الذى عقد على ذلك العوض المشروط ، فاذا دخل عليها وباشرها وأفضى اليها وأفضت اليه وباشرها المباشرة التى كانت قبل هذه الأمور حراماً فقد استوفى المعوض ، فثبت عليه العوض تاماً ، فكيف يستوفى المعوض ثم يرجع على العوض ؟ لاريب أن هذا من المنكرات القبيحة شرعاً وعقلا وفطرة .

« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء » ثم عدد المحرمات إلى أن قال « وأحل لكم ما وراء ذلكم »

قد استوفى البارى المحرمات فى النكاح فى هذه الآيات فى النسب والرضاع والمصاهرة .

أما المحرمات بالمصاهرة ، فاذا تزوج الرجل امرأة ترتب على هذا الزواج أربعة أحكام : تحريم هذه الزوجة على أولاده وان نزلوا نسبا ورضاعا وتحريمها على آبائه وإن علوا نسبا ورضاعاً وحرمت عليه أمها فى الحال ، وأما بنتها فان كان قد دخل بزوجته حرمت أيضاً وصارت ربيبة لا فرق بين بنتها من زوج سابق له أو من زوج خلفه عليها .

وأما المحرمات بالنسب فتحرم الأمهات ، وهن كل أنثى لها عليك ولادة ، وهى التى تخاطبها بالأم والجدة وإن علت من كل جهة وتحرم البنات ، وهن كل أنثى تخاطبك بالابوّة أو بالجدودة من بنات الابن وبنات البنات وإن نزلن ، وتحرم الاخوات شقيقات كن أو لأب أو لأم ، وبنات الاخوة وبنات الأخوات مطلقاً ، وتحرم العمات والخالات ، وهن كل أخت لاحد آبائك وإن علا أو أحد أمهاتك وإن علون . وما سوى ذلك من الاقارب حلال ، كبنات الاعمام وبنات العمات وبنات الاخوال وبنات الخالات ، ولهذا ذكر الله هذا الحل والتحريم المهم فى موضعين ؛ فى هذا الموضع صرح بالمحرمات السبع وقال (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وفى سورة الاحزاب أتى بها بأسلوب آخر فقال فى الحل (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) أى فهن حلال ومن عداهن من الاقارب حرام .

وأما المحرمات بالرضاع فانهن نظير المحرمات بالنسب من جهة المرضعة وصاحب اللبن ، فالمرضعة أم للرضيع ، وأمهاتها جداته ، وإخوتها وأخواتها أخواله وخالاته ، وأولادها إخوته وأخواته ، وهو عم لأولادهم أو خال ، وكذلك صاحب اللبن .

وأما الانتشار من جهة الطفل الراضع فلا ينتشر التحريم لأحد من أقاربه إلا لذريته فقط ،

وتقييد الآية فى الربيبة بقوله (اللاتى فى حجوركم من نسائكم) بيان لأغلب أحوالها ، ولبيان أعلى حكمة تناسب حكمة التحريم ، وأنها إذا كانت فى حجرك بمنزلة بناتك لا يليق إلا أن تكون من محارمك .

وتقييدها الآخر بقوله (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) يخرج ابن التبنى لا يخرج ابن الرضاع فى قول جمهور العلماء (والمحصنات من النساء) أى ذوات الأزواج ، فكل أنثى فى عصمة زوج أو فى بقية عدته لا تحل لغيره ، لأن الأبضاع ليست محل اشتراك ، بل قصد تمييزها التام ، ولهذا شرعت العدة والاستبراء ونحو ذلك .

وقوله (إلا ما ملكت أيمانكم) المراد بهذا الملك ملك السبى إذا سبيت المرأة ذات الزوج من الكفار فى القتال الشرعى حلت للمسلمين ، ولكن بعد الاستبراء أو العدة ؛ فزوجها الحربى الذى فى دار الحرب لم يبق له فيها حق ولا له حرمة ، فلهذا حلت للمسلمين كما حل لهم ماله ودمه ، لأنه ليس له عهد ولا مهادنة .

وقوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى ما سوى ما نص الله على تحريمه سبع بالنسب وسبع بالرضاع وأربع بالصهر ، فما عداهن فانه حلال ، إلا أنه حرم تعالى الجمع بين الاختين ، وحرم النبى ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها ، وحرم على الاحرار نكاح المملوكات لما فيه من إرقاق الولد ، ولما فيه من الدناءة والضرر العائد للأولاد لتنازع الملاك وتنقلات الأرقاء ، لكن إذا رجحت مصلحة الاباحة فقد أباحه الله بشرط المشقة لحاجة متعة أو خدمة ، وأن لا يقدر على الطول للحرة ، وأن تكون الأمة مؤمنة باذن أهلها ، فعند اجتماع هذه الشروط كلها يحل للحر نكاح الاماء .

وقوله ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان علياً كبيرا ﴾

هذا خبر وأمر ، أى الرجال قوامون على النساء فى أمور الدين والدنيا ، يلزمونهن بحقوق الله والمحافظة على فرائضه ، ويكفونهن عن جميع المعاصى والمفاسد ، وبتقويمهن بالأخلاق الجميلة والآداب الطيبة ، وقوامون أيضاً عليهن بواجباتهن من النفقة والكسوة والمسكن وتوابع ذلك . (بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى ذلك بسبب فضل الرجال عليهن وإفضالهم عليهن ، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة : من كون الولايات كلها مختصة بالرجال والنبوة والرسالة ، وباختصاصهم بالجهاد البدنى ووجوب الجماعة والجمعة ونحو ذلك ، وبما تميزوا به عن النساء من العقل والرزانة والحفظ والصبر والجلد والقوة التي ليست للنساء ، وكذلك

يده هي العليا عليهـا بالنفقات المتنوعة ؛ بل وكثير من النفقات الأخر والمشاريع الخيرية ، فان الرجال يفضلون النساء بذلك كما هو مشاهد ، ولهذا حذف المتعلق فى قوله (وبما أنفقوا من أموالهم) ليدل على هذا التعميم ، فعلم من ذلك أن الرجل كالوالى والسيد على امرأته ، وهى عنده أسيرة عانية تحت أمره وطاعته ، فليتق الله فى أمرها ، وليقومها تقويماً ينفعه فى دينه ودنياه ، وفى بيته وعائلته يجد ثمرات ذلك عاجلا وآجلا ، وإلا يفعل فلا يلومن إلا نفسه ، وهن قسمان :

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازه الرجال ، وهن المذكورات فى قوله (فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى مطيعات لله ولأزواجهن ، قد أدت الحقين وفازت بكفلين من الثواب ، حافظات أنفسهن من جميع الريب ، وحافظات لأماناتهن ورعاية بيوتهن ، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة والادب النافع فى الدين والدنيا ، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك فلهذا قال (بمـا حفظ الله) أى إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك ، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها ، فان من وكل إلى نفسه ، فالنفس أمارة بالسوء ، ومن شاهد منة الله وتوكل على الله وبذل مقدوره فى الاعمال النافعة ، كفاه الله ما أهمه ، وأصلح له أموره ، ويسر له الخير وأجراه على عوائده الجميلة .

والقسم الثانى : هن الطبقة النازلة من النساء ، وهن بضد السابقات فى كل خصلة ، اللاتى من سوء أخلاقهن وقبح تربيتهن تترفع على زوجها وتعصيه فى الامور الواجبة والمستحبة ، فأمر الله بتقويمهن بالاسهل فالاسهل ، فقـال (واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن) أى بينوا لهن حكم الله ورسوله فى وجوب طاعة الازواج ، ورغبوهن فى ذلك بما يترتب عليه من الثواب ، وخوفوهن معصية الازواج ، وذكروهن ما فى ذلك من العقاب ، وما يترتب عليه من قطع حقوقها وإباحة هجرها وضربها ، فان تقوّمن بالوعظ والتذكير فذلك المطلوب وحصل الاتفاق الذى لا يشوبه مكدر ، فان لم يفـد التذكير فاهجروهن فى المضاجع ، بأن لا ينام عندها ولا يباشرها بجماع ولا غيره لعل الهجر ينجع فيها ، وذلك بمقدار ما يحصل به المقصود فقط ، فان القصد بالهجر نفع المهجور وأدبه ، ليس الغرض منه شفاء النفس كما يفعله من لا رأى له إذا خالفته زوجته أو غيرها ولم يحصل مقصوده ، هجر هجراً مستمراً ، أى بقى متأثراً بذلك ، عاتباً على من لم يواته على ما يحب ، ووصلت به الحال إلى الحقد الذى هو من الخصال الذميمة ، فهذا ليس من الهجر الجميل النافع ، وإنما هو من الحقـد الضار بصاحبه ، الذى لا يحصل به تقويم ولا مصلحة ، فان نفع الهجر للزوجة وإلا انتقل إلى ضربها ضرباً خفيفاً غير مبرح ، فان حصل المقصود ورجعت إلى الطاعة وتركت المعصية ، عاد الزوج إلى عشرتها الجميلة ، ولا سبيل له إلى غير ذلك من أذيتها لأنها رجعت إلى الحق .

وهـذا الدواء لـكل عاص ومجرم إن الشارع رغبه إذا ترك اجرامه عاد حقه الخاص والعام

كما فى حق التائب من الظلم وقطع الطريق وغيرها ، فكيف الزوج مع زوجته .

وفى هذه الآية ونحوها فائدة نافعة ، وهى أنه ينبغى لمن عاد إلى الحق أن لا يذكر الأمور السالفة ، فان ذلك أحرى للثبات على المطلوب ، فان تذكير الأمور الماضية ربما أثار الشر فانتكس المرض وعادت الحال إلى أشد من الأولى .

﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴾

هذه حالة أخرى غير الحالة السابقة التى يمكن الزوج معالجتها ، وهذه إذا استطار الشر بين الزوجين ، وبلغت الحال إلى الخصام وعدم الالتئام ، ولم ينفع فى ذلك وعظ ولا كلام (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) عدلين عاقلين يعرفان الجمع والتفريق ، ويفهمان الأمور كما ينبغى ، فان الحكم لا بد أن يتصف بهذه الأوصاف ، فيبحثان فى الأسباب التى أدت بهما إلى هذه الحال ويسئلان كلا منهما ما ينقم على صاحبه ، ويزيلان ما يقدران عليه من المعتبة بترغيب الناقم على الآخر بالأغضاء عن الهفوات واحتمال الزلات ، وارشاد الآخر إلى الوعد بالرجوع ، وارشاد كل منهما إلى الرضى والنزول عن بعض حقه ، فكم حصل بهذا الطريق من المصالح شىء كثير ، وإن أمكنهما إلزام المتعصب على الباطل منهما بالحق فعلا ، ومهما وجدا طريقاً إلى الاصلاح والاتفاق والملائمة بينهما لم يعدلا عنها ، إما بتنازل عن بعض الحقوق ، أو ببذل مال أو غير ذلك ، فان تعذرت الطرق كلها ورأيا أن التفريق بينهما أصلح لتعذر الملائمة فرقا بينهما بما تقتضيه الحال بعوض أو بغير عوض ، ولا يشترط فى هذا رضى الزوج ، لأن الله سماهما حكمين لا وكيلين ، ومن قال إنهما وكيلان اشترط فى التفريق رضى الزوج ، ولكن هذا القول ضعيف ، ولمحبة البارى للاتفاق بينهما وترجيحه على الآخر قال (إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) أى بسبب الرأى الميمون والكلام اللطيف والوعد الجميل الذى يجذب القلوب ويؤثر فيها (إن الله كان عليما) بالسرائر والظواهر مطلعاً على الخفايا ، فمن كمال علمه وحكمته شرع لكم هذه الأحكام الجليلة التى هى الطريق الوحيد إلى القيام بالحقوق (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا ﴾

هذه حالة من أحوال الزوجين غير الأحوال السابقة لأن الحالتين السابقتين حالة نشوز الزوجة وحالة وقوع الخصام واستطارة الشر بينهما ، وهذه إذا كان الزوج هو الراغب عن زوجته ، إما عدم محبة وإما طمعاً ، فأرشد الله فى هذه الحال إلى الطريق الذى تستقيم به الأمور ، وهو طريق

الصلح من المرأة أو وليها ليعود الزوج إلى الاستقامة ، بأن تسمح المرأة عن بعض حقها اللازم لزوجها على شرط البقاء معه ، وأن يعود إلى مقاصد النكاح أو بعضها ، كأن ترضى ببعض النفقة أو الكسوة أو المسكن ، أو تسقط حقها من القسم أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها باذنه فمتى اتفقا على شيء من ذلك فلا حرج ولا بأس ؛ وهو أحسن من المقاصاة فى الحقوق المؤدية إلى الجفاء أو إلى الفراق ، ولهذا قال (والصلح خير)

وهذا أصل عظيم فى جميع الاشياء ، وخصوصاً فى الحقوق المتنازع فيها ان المصالحة فيها خيرمن استقصاء كل منهما على حقه كله ، لما فى الصلح من بقاء الالفة والاتصاف بصفة السماح ، وهو جائز بين المسلمين فى كل الابواب - إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا -

واعلم أن كل حكم من الاحكام لا يتم ولا يكمل إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه ، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذى هو الصلح ، فذكر تعالى المقتضى لذلك فقال (والصلح خير) والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه ، فان كان مع ذلك قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلبا له ورغبة فيه ، وذكر المانع بقوله (وأُحضرت الانفس الشح) أى جبلت النفوس على الشح ، وهو الاستئثار والتفرد فى الحقوق وعدم الرغبة فى بذل ما على الانسان والحرص على الحق الذى له ، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعا ؛ أى فينبغى لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنىء من نفوسكم وتقليله وتلطيفه وتستبدلوا به ضده ، وهو السماحة ببذل جميع الحقوق التى عليك والاقتناع ببعض الحق الذى لك والاغضاء عن التقصير ، فمتى وفق العبد لهذا الخلق الطيب سهل عليه الصلح بينه وبين كل من بينه وبينه منازعة ومعاملة ، وتسهلت الطريق الموصلة إلى المطلوب ، ومن لم يكن بهذا الوصف تعسر الصلح أو تعذر ، لأنه لايرضيه إلا جميع ما له كاملا مكملا ، ولا يهون عليه أن يؤدى ما عليه ، فان كان خصمه مثله اشتد الأمر .

ثم قال (وإن تحسنوا وتتقوا) أى تحسنوا فى عبادة الخالق ؛ والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ؛ وتحسنوا إلى المخلوقين بكل احسان قولى أو فعلى ؛ وتتقوا الله بفعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات ، أو تحسنوا بفعل المأمور وتتقوا بترك المحظور (فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم على قيامكم بالاحسان والتقوى ، أو على عدم ذلك بالجزاء بالفضل والعدل .

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفوراً رحيما ﴾

يخبر تعالى أنه ليس فى قدرة الازواج العدل التام بين زوجاتهم ، فان العدل التام يقتضى أن

يكون الداعى والحب على السواء ؛ والميل القلبى على السواء ؛ ويقتضى مع ذلك الايمان الصادق والرغبة فى مكارم الأخلاق للعمل بمقتضى ذلك ، وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عذر الله الأزواج وعفا عنهم عما لا يقدرون عليه ، ولـكنه أمرهم بالعدل الممكن فقال (فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) أى لا تميلوا إلى إحداهن عن الأخرى ميلا كثيراً ، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبـة ، بل افعـلوا مستطاعكم من العدل ، فالنفقة والـكسوة والقسم فى المبيت والفراش ونحو ذلك مقدور ، فعليكم العدل فيها بينهن ، بخلاف الحب والوطء وتوابع ذلك . فالعبد لايملك نفسه فعذره الله ، وقوله (فتذروها كالمعلقة) يعنى أن الزوج إذا مال عن زوجته وزهد فيها ولم يقم بحقوقها الواجبة ، وهى فى حباله أسيرة عنده صارت كالمعلقة التى لا زوج لها فتستريح ، ولاذات زوج يقوم بحقوقها ، وإن تصلحوا فيما بينكم وبين زوجاتكم بوجه من وجوه الصلح كما تقـدم ، وبمجاهدة أنفسكم على فعل مالا تهواه النفس احتساباً وقياماً بحق الزوجة . وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس فيما تنـازعتم به من الحقوق ، وتتقوا الله بامتثـال أمره واجتناب نهيه ، فان الله كان غفوراً رحيما .

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيما ﴾

يعنى إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق ، فقال (وإن يتفرقا) أى بفسخ أوطلاق أو خلع أو غير ذلك (يغن الله كلا) من الزوجين (من سعتـه) أى من فضله واحسانه العام الشامل ، فيغنى الزوج بزوجة خير له منها ، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه ، فانها وإن توهمت أنه اذا فارقها زوجها المنفق عليهـا القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق ؛ فسوف يغنيها الله من فضله ، فان رزقها ليس على الزوج ولا على غيره ، بل على المتـكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها وخصوصا من تعلق قلبه به ورجاه رجاءاً قلبياً طامعا فى فضله كل وقت ، فان الله عند ظن عبده به ، ولعل الله يرزقها زوجا خيراً لها منـه وأنفع (وكان الله واسعا) أى واسع الرحمة كثير الاحسان (حكيما) فى وضعه الأمور مواضعها .

وفى الآية تنبيه على أنه ينبغى للعبـد أن يعلق رجاءه بالله وحده ، وأن الله اذا قدر له سبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمـده على ذلك ويسأله أن يبارك فيه له ، فان انقطع أو تعـذر ذلك السبب فلا يتشوش قلبه ، فان هذا السبب من جملة أسباب لا تحصى لا يتوقف رزق العبد على ذلك السبب المعـين ، بل يفتح له سببا غيره أحسن منه وأنفع ، وربما فتح له عدة أسباب فعليه فى أحواله كلها أن يجعل فضل ربه والطمع فى بره نصب عينيه وقبلة قلبه ، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء ؛ فان الله يقول على لسان نبيه « أنا عند ظن عبدى بى فان ظن بى خيراً فله ، وان ظن بى شراً فله » وقال « إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك علي ما كان منك ولا أبالي »

فصل

قال الله تعالى فى أحكام الطلاق والعدد ﴿ الطلاق مرتان - الى قوله - واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ وقال ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ الآيات

ذكر الله أحكام الفراق كما ذكر أحكام النكاح والدخول فيه، تقدم أنه تعالى حث الزوج على الصبر على زوجته ما دام متمكناً من الصبر، وفى هذا ذكر الله أنه إذا كان لا بد له من الطلاق، فعليه أن يطلق زوجته لعدتها، أى لتستقبل عدتها، وذلك أن يطلقها مرة واحدة فى طهر لم يجامعها فيه أو يطلقها وهى حامل قد تبين حملها، أو وهى آيسة أو صغيرة، لأنها فى هذه الأحوال كلها تبتدىء بالعدة البينة الواضحة، فمن طلقها أكثر من واحدة، أو وهى حائض أو نفساء. أو فى طهر قد وطىء فيه ولم يتبين حملها فانه آثم متعد لحدود الله، وإذا طلقها هذا الطلاق المشروع فله أن يراجعها ما دامت فى العدة كما قال تعالى (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا اصلاحا) وسواء رضيت أو كرهت

وهذا الطلاق الذى يتمكن فيه العبد من الرجعة، هو الطلاق بواحدة الى ثنتين بلا عوض، فان طلقها الطلقة الثالثة فلا تحل له حتى تنقضى عدتها وتنكح زوجاً غيره نكاح رغبة لا نكاح تحليل، ويطأها ويطلقها رغبة فى طلاقها وتنقضى عدتها منه فله أن ينكحها برضاها وبقية شروط النكاح من الولى ومن الصداق وغيره، فان طلقها بعوض بلفظ الطلاق أو الخلع أو الفداء أو غيرها من الألفاظ، فقد أباح الله هذا الفداء عند الحاجة، وهى التى نص عليها بقوله (فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وسواء كان العوض بقليل أو كثير لعموم الآية، فاذا فارقها على هذا الوجه حصل لها الفكاك منه ولم يكن له عليها رجعة إلا اذا شاءت بنكاح جديد، وعند التراجع بين الزوجين إذا رغب كل منهما فى الآخر، فليس لولى الانثى أن يعضلها ويمنعها أن تراجع بعلها الأول أو الذى فارقها، بغضاً له أو نكاية له وغضباً عليه، أو طمعاً فى بذلها أو بذله له شيئاً من المال ؛ فكل هذا لا يحل للولى أن يفعله، بل عليه أن يسعى فى التأليف بينها وبين زوجها، وأقل ماعليه أن لا يعارض فى ذلك، واذا كان منهياً عن ذلك بعد الطلاق أو الفداء ونحوهما ؛ فكيف فى ابتداء الأمر، ولكن بشرط أن يكون الزوج كفؤاً وترضى المرأة فيه.

وأما اذا منعها مِن تزوُّج مَن ليس كفؤاً لها فى دينه أو غيره من الصفات المعتبرة شرعاً فهو محسن، لأن منعها عما فيه ضررها احسان عليها. وهذا أحد الاسباب فى اعتبار الولى للمرأة

فى النكاح . وفى قوله فى الرجعة (إن يريدا اصلاحا) وفى التراجع (إن ظنا أن يقيما حدود الله) اعتبارهذا الشرط فى الرجعة والتراجع ، والا فلا يراجع ولا يتراجعا للضرار وللبقاء على غيرمايحبه الله . وفى هذا أن الأفعال مبنية على مقاصدها ، وأن الامر الذى يقصد فيه الخير والصلاح لا بدأن يجعل الله فيه بركة ، كما أن الذى يقصد به غير ذلك ولو مكن منه العبد فانه ضرر حاضر ويخشى أن تكون عواقبه ذميمة .

ويستفاد من هذا معنى كلياً نافعاً ، وهو أنه ينبغى للعبد إذا أراد أن يدخل فى أمر من الأمور مثل الأمور التى يترتب عليها حقوق كثيرة ، ومثل الولايات الكبار والصغار والامور المهمة أن يتأنى وينظر فى نفسه وعاقبة أمره ، فان رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بقيامه بما فيها من الحقوق تقدم اليها متوكلا على الله ، وإلا أحجم واغتنم السلامة عن الدخول فى الامور الخطرة .

وأمر تعالى الازواج أن يمسكوا زوجاتهم بمعروف أو يسرحوهن بمعروف ، فان أمسكها أمسكها بعشرة حسنة ، وإن فارقها فليكن على وجه الشرع بطمأنينة ، من غير مغاضبة ولا مشاتمة ولا عداوات تقع بينه وبينها ، أو بينه وبين أهلها .

ومن التسريح بالمعروف أن يعطيها شيئاً من المال تتمتع به وينجبر به خاطرها ، وتذهب عن زوجها شاكرة ، ولا يكون لهذا الفراق على هذا الوجه إلا العواقب الطيبة للطرفين .

ولما بين البارى هذه الاحكام الجليلة غاية التبيين ، وكان القصد بها أن يعلمها العباد ويعملوا بها ويقفوا عندها ولا يتجاوزوها ، فانه لم ينزلها عبثاً بل أنزلها بالعلم والصدق والحق النافع والجد نهى عن اتخاذها هزواً أى لعباً بها ، وهو التجرى عليها وعدم الامتثال لواجبها ، مثل المضارة فى الامساك والارسال أو كثرة الطلاق وجمع الثلاث ، وقال (واذكروا نعمة الله عليكم) عموماً باللسان حمداً وثناء وبالقلب اعترافا واقراراً ، وبالاركان بأن يستعان بنعمه على طاعته ، وخصوصا ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ، فان فى الكتاب والسنة من بيان الحق والهدى من الضلال والحلال من الحرام وجميع مايحتاجه العباد فى أمور دينهم ودنياهم ما يوجب للعباد أن يشكروه شكراً كثيراً ويقوموا بحقه ويخضعوا لأحكامه ، وختم الآيات بعموم علمه تنبيه على أن أحكامه قدشرعها العليم الحكيم صالحة للعباد فى كل زمان ومكان .

وقد ذكر عدة المفارقة بحسب أحوالها فى كتابه ، فذكر أن المفارقة بطلاق إن كانت تحيض باستكمال ثلاثة قروء من بعد وقوع الطلاق عليها ، وأن الآيسة والتى لم تحض لصغر ونحوه عدتها ثلاثة أشهر ، وأن المفارقة بموت زوجها تربص أربعة أشهر وعشراً ، وأن الحامل من المفارقات فى الحياة وبعد الممات عدتها بوضع الحمل .

وفى هذه العدد وتقديرها من الاسرار والحكم والمنافع للزوجين وغيرهما ما هو من آيات الله

للمتأملين المستبصرين ، وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) ففى هذه الآية أن المفارقة فى الحياة بطلاق ونحوه ليس لزوجها عليها عدة إذا لم يدخل أو يخل بها ، بل بمجرد ما يطلقها لها التزوج فى الحال .

وفى هذا أن العدة تثبت بالدخول وكذلك الخلوة كما ثبت عن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ومفهوم الآية أن الفراق بالموت تعتد له الزوجة المعقود عليها ولو قبل الدخول ، وكما يؤخذ من مفهوم هذه فانه يؤخذ من عموم قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن) الآية

وفيها أن العدة من حقوق الزوج لتمكنه من الرجعة ولحفظ فراشه ومائه من الاختلاط ، وحق لها أيضا ، فان المعتدة نوعان : نوع حامل لها النفقة بكل حال . قال تعالى « وان كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » ونوع غير حامل . وهى أيضا نوعان : مفارقة بائنة بموت أو فسخ أو خلع أو ثلاث أو عوض . فهؤلاء كلهن لا نفقة لهن ولا كسوة ولا مسكن الا على وجه المعروف والاحسان ، ومفارقة رجعية فما دامت فى العدة فلها النفقة والكسوة والمسكن وتوابعها على الزوج وحكمها حكم الزوجة التى فى حباله فى كل حال الا فى القسم فلا قسم لها ، لأن الله سماه بعلا لها فى قوله « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك » ولأن له أن يرجعها الى الزوجية التامة رضيت أو كرهت ما دامت فى العدة .

وفى قوله « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » دليل على أمانتها على نفسها وقبول قولها فى وجود الحيض وانقطاعه لأنه توعدها بكتمان ذلك ، وهذا دليل على أن قولها معتبر . وفى قوله « اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » دليل على أنه لا يقع الطلاق الا بعد النكاح . وأن من علق طلاقا بنكاح امرأة لم ينعقد هذا التعليق ولم يقع عليها شىء اذا نكحها ، لأن النكاح لا يراد به خلاف مقصوده وهذا بخلاف تعليق عتق المملوك للغير بملكه اياه ، فانه صحيح ويعتق اذا ملكه . لأن تملك الرقيق يقصد به العتق ، وهو مقصود شرعى صحيح .

وقوله (فمتعوهن) فيه الامر بتمتيع المفارقة بالطلاق قبل المسيس مطلقا . وفى آية البقرة الامر بالتمتيع اذا لم يسم لها مهراً فان سمى لها مهرا فانه يتنصف اذا طلقها قبل الدخول ، ويكون نصف الصداق هو المتعة كما قال تعالى (لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ؛ وأن تعفو أقرب للتقوى) فحث على العفو فى هذا الموضع الخاص لنفعه وعظم موقعه ، وقال (ولا تنسوا

الفضل بينكم) وهذا ارشاد عظيم نافع فى جميع المعاملات أنه ينبغى للعبد فيها أن لا يستقصى فى كل شيء ، بل يجعل للفضل محلا من عفو ومحاباة وإعطاء أزيد مما فى الذمة قدراً أو وصفاً ، وقبول أدنى من الحق كمية وكيفية ، فكم حصل بهذا الفضل ـ وان كان طفيفاً ـ خير كثير وأجر كبير ومعروف وبركة وراحة فكر وطمأنينة قلب .

وفى قوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وهذا العموم يقتضى أن كل مطلقة لها على زوجها متعة ، لكن ان كانت غير مدخول بها ولم يسم لها مهر ، فالمتعة واجبة كما تقدم بحسب يسار الزوج وإعساره ، وإن كان قد سمى لها مهر ، تنصف المهر وكان النصف الحاصل لها هو المتعة فان لم يكن الأمر كذلك كانت المتعة حقاً معروفاً وإحسانا جميلا ، لما فيها من جبر خاطرها وقضاء نوائبها التى هى مظنة الحاجة اليها فى تلك الحال ، وكون ذلك عنوانا على التسريح بالمعروف . ودفعا للمشاغبات والعداوات التى تحدث لكثير من الناس عند الطلاق ، واحتياطا لبراءة ذمته مما لعله لحقه لها من الحقوق ، وتسهيلا للرجعة أو للمراجعة إذا تغيرت الحال وأحدث الله بعد ذلك أمرا ، ولها من الفوائد شيء كثير ، ومدح الله هذه الأحكام الجليلة بقوله (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) فسمى هذه الأحكام آيات لأنها تدل أكبر دلالة على عنايته ولطفه بعباده ، وأنه شرع لهم من الأحكام ، الأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ولا يصلح العباد غيرها .

فصل فى آيات فى الايلاء والظهار واللعان

قال تعالى « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ، فان فاءوا فان الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » وقال « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها » الآيات . وقال فى اللعان « والذين يرمون أزواجهم » الآيات .

من جملة الأحكام المنتشرة المتعلقة بالزوجه أنه قد يؤلى منها أو يظاهر منها ، والفرق بين الايلاء والظهار أن الايلاء هو الحلف بالله على ترك وطء زوجته أبداً أو مدة طويلة تزيد على أربعة أشهر إذا كان قادراً على الوطء ، فاذا فعل ذلك وحلف هذا الحلف فلا يخلو ، إما أن تطالبه الزوجة بحقها من الوطء أو لا تطالبه ، فإن لم تطالبه ترك وشأنه ، فان وطىء فى هذه المدة فقد حنث وعليه كفارة يمين وإلا فلا كفارة عليه ، وإن طالبته بالوطء أمر بذلك وجعل له أربعة أشهر فإن فاء ورجع إلى الوطء فذلك هو المطلوب منه ، وهو أحب الأمرين إلى الله ، وإن أبى وامتنع ومضت الاربعة الاشهر وهو مصر على عدم وطئها وهى مقيمة على طلب حقها ، أجبر على أحد أمرين إما أن يفىء ويكفر كفارة يمين ، وإما أن يطلق . فان امتنع من كل منهما طلق الحاكم عليه .

وأما الظهار . فأن يحرم زوجته ويقول لها : أنت علىّ كظهر أمى أو نحوه من ألفاظ التحريم الصريحة . فهذا قد أتى منكراً من القول وزوراً ؛ وكذب أعظم كذب إذ شبه من هى حلال بمن هى أعظم المحرمات وهى الأم ، ولهذا قال (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) ثم عرض التوبة فقال (وإن الله لعفو غفور) ثم ذكر طريقها بالكفارة ، فأمر المظاهر أن يعتق رقبة من قبل أن يمسها فان لم يجد صام شهرين متتابعين من قبل المسيس أيضاً ، فان لم يستطع أطعم ستين مسكينا ، فبعد هذه الكفارة تحل له الزوجة وتنحل يمينه . وأما اللعان فان الزوج إذا رمى زوجته بالزنا ولم يكن له على ذلك أربعة شهود ولم تعترف بل أقامت على الانكار ، فعليه ما على من قذف المحصنات من جلد ثمانين جلدة إلا أن يلاعنها ، وذلك بأن يشهد أربع مرات انه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنا ويقول فى الخامسة داعياً على نفسه ؛ وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فحينئذ يترتب عليها الحد أو الحبس حتى تقر ، إلا أن تقابله بلعان يدرأ عنها العذاب ، بأن تقول أربعاً : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا ، وتزيد فى الخامسة وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، فعند ذلك يحصل الفراق الأبدى بينه وبينها .

والحكمة فى تخصيص الزوج بسقوط حد القذف عنه إذا لاعن أن الزوج محتاج ، وربما كان مضطراً إلى رميها لنفى ما يلحقه من أولاد غيره ولحقه وافساد فراشه . وأما القاذف إذا كان غير زوج إذا قذف غيره بالزنا ؛ فان الله قال فى حده (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا) الآية .

فصل في آيات الحدود

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ﴾ الى آخرها .

يمتن الله على عباده بأنه فرض عليهم القصاص فى القتلى ، أى المساواة فيه ، وأن يقتل القاتل عمداً على الصفة التى قتل عليها المقتول ، إقامة للعدل بين العباد ، وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم حتى أولياء القاتل ، حتى القاتل بنفسه ، اعانة ولى المقتول اذا طلب القصاص وتمكينه من القاتل ، وأنه لايحل لهم أن يحولوا بينه وبين القاتل اذا تمت الشروط كما يفعله أهل الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين .

ثم فصل ذلك بقوله (الحر بالحر) يدخل فى منطوقها وفى منطوق قوله (أن النفس بالنفس)

أن الذكر يقتل بالأنثى ، كما تقتل الأنثى بالذكر ، فيكون هذا المنطوق مقدماً على مفهوم قوله (الأنثى بالأنثى) مع دلالة صريح السنة الصحيحة فى قتل النبى ﷺ اليهودى بالجارية . وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علوا فلا يقتلان بالولد لورود السنة بذلك ، مع أن فى لفظ القصاص ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده ، ولأن ما فى قلب الوالدين من الرحمة المانعة من صدور هذه الجريمة منهما على ولدهما مايحدث الشبهة ، إما أنه لا بد أن فى عقلهما اختلالا أو أذية شديدة أحرجته إلى قتل ولده ، أو لم يحرر أن القتل عمد محض .

وخرج من هذا العموم أن المسلم لايقتل بالكافر لثبوت السنة بذلك ، مع أن الآية فى خطاب المؤمنين خاصة ، وليس أيضاً من العدل أن يقتل ولى الله بعدوه (والعبد بالعبد) ذكراً كان أو أنثى تساوت قيمتهما أو اختلفت ، ودل مفهومها على أن الحر لايقتل بالعبد لكونه غير مساو له . وفى هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود فى العمد العدوان ؛ وأن الدية بدل عنه ، فلهذا قال (فمن عُفى له من أخيه شىء) أى عفا ولى المقتول عن القاتل إلى الدية ، أوعفا بعض الأولياء فانه يسقط القصاص وتجب الدية وتكون الخيرة فى القود واختيار الدية إلى الولى ، فاذا عفا عنه وجب على ولى المقتول أن يتبع القاتل بالمعروف من غير أن يشق عليه ولا يحمله ما لايطيق بل يحسن الاقتضاء والطلب ولا يحرجه ، وعلى القاتل أداء اليه باحسان من غير مطل ولا نقص ولا اساءة فعلية أو قولية ، فهل جزاء الاحسان اليه بالعفو إلا الاحسان بحسن القضاء ، وهذا مأمور به فى كل ما ثبت فى ذمم الناس للانسان مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف ، ومن عليه الحق بالأداء باحسان كما قال ﷺ « رحم الله عبداً سمحاً إذا قضى، سمحا إذا اقتضى »

وفى قوله (عفى له من أخيه) ترقيق وحث على العفو إلى الدية وأكمل من ذلك العفو مجاناً ، وفى قوله (أخيه) دليل على أن القاتل عمداً لا يكفر ، لأن المراد بالاخوة هنا أخوة الاسلام ؛ فلم يخرج بالقتل عنها ، ومن باب أولى سائر المعاصى التى هى دون القتل ، فان صاحبها لا يكفر ولكنه يستحق العقاب وينقص بذلك ايمانه إن لم يتب ، وإذا عفا أولياء المقتول أو بعضهم احتقن دم القاتل وصار معصوماً منهم ومن غيرهم . فلهذا قال (فمن اعتدى بعد ذلك) أى بعد العفو (فله عذاب أليم) أى فى الآخرة ، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم لأنه قتل مكافئاً له فيجب قتله بذلك ، ثم بين تعالى حكمته العظيمة فى مشروعية القصاص فقال (ولكم فى القصاص حياة) أى تنحقن بذلك الدماء ، وتنقمع به الأشقياء ، لأن من عرف أنه إذا قتل قتل لايكاد يصدر منه قتل وإذا رؤى القاتل مقتولا انزجر غيره بذلك ، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل لم يحصل من انكفاف الشر ما يحصل بالقتل ، وهكذا سائر الحدود الشرعية فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار . ونكر الحياة لافادة التعظيم

ولما كان هذا الحكم لا يعرفه حقيقة المعرفة إلا أهل العقول الكاملة قال (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) وهذا يدل على أنه يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم فى تدبر ما فى أحكامه من الحكم والمصالح الدالة على كماله وكمال حكمته وحمده وعدله ورحمته الواسعة ، وان من كان بهذا الوصف فقد استحق الثناء والمدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه اليهم الخطاب ، وكفى بذلك فضلا وشرفاً ، وقوله (لعلكم تتقون) وذلك أن من عرف ربه وعرف ما فى دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة أوجب له أن ينقاد لأمر الله ويخضع لشرعه طاعة لله ولرسوله .

قوله ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾

هذا حد الزانى غير المحصن من ذكر أو أنثى يجلد مائة جلدة ، جلدات تؤلمه وتزجره ولا تهلكه ، ويتعين أن يكون ذلك علناً لا سراً بحيث يشهده طائفة من المؤمنين ، لأن اقامة الحدود من الضروريات لقمع أهل الجرائم،واشتهارها هو الذى يحصل به الردع والانزجار واظهار شعائر الدين ، والاستتار به أو على أحد دون أحد فيه مفاسد كثيرة . ووردت السنة بتغريب عام كامل عن وطنه مع الجلد،كما تواترت السنة وأجمع المسلمون على رجم الزانى المحصن يرجم بالحجارة حتى يموت

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ﴾

السارق هو من أخذ مال غيره المحترم بغير رضاه ، وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب هذه العقوبة ، وهو أنه يجب قطع يده اليمنى كما هى قراءة بعض الصحابة ، واليد إذا أطلقت فهى الكف إلى الكوع فقط ، فاذاقطعت حسمت وجوباً فى زيت أو ودك مغلى لتنسد العروق فيقف الدم ، ولكن السنة قيدت عموم الآية الكريمة بأمور كلها ترجع إلى تحقيق السرقة للأموال .

فمنها : لابد أن يكون المسروق نصاباً ، وهو ربع دينار أو ثلاثة دراهم أو ما يساوى ذلك .

ومنها : لابد أن يكون المأخوذ منه حرزاً ، وحرز كل مال مايحفظ به عادة ، فلو سرق من مال غير محرز فلا قطع عليه ، ويؤخذ هذا من لفظ السارق ، فانه الذى يأخذ المال على وجه لا يمكن التحرز منه ، فان عاد السارق قطعت رجله اليسرى ، فان عاد فقيل تقطع يده اليسرى ، ثم إن عاد قطعت رجله اليمنى ، وقيل يحبس حتى يموت . وورد فى ذلك آثار عن السلف مختلفة .

وقوله (جزاءاً بما كسبا) من التجرى على أموال الناس (نكالا من الله) أى ترهيباً منه للسراق ليرتدعوا إذا علموا أنهم يقطعون . وهذا نظير قوله فى القتل (ولكم فى القصاص حياة) والله (عزيز حكيم) أى عز وحكم ، فقطع بحكمته يد السارق تنكيلا للمجرمين وحفظاً للأموال .

وقد ذكر الله قبل هذا حد قطاع الطريق المحاربين فى قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله) الآية . فقيل إن الامام مخير فيهم بين هذه الأمور ، وعليه أن يفعل ما تقتضيه المصلحة ويحصل به النكاية ، وقيل إن هذه العقوبة مرتبة بحسب الجريمة ؛ فان جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع لهم بين القتل والصلب ، وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا ؛ قتلوا ولم يصلبوا ، وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا ، نُفوا من الأرض فلا يتركون يأوون إلى بلد ، أو يحبسون كما قاله بعضهم .

فصل فى الأيمان ونحوها

قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

يقول البارى يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضى ايمانكم فى تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ، فلا تحرموا ما أحل الله لكم من المطاعم والمشارب وغيرها ، فانها نعم تفضل الله بها عليكم فاقبلوها واشكروا الله عليها إذ أحلها شرعاً ويسرها قدراً ، ولا تردوا نعمة الله بكفرها أو عدم قبولها أو اعتقاد تحريمها أو الحلف على عدم تناولها ، فان ذلك كله من الاعتداء ، ولهذا قال (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) بل يبغضهم ويمقتهم على ذلك (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً) أى كلوا من رزقه الذى ساقه اليكم ويسره لكم بأسبابه المتنوعة ، إذا كان حلالا لا سرقة ولا غصباً ، ولا حصل فى معاملة خبيثة ، وكان أيضاً طيباً نافعا لاخبث فيه (واتقوا الله) فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه (الذى أنتم به مؤمنون) فان الايمان لا يتم الا بذلك ، وهو يدعو الى ذلك .

ودلت الآية الكريمة أن العبد إذا حرم حلالا عليه من طعام وشراب وكسوة واستعمال وسرية ونحو ذلك ، فان هذا التحريم منه لا يحرم ذلك الحلال ، لكن إذا فعله فعليه كفارة يمين ، لأن التحريم يمين كما قال تعالى (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وهذا عام فى تحريم كل طيب ، إلا أن تحريم الزوجة يكون ظهاراً فيه كفارة الظهار السابقة .

وكما أنه ليس له أن يحلف على ترك الطيبات فليس له أن يمتنع من أكلها ولو بلا حلف تنسكا وغلواً فى الدين ؛ بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) ويشمل هذا الايمان التى حلف بها من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك ، (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أى بما عقدت عليه قلوبكم ، كما قال فى الآية الأخرى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) فاذا عقد العبد اليمين وحنث ؛ بأن فعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله ، خيّر فى الكفارة بين اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، وذلك يختلف باختلاف الناس والأوقات والأمكنة ، أو كسوتهم بما يعد كسوة ، وقيد ذلك بكسوة تجزى فى الصلاة ، أو تحرير رقبة صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى ، بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة ، كما فى الآية المقيدة بالايمان ، وأن تكون تلك الرقبة سليمة من العيوب الضارة بالعمل ، فمتى كفّر بواحد من هذه الثلاث انحلت يمينه .

وهذا من نعمة الله على هذه الأمة أنه فرض لهم تحلة أيمانهم ورفع عنهم الالزام والجناح ، فمن لم يجد واحداً من هذه الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام ، أى متتابعة مع الامكان ، كما قيدت فى قراءة بعض الصحابة (واحفظوا ايمانكم) عن أن تحلفوا بالله وأنتم كاذبون ، وعن كثرة الأيمان لاسيما عند البيع والشراء ، واحفظوها إذا حلفتم ، عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً من المضى فيها كما قال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) أى لا تقولوا إننا قد حلفنا على ترك البر وترك التقوى وترك الاصلاح بين الناس ، فتجعلوا أيمانكم مانعة لكم من هذه الأمور التى يحبها الله ورسوله ، بل احنثوا وكفروا وافعلوا ما هو خير وبر وتقوى ، واحفظوا أيضاً أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم بالكفارة ، فان الكفارة بها حفظ اليمين الذى معناه تعظيم المحلوف به ، فمن كان يحلف ويحنث ولا يكفر فما حفظ يمينه ، ولا قام بتعظيم ربه (كذلك يبين الله لكم الآيات) المبينة للحلال من الحرام الموضحة للأحكام (لعلكم تشكرون) فعلى العباد أن يشكروا ربهم على بيانه وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمون ، فان العلم أصل النعم وبه تتم .

فصل فى آيات فى الاطعمه ونحوها والصيود وتوابعها

قال الله تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً . وقد فصل لكم ماحرم عليكم . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ﴾ الآية . وبعدها « يسألونك ماذا احل لهم ، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين

تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ، ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .. قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرماً على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ، فانه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فان الله غفور رحيم)

دلت هذه الآيات الكريمات على أن الأصل فى الأشياء الحلّ من طعام وشراب وغيرها ، لأن الله تعالى خلق لنا ما فى الأرض جميعاً ننتفع به بكل وجوه الانتفاعات ، من أكل وشرب واستعمال . وفصل لنا ما حرم علينا ، فما لم يذكر فى الكتاب والسنة تحريمه فهو حلال ، وأباح لنا كل طيب ، وحرم علينا كل خبيث .

فمن الخبائث المحرمة الميتة ـ سوى ميتة الجراد والسمك ـ وهى ما مات حتف أنفه أو ذكى ذكاة غيرشرعية ، والدم المسفوح كماقيدته الآية الأخرى ، وأما الدم الذى يبقى فى اللحم والعروق بعد الذبح فانه طيب حلال (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) بأن ذبح لغير الله من أصنام أو ملائكة أو انس أو جن أو غيرها من المخلوقات .

ومن الخبائث كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ، كما صح بذلك الحديث عن النبى ﷺ .

ومن الميتة (المنخنقة) أى التى تخنق بالحبال أو غيرها ، أو تختنق فتموت (والموقوذة) وهى التى تضرب بالحصى أو بالعصا حتى تموت . ومن هذا إذا رمى صيداً فأصاب الصيد بعرضه فقتله ، (والمتردية) وهى التى تسقط من موضع عال كسطح وجبل فتموت (والنطيحة)التى تنطحها غيرها فتموت بذلك ، وما أكله ذئب أو غيره من السباع ، وكل هذه المذكورات إذا لم تدرك ذكاتها فان أدركها حية فذكاها حلت . لقوله (إلا ما ذكيتم) وسواء غلب على الظن بقاؤه أو تلفه إذا لم يذك أم لا .

ومن المحرمات الحشرات وخشاش الأرض من فأرة وحية ووزغ ونحوها من المستخبثة شرعاً وطباً .

ومن المحرمات ماذكى ذكاة غير شرعية ، إما أن الذابح غير مسلم ولا كتابى ، وإما أن يذبحها فى غير محل الذبح وهى مقدور عليها ، وإما أن لا يقطع حلقومها ومريها ، وإما أن يذبحها بغير ما ينهر الدم أو بعظم أو ظفر ، وما أمر الشارع بقتله أو نهى عن قتله ، دل على تحريمه وخبثه .

وكل هذه الأشياء تحريمها فى حال السعة ، وأما إذا اضطر اليها غير باغ لأكلها قبل أن يضطر ولا متعد إلى الحرام ، وهو يقدر على الحلال ، فانه إذا اضطر اليها غير باغ ولا عاد فان الله غفور

رحيم . من رحمته أباح المحرمات فى حال الضرورة .

ومن رحمته وسع لعباده طرق الحلال ، فأباح الصيد إذا جرح فى أى موضع من بدنه ، وأباح صيد السهام إذا سمى الرامى عند رميها ، وأباح أيضا صيد الكلاب المعلمة والطيور المعلمة والتعليم يختلف باختلاف الحيوانات ؛ قال العلماء : تعليم الكلاب أن يسترسل إذا أرسل وينزجر إذا زجر وإذا أمسك لم يأكل من صيده لقوله (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أى عند ارسالها لقصد الصيد .

فصل فى جوامع الحكم والقضايا فى الاصول والفروع

قال الله تعالى (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ، وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا)

الحكم بين الناس بالحق والقسط ، هو الحكم بما أنزل الله ، وهو الرد إلى الله ورسوله ، فان هذه الآيات يصدق بعضها بعضا ؛ وتدل على أن الحق والعدل لا يخرج عما جاء به الرسول ، وأن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام على الاطلاق ، أى أعدلها وأقومها وأصلحها وأحسمها للشرور ، وأعظم أحكام توسل بها الى تحصيل المصالح ودرء المفاسد ، وأن رد مسائل النزاع والاختلافات الدينية والدنيوية إلى الله والرسول خير فى الحال وأحسن عاقبة ، وأن كلمات الله تمت وكملت من كل وجه صدقاً فى اخبارها ، عدلا فى أحكامها وأوامرها ونواهيها ، فكل مسألة خارجة عن العدل إلى الظلم ، وعن الصلاح إلى الفساد ، فليست من الشرع ، وقد جاء شرع الله محكم الأصول والفروع موافقاً للمعقول الصحيح والاعتبار والميزان العادل .

وقد حكم الله ورسوله بأحكام متنوعة متفرعة عن هذا الأصل العظيم ؛ وتفصيل لمجمله ، فحكم الله بأن اقرار من عليه الحق معتبر فى القليل والكثير ، كما تقدم التنبيه عليه فى آية الدين

وحكم بأن البينة على المدعى لاثبات حق ، أو المدعى براءة الذمة من الحقوق الثابتة ، وأن اليمين على من أنكر ، وهاتان القاعدتان عليهما مدار جمهور القضايا ، اعتبار اقرار من عليه الحق إذا كان جايز التصرف ، وتكليف المدعين كلهم بالبينات

والبينة شرعا اسم جامع لكل ما بين الحق ، والبيان مراتب بعضها يصل إلى درجة اليقين وبعضها كالقرائن ، وشواهد الأحوال توصل إلى غلبة الظن ، والترجيحات كثيرة جداً .

وعند تساوى الترجيحات ومقادير الأشياء وكمياتها بالتوسط بينها ، إما بقسمتها متساوية وجعل الزيادة والنقص بحسب ذلك ، وإلا بالقرعة إذا تعذرت القسمة ، ومن أحكام الشارع العادلة إلغاؤه المعاملات الظالمة الجائرة : كأنواع الغرر والظلم والميل على أحد المتعاملين بغير حق

ومن أحكامه الكافية اعتباره التراضى بين المتعاملين فى عقود المعاوضات وفى عقود التبرعات وانه لا يحل مال امرىء مسلم أو معاهد إلا بطيب نفسه .

ومن أحكامه الكافية منع الضرر والاضرار بغير حق فى كل معاملة وخلطة وجوار واتصال .

ومن أحكامه الكافية أن على العمال تكميل أعمالهم بغير نقص ، وعلى من عمل لهم تكميل أجورهم

ومن أحكامه الكافية ايجابه الوفاء بالعقود والشروط التى يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر فى أبواب العقود كلها مما لكل منهما أو لأحدهما فيه مصلحة ، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالا ، فهذا قد أهدره الشارع وألغاه وقال : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد .

ومن أحكامه الكافية اعتبار المقاصد والنيات فى أبواب المعاملات والاعمال ، كما تعتبر فى باب العبادات ، وبهذا الأصل أبطل جميع الحيل التى يتوسل بها الى فعل محرم أو اسقاط حق مسلم ونحوها .

ومن أحكامه الكافية أن جميع العقود اللازمة والجائزة : عقود المعاوضة وعقود التبرع ، وكذلك الفسوخ تنعقد بما دل عليها من الألفاظ التى يتعارفها المتعاقدان ؛ ومن الأفعال الدالة على ذلك .

ومن أحكامه الكافية أن تلف الشىء بيد الظالم كالغاصب ونحوه فيه الضمان فرط أو لم يفرط فان ثبوت يده على وجه الظلم والعدوان ، وأن تلف الشىء تحت يد الأمين لا ضمان فيه إن لم يفرط أو يتعد .

ومن أحكامه الكافية أن الشىء المشكوك فيه يرجع فيه الى اليقين فى العبادات والمعاملات فمن ادعى الأصل فقوله مقبول ، ومن ادعى خلاف الاصل لم يقبل الا ببينة ، وأن الاصل بقاء ما كان على ما كان ، والاصل براءة الذمة حتى يتيقن اشتغالها ، كما أن الاصل بقاء ما كان ثابتاً فى الذمة حتى يتيقن البراءة بوفاء أو اسقاط أو سقوط ، وأن الاصل فى عقود المسلمين الصحة والسلامة حتى نعرف أنه جرى ما يفسدها .

ومن أحكامه الكافية أن جميع الأحكام من أصول وفروع لا تتم وتكمل ويحصل مقتضاها الا باجتماع شروطها وأركانها ومقوماتها وانتفاء موانعها ومفسداتها .

ومن أحكامه الكلية وجوب المماثلة فى المتلفات والمضمونات بمثلها ان أمكن المثل ، وبالقيمة إن تعذر المثل .

وكذلك الأعمال ، فمن عمل لغيره عملا بعوض لم يسم ، أو سمى تسمية فاسدة ، أو جهلت التسمية أو عاوضه معاوضة تعذر معرفة العوض فيها ، فانه يرجع فى ذلك إلى أجرة المثل وعوض المثل .

ومن أحكامه الكلية وجوب العدل بين الأولاد والزوجات ، ووجوب العدل بين ذوى الحقوق الذين لامزية لواحد منهم على الآخر ، كالعول الداخل على أهل الفروض بالسوية ، وكقسمة المال بين الغرماء إذا لم يف بحقوقهم يعطون على قدر حقوقهم إذا لم يكن لأحدهم مزية رهن ونحوه وكاشتراك الملاك فى الزيادة المترتبة عليها على قدر أملاكهم ، والنقص على قدر أملاكهم إذا اعتراها نقص ، وسواء كان النقص بحق تعلق بها أو بتلف أو خسارة أو وقع ظلماً فانهم يشتركون فى الزيادة والنقص على قدر أملاكهم

ومن أحكامه الكلية اثبات الخيار فى كل عقد ظهر فى العوض المعين أو المعوض عيب ينقصه وأنه إذا لم يمكن الرد تعين الارش واسقاط النقص ، وعلى الصحيح لا فرق بين البيوع وغيرها فان هذا من قاعدة العدل

ومن أحكامه الكلية جعل المجهول كالمعدوم ، ويندرج تحت هذا الأصل الاموال التى جهل ملاكها أنه يتصدق بها عنهم أو تبذل فى المصالح نيابة عنهم ، وتملك اللقطة ومن مات لا وارث له بفرض ولا تعصيب ولا رحم تركته فى بيت المال للمصالح العامة جعلا للمجهول فى ذلك كالمعدوم

ومن أحكامه الكلية الرجوع الى العرف اذا تعذر التعيين شرعا ولفظاً ، كالرجوع للعرف فى نفقة الزوجات والاقارب والأجراء ، وكالشروط العرفية فى المعاملات اذا اطردت بين الناس وكالقبض والحرز ونحوها مما لا يعد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية أن الأصل فى العبادات الحظر ، فلا يشرع منها الا ما شرعه الله ورسوله ، والأصل فى المعاملات والاستعمالات كلها الاباحة ، فلا يحرم منها الا ماحرمه الله ورسوله وعلى هذا جميع أحكام العبادات والمعاملات وغيرها مما لايمكن احصاؤه ، ولهذا من شرع فى عبادة لم تنقل عن الشارع فهو مبتدع ، ومن حرم من العادات شيئاً لم يرد عن الشارع فهو مبتدع

ومن أحكامه الكلية حثه على الصلح والاصلاح بين من بينهم حقوق ، وخصوصاً عند اشتباهها أو عند تناكرهما ، واذا تعذر استيفاء الحق كله أو تعسر ، فقد شرع فى ذلك كله الصلح بالعدل وسلوك الحالة المناسبة لتلك القضية بما تقتضيه الحال ، وفيه من الفوائد والثمرات الطيبة مالا يعد ولا يحصى

ومن أحكامه الكلية اعتبار العدالة فى الشهود وأن يكونوا ممن يرضى من الشهداء ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فالشارع اعتبر شهادة العدل المرضى من الشهداء وأسقط شهادة الكاذب والقاذف قبل التوبة ، وأمر بالتثبت فى خبر الفاسق وكذلك المجهول ، لانه اعتبر المرضى العدل عند الناس ، فلا بد من تحقيق هذا الوصف ، وأما عدد الشهود ونصابها فذلك يختلف باختلاف المشهود به كما فصله أهل العلم .

ومن أحكامه الكلية أن من سبق إلى مباح فهو أحق به ، فيدخل فى هذا السبق إلى الجلوس فى المساجد والأسواق والأفنية ، ويدخل فيه السبق إلى النزول فى المساكن والاوقاف التى لاتتوقف على نظر ناظر ، ويدخل فى ذلك السبق إلى المباحات من الصيود البرية والبحرية وإلى ما يستخرج من البحار والمعادن ، والى الاحتشاش والاحتطاب وغير ذلك ، وإلى احياء الموات وغيرها من المسائل المتنوعة الداخلة فى هذا الأصل .

ومن أحكامه الكلية قبول قول الأمناء على ما فى أيديهم مما هم عليه أولياء من قبل الشارع أو قبل المالك بالوكالة أو الوصاية أو النظارة للأوقاف ، فكل هؤلاء مقبول قولهم فيما يدعونه من داخل وخارج ومصرف ونحوه إذا كان ذلك ممكناً ، وهذا معنى تأمينهم وتوليهم وولايتهم . واعلم أن قبول قول هؤلاء فى هذه الأمور لايمنع محاسبتهم ، وطلب الوقوف على كيفية تلك المصارف الداخلية والخارجية ، وتبيين وجه النقص والتلف ونحو ذلك ، ليستظهر بذلك على صدقهم وكذبهم وأما تمكينهم من اطلاق سراحهم بحجة أنهم أمناء مقبول قولهم ؛ فهذا غلط على الشريعة وعلى الحقيقة ، فالشارع حاسب عماله واستدرك عليهم ، والحقيقة والوقوف عليها مطلوب باتفاق أهل الاعتبار ؛ فكم من أمين ظهرت خيانته يقيناً حين استدرك عليه .

ومن أحكامه الكلية أن الواجب يسقط بالعجز عنه بالكلية ، وأنه إذا قدر على بعض الواجب وجب عليه ما يقدر عليه منه ، وسقط عنه ما يعجز عنه ، وهذا مطرد فى العبادات والحقوق الواجبة وغيرها ، كما أن الضرورة تبيح المحظور وتقدر بقدرها

ومن أحكامه الكلية أنه أقام البدل مقام مبدله فى أحكام العبادات والمعاملات والحقوق وغيرها ؛ فمتى كان للشىء بدل وتعذر الأصل ، قام هذا مقامه ، وحكم له بأحكامه ، وأن النماء تابع للأصل .

ومن أحكامه الكلية أن من وجب عليه أمر من الامور فانه يجبر عليه بحق . وأن من أتلف شيئاً لدفع أذاه له دفعاً عن نفسه ، فلا ضمان عليه ، فان أتلفه للانتفاع به ضمنه .

وأن ماترتب على المأذون فيه من تلف فغير مضمون ، وما ترتب علي غير المأذون فانه مضمون

ومن أحكامه الكليه أن الاستثناءات والقيود والأوصاف الملحقة بالألفاظ تعتبر وتقيد الكلام ويرتبط بها بشرط الاتصال لفظاً أوحكما ، ويدخل فى هذا ألفاظ العقود والفسوخ والوقف والوصايا والعتق والطلاق والأيمان والاقرارات وغيرها

ومن أحكامه الكلية أن الشركاء فى الأملاك والمنافع يلزمون بكل مايعود إلى حصول المنافع الضرورية ودفع المضار ، ويجبر الممتنع منهما من ذلك من المصارف والنفقات والضرائب التى تلحق الأملاك هم فيها شركاء على كل منهم بقدر ملكه

ومن أحكامه الكلية أن المباشر لاتلاف الأموال أو المتسبب لذلك ضامن لها متعمداً كان أو ناسياً أو جاهلا ، وأنه إذا اجتمع المباشر والمتسبب كان الضمان على المباشر إلا إن تعذر تضمينه لفقد أو امتناع أو عسر أو نحوه ، فيحال الضمان على المتسبب بغير حق

ومنها أن من أدى عن غيره ديناً واجباً بنية الرجوع ، فانه يرجع ولو لم يأذن له فى ذلك

ومنها أن الوصف فى الشىء الذى بيد الغير ، وذلك الغير لا يدعيه لنفسه بيّنة

ومنها أن من تعجل شيئاً قبل أوانه على وجه محرم عوقب بحرمانه

ومن أحكامه الكلية أنه إذا تزاحمت المصالح قدم الأعلى منها ، وإن تزاحمت المفاسد وكان لابد من فعل احداها ارتكب الأخف منها لدفع الأشد مفسدة ، وعلى هذا من مسائل الفقه مالا يعد ولا يحصى ، لأن الشارع شرع الشريعة لتحصيل المصالح أو تكميلها ولتقليل المفاسد وتعطيلها بحسب الامكان

ومنها أن اطلاق التشريك فى الوصايا والهبات والاقرارات وايقاع العقود والفسوخ على الأعيان وغير ذلك ؛ كل ذلك يقتضى المساواة بين من شرك بينهم فى شىء من ذلك ، إلا إن دل دليل على المفاضلة بينهم ، وكذلك فى الأشياء المشتبهة التى يعلم انها لهؤلاء الاشخاص ، ولا يعلم مقدار مالكل فانهم يتساوون فيها ، وأدلة هذه الاصول من الكتاب والسنة ظاهرة ، وهى أصول جامعة عظيمة النفع ، ينتفع بها الحاكم والمفتى وطالب العلم ، وهى من محاسن الشريعة ومن أكبر البراهين على أن ماجاء به الرسول حق من عند الله محكم الاصول متناسب الفروع عدل فى معانيه تابع للحكم والصلاح فى مبانيه ، فلنقتصر على هذه القواعد إذ غيرها تبع لها ، وهى تغنى عن غيرها ولا يغنى عنها سواها . والله أعلم

(فصول)

في ذكر ما قص الله علينا في كتابه من أخبار الأنبياء مع أقوامهم

قد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه ، ووصفها بأنها أحسن القصص . وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد ؛ فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الايمان بالانبياء صلى الله عليهم وسلم ، فاننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والاجمال، فالايمان التفصيلي المستفاد من قصصهم ، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف ؛ وما لهم من الفضل والفواضل والاحسان على جميع نوع الانسان ، بل وصل احسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلفين في الاعتناء بها والقيام بحقها ، فهذا الايمان التفصيلي بالأنبياء يصل به العبد إلى الايمان الكامل ، وهو من مواد زيادة الايمان .

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الايمان بالله وتوحيده واخلاص العمل له والايمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه ، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة .

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين في مقام التوحيد والقيام بالعبودية وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة ، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام ، وفي مقام الصدق والاخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الاجر والثواب من الله تعالى ، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءاً ولا شكوراً إلا الأمور النافعة للخلق

وفيها أيضاً عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح واصلاح ، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك .

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والاحكام الشرعية والاسرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار ، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق مافيه زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونين ومواعظ للمؤمنين ، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سمراً ، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً

واعلم قبل الشروع فيها أن كثيراً من قصصهم صلوات الله وسلامه عليهم أعادها الله في كتابه مرات عديدة بأساليب مناسبة لمقاماتها ، وربما يكون في موضع منها ما ليس في المواضع

الأخر من الزيادات والفوائد ، أو يأتى بهـا بألفاظ غير ألفاظ القصة الأخرى والمعانى متفقة أو متقاربة ، فعلى حسب أن هـذا التعليق مختصر سوف آتى بهذه القصص وأجمع القصة فى موضع واحد وأحرص على مادلت عليه ألفاظ الكتاب من سياقها من أولها إلى آخرها ، وأتبع كل قصة بما يفتح الله به من الفوائد الأصولية والفروعية والأخلاق والآداب والمواضيع المتنوعة ، راجياً من الله أن يوفقنى بذلك للصواب اللفظى والاخلاص الباطنى وموافقة رضاه ، وأن يجعل بذلك النفع العام انه جواد كريم

فصل فى قصة آدم أبى البشر عليه الصلاة والسلام

لم يزل الله أولا ليس قبله شىء ، ولم يزل فعالا لما يريد ، ولا خلا وقت من الأوقات من أفعال وأقوال تصدر عن مشيئته وارادته بحسب ما تقتضيه حكمة الله الذى هو حكيم فى كل ما قدره وقضاه ، كما هو حكيم فى كل ما شرعه لعباده ، فلما اقتضت الحكمة الشاملة والعلم المحيط من الله والرحمة السابغة خلق آدم أبى البشر الذين فضلهم الله على كثير ممن خلق تفضيلا ، أعلم الملائكة وقال (إنى جاعل فى الارض خليفة) يخلف من كان قبلهم من المخلوقات التى لا يعلمها إلا هو (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟)وهذا منهم تعظيم لربهم واجلال له عن أنه ربما يخلق مخلوقاً يشبه أخلاق المخلوقات الاول ، أو أن الله تعالى أخبرهم بخلق آدم وبما يكون من مجرمى ذريته ، قال الله للملائكة (إنى أعلم مالا تعلمون) فانه محيط علمه بكل شىء ، وبما يترتب على هذا المخلوق من المصالح والمنافع التى لا تعد ولا تحصى .

فعرفهم تعالى بنفسه بكمال علمه ، وأنه يجب الاعتراف لله بسعة العلم والحكمة التى من جملتها أنه لايخلق شيئاً عبثاً ولا لغير حكمة ، ثم بين لهم على وجـه التفصيل ، فخلقه بيده تشريفاً له على جميع المخلوقات ، قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها وطيبها وخبيثها ليكون النسل على هذه الطبائع ، فـكان تراباً أولا ثم ألقى عليه الماء فصار طيناً ، ثم لما طالت مدة بقاء الماء على الطين تغير ذلك الطين فصار حمأ مسنونا ، طينا أسود ثم أيبسه بعدما صوره فصار كالفخار الذى له صلصلة وفى هذه الاطوار هو جسد بلا روح ، فلما تـكامل خلق جسده نفخ فيه الروح فانقلب ذلك الجسد الذى كان جماداً حيوانا له عظام ولحم وأعصاب وعروق وروح هى حقيقة الانسان ، وأعده الله لـكل علم وخير ، ثم أتم عليه النعمة ، فعلمه أسماء الأشياء كلها .

والعلم التام يستدعى الـكمال التام ، وكمال الاخلاق ، فأراد الله أن يرى الملائكة كمال هـذا المخلوق فعرض هذه المسميات على الملائكة وقال لهم (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فى مضمون كلامكم الأول الذى مقتضاه أن ترك خلقه أولى ، هذا بحسب ما بدا لهم فى تلك الحال ،

فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة أسماء هذه المسميات وقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) قال الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) شاهد الملائكة من كمال هـذا المخلوق وعلمه ما لم يكن لهم فى حساب، وعرفوا بذلك على وجه التفصيل والمشاهدة كمال حكمة الله، وعظموا آدم غاية التعظيم؛ فأراد الله أن يظهر هذا التعظيم والاحترام لآدم من الملائكة ظاهراً وباطنا، فقال للملائكة (اسجدوا لآدم) احتراماً له وتوقيراً وتبجيلا وعبادة منكم لربكم وطاعة ومحبة وذلا، فبادروا كلهم أجمعون، فسجدوا وكان ابليس بينهم، وقد وجه اليه الأمر بالسجود معهم، وكان من غير عنصر الملائكة؛ كان من الجن المخلوقين من نار السموم، وكان مبطنا للكفر بالله، والحسد لهذا الانسان الذى فضله هذا التفضيل؛ فحمله كبره وكفره على الامتناع عن السجود لآدم كفراً بالله واستكباراً، ولم يكفه الامتناع حتى باح بالاعتراض على ربه والقدح فى حكمته، فقال (أنا خير منه، خلقتنى من نار وخلقته من طين) فقال الله له: (يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى؟ آستكبرت أم كنت من العالين) فكان هذا الكفر والاستكبار والاباء منه وشدة النفار هو السبب الوحيد أن يكون مطروداً ملعونا، فقال الله له (فاخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاخرج إنك من الصاغرين) فلم يخضع الخبيث لربه ولم يتب اليه، بل بارزه بالعداوة وصمم التصميم التام على عداوة آدم وذريته؛ ووطن نفسه لما علم أنه حتم عليه الشقاء الابدى أن يدعو الذرية بقوله وفعله وجنوده إلى أن يكونوا من حزبه الذين كتبت لهم دار البوار فقال (رب أنظرنى إلى يوم يبعثون) فيتفرغ لاعطاء العداوات حقها فى آدم وذريته.

ولما كانت حكمة الله اقتضت أن يكون الآدمى مركبا من طبائع متباينة، وأخلاقا طيبة أو خبيثة، وكان لابد من تمييز هذه الأخلاق وتصفيتها بتقدير أسبابها من الابتلاء والامتحان الذى من أعظمه تمكين هذا العدو من دعوتهم إلى كل شر، أجابه فقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) فقال لربه معلنا معصيته وعداوته آدم وذريته (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال ابليس هذه المقالة ظنا منه لأنه عرف ما جبل عليه الآدمى.

(ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) فمكنه الله من الأمر الذى يريده ابليس فى آدم وذريته، فقال الله له (اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك، واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الاموال والاولاد) أى إن قدرت فاجعلهم منحرفين فى تربية أولادهم إلى التربية الضارة، وفى صرف أموالهم المصارف الضارة وفى الكسب الضار، وأيضا شارك منهم من إذا تناول طعاما أو شرابا أو نكاحا ولم يذكر

اسم الله على ذلك فى الأموال والأولاد ، وعدهم أى مرهم أن يكذبوا بالبعث والجزاء ، وأن لا يقدموا على خير ، وخوفهم من أوليائك وخوفهم عند الانفاق النافع بالفحشاء والبخل . وهذا من الله لحكم عظيمة وأسرار . وانك أيها العدو المبين لا تبقى من مقدورك فى إغوائهم شيئاً ، فالخبيث منهم يظهر خبثه ويتضح شره ، والله لا يعبأ به ولا يبالى به .

وأما خواص الذرية من الانبياء وأتباعهم من الصديقين والاصفياء وطبقات الأولياء والمؤمنين فان الله تعالى لم يجعل لهذا العدو عليهم تسلطا ، بل أقام عليهم سوراً منيعاً ، وهو حمايته وكفايته وزودهم بسلاح لا يمكن عدوهم مقاومتهم بكمال الايمان بالله وقوة توكلهم عليه (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) ومع ذلك فأعانهم على مقاومة هذا العدو المبين بأمور كثيرة: أنزل عليهم كتبه المحتوية على العلوم النافعة والمواعظ المؤثرة والترغيب الى فعل الخيرات والترهيب من فعل الشرور ، وأرسل اليهم الرسل مبشرين من آمن بالله وأطاعه بالثواب العاجل ، ومنذرين من كفر وكذب وتولى ، بالعقوبات المتنوعة ، وضمن لمن اتبع هداه الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، وأنه لا خوف عليه ولا حزن يعتريه ، وأرشدهم فى كتبه وعلى ألسنة رسله إلى الأمور التى بها يحتمون من هذا العدو المبين ، وبين لهم مايدعو اليه هذا الشيطان وطرقه التى يصطاد بها الخليقة .

وكما بينها لهم ووضحها فقد أرشدهم إلى الطرق التى ينجون بها من شره وفتنته وأعانهم على ذلك اعانة قدرية خارجة عن قدرتهم لأنهم لما بذلوا المجهود واستعانوا بالمعبود ، سهل لهم كل طريق يوصل إلى المقصود .

ثم أن الله تعالى أتم نعمته على آدم فخلق منه زوجته حواء من جنسه وعلى شكله ليسكن اليها وتتم المقاصد المتعددة من الزواج والالتئام وتنبث الذرية بذلك ، وقال له ولزوجته : إن الشيطان عدو لكما فاحذراه غاية الحذر ، فلا يخرجنكما من الجنة التى أسكنكما الله إياها ، وأباحكما أن تأكلا من جميع ثمارها وأن تتمتعا بجميع لذاتها إلا شجرة معينة فى هذه الجنة فحرمها عليهما فقال : (ولا تأكلا من هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) وقال الله لآدم فى تمتيعه بهذه الجنة (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى) فمكثا فى الجنة ما شاء الله على هذا الوصف الذى ذكره الله وعدوهما يراقبهما ويراصدهما وينظر الفرصه فيهما ، فلما رأى سرور آدم بهذه الجنة ورغبته العظيمة فى دوامها ، جاءه بطريق لطيف فى صورة الصديق الناصح ، فقال يا آدم هل أدلك على شجرة إذا أكلت منها خلدت فى هذه الجنة ودام لك الملك الذى لا يبلى ، فلم يزل يوسوس ويزين ويسول ويعد ويمنى ويلقى عليهما من النصائح الظاهرة ، وهى أكبر الغش حتى غرهما فأكلا من الشجرة التى نهاهما الله عنها وحرمها عليهما ، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما بعد ما كانا مستورين

وطفقا يخصفان على أنفسهما من أوراق تلك الجنة ، أى يلزقان على أبدانهما العارية ليكون بدل اللباس ، وسقط فى أيديهما وظهرت فى الحال عقوبة معصيتهما ، وناداهما ربهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين) فأوقع الله فى قلوبهما التوبة التامة والانابة الصادقة (وتلقى آدم من ربه كلمات) وقالا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فتاب الله عليهما ومحى الذنب الذى أصابا ، ولكن الأمر الذى حذرهما الله منه ، وهو الخروج من هذه الجنة إن تناولا منها تحتم ومضى ؛ فخرجا منها إلى الأرض التى حشى خيرها بشرّها وسرورها بكدرها .

وأخبرهما الله أنه لا بد أن يبتليهما وذريتهما ، وإن من آمن وعمل صالحا كانت عاقبته خيراً من حالته الأولى ، ومن كذب وتولى فآخر أمره الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى ، وحذر الله الذرية منه فقال (يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) وأبدلهم الله بذلك اللباس الذى نزعه الشيطان من الأبوين بلباس يوارى السوآت ، ويحصل به الجمال الظاهر فى الحياة ، ولباس أعلى من ذلك وهو لباس التقوى الذى هو لباس القلب والروح بالايمان والاخلاص والانابة والتحلى بكل خلق جميل والتخلى عن كل خلق رذيل ، ثم بث الله من آدم وزوجه رجالا كثيراً ونساء ، ونشرهم فى الأرض واستخلفهم فيها لينظر كيف يعملون .

فوائد مستنبطة من هذه القصة أصولية وفروعية وأخلاق وآداب

فمنها أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله فى كتابه فى مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك ؛ وهى من اعظم القصص التى اتفقت عليه الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين ، حتى نبغت فى هذه الأزمان المتأخرة فرقة خبيثة زنادقة أنكروا جميع ماجاءت به الرسل ، وأنكروا وجود البارى ولم يثبتوا من العلوم إلا العلوم الطبيعية التى وصلت اليها معارفهم القاصرة .

فبناء على هذا المذهب الذى هو أبعد المذاهب عن الحقيقة شرعاً وعقلا أنكروا آدم وحواء وما ذكره الله ورسوله عنهما ، وزعموا أن هذا الانسان كان حيواناً قرداً أو شبيها بالقرد حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة ، وهؤلاء اغتروا بنظرياتهم الخاطئة المبنية على ظنون عقول من أصلها فاسدة ، وتركوا لأجلها جميع العلوم الصحيحة ، خصوصاً ماجاءتهم به الرسل ، وصدق عليهم قوله تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) وهؤلاء أمرهم ظاهر لجميع المسلمين ولجميع المثبتين وجود البارى ، يعلمون أنهم أضل الطوائف ،

ولكن تسرب على بعض المسلمين من هذا المذهب الدهرى بعض الآثار والفروع المبنية على هذا القول ، إذ فسر طائفة من العصريين سجود الملائكة لآدم أن معناه تسخير هذا العالم للآدميين وأن المواد الأرضية والمعدنية ونحوها قد سخرها الله للآدمى ، وأن هذا هو معنى سجود الملائكة ولا يستريب مؤمن بالله واليوم الآخر أن هذا مستمد من ذلك الرأى الأفن ، وأنه تحريف لكتاب الله ، لا فرق بينه وبين تحريف الباطنية والقرامطة ، وأنه إذا أولت هذه القصة إلى هذا التأويل توجه نظير هذا التحريف لغيرها من قصص القرآن . وانقلب القرآن بعد ما كان تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة — رموزاً يمكن كل عدو للاسلام أن يفعل بها هذا الفعل ، فيبطل بذلك القرآن وتعود هدايته اضلالا ، ورحمته نقمة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

والمؤمن فى هذا الموضع يكفيه لابطال هذا القول الخبيث أن يتلو ما قصه الله علينا من قصة آدم وسجود الملائكة ، فيعلم أن هذا مناف لما قصد الله ورسوله غاية المنافاة ، وإن زخرفه أصحابه ولووا له العبارات ونسبوه إلى بعض من يحسن بهم الظن ، فالمؤمن لا يترك إيمانه ولا كتاب ربه لمثل هذه الترويجات المغررة أو المغرور أصحابها

ومنها فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الاجلال والتوقير .

ومنها أن من منّ الله عليه بالعلم عليه أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن يقول كما قالت الملائكة والرسل : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، وأن يتوقى التكلم بما لا يعلم ؛ فان العلم أعظم المنن وشكر هذه النعمة بالاعتراف لله بها والثناء عليه بتعليمها وتعليم الجهال ، والوقوف على ما علمه العبد والسكوت عما لم يعلمه .

ومنها أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً ، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد ، فكبر ابليس وحسده لآدم صيره إلى ما ترى ، وحرص آدم وزوجه حملهما على تناول الشجرة ، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما الى الهلاك ، ولكن رحمة الله تكمل الناقص وتجبر الكسير وتنجى الهالك وترفع الساقط .

ومنها أنه ينبغى للعبد إذا وقع فى ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف ، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة ، فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدى بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة ، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على اغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو الذى تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة ، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته وفعل الأسباب التى يخشى منها الوقوع فى شباكه ، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة ، ومن

السلاح المهلك له من صدق الايمان وقوة التوكل على الله ومراغمته فى أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التى يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة .

ومنها أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات كلها ، لا فرق بين صفات الذات ولا بين صفات الأفعال .

ومنها اثبات اليدين لله كما هو فى قصة آدم صريحا : لما خلقت بيدى . فله يدان حقيقة ، كما أن ذاته لا تشبهها الذوات ، فصفاته تعالى لا تشبهها الصفات

﴿ قصة نوح صلى الله عليه وسلم ﴾

مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على الهدى ، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة ، فكان قوم نوح قدمات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم ، فكان هذا مبتدأ الشر ؛ فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم ، فقال لهم الشيطان : إن هؤلاء وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا ؛ قد كان أولوكم يدعونهم ويستشفعون بهم ، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض ، فلم يزل بهم حتى انهمكوا فى عبادتهم على رغم نصح الناصحين ، ثم بعث الله فيهم نوحاً ﷺ يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه ، فقال (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) ورغبهم فى خير الدنيا والآخرة فقال (يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) فلما باداهم بالأمر بالاخلاص لله وتسفيه آراءهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا (ما نراك إلا فى ضلال مبين وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستنكافا على الحق وعلى الخلق ، فبين لهم أنه ليس به ضلال ، وانما به تزول الضلالة عن الخلق ، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة ، وأن المؤمنين لا يحل طردهم ، بل حقهم الاكرام والاحترام ، وأنه لا يدعى لهم طوراً يزاحم فيه الرب فقال (ولا أقول لكم عندى خزائن الأرض ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولاأقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) فلم يزل يدعوهم ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً واعراضا وتواصياً منهم على الاقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح (رب انهم عصون واتبعوا ما لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكراً كبّارا ، وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا)

فلما رأى أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه ، وأنه كلما جاء قرن كان أخبث مما قبله ، قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فأجاب الله دعوته وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التى امتن الله بها على العباد ، وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التى حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية فى جميع الأوقات مالا يعد ولا يحصى ، وأخبره الله بتحتم اغراقهم وأنه لا يخاطب ربه فيهم فانهم ظالمون ، وجعل يصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه فقال لهم : إن تسخروا منا اليوم فانا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم . وأوحى الله اليه أنه إذا جاء ذلك الوقت وفار التنور أى جعلت الأرض كلها تتفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن النار عادة ، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى نسلها لأنه يتعذر حملها كلها ، والحكمة تقتضى ابقاء هذه الحيوانات التى خلقها الله مسخرة لمصالح البشر ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء ، والحال أنه ما آمن معه إلا قليل ، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك ، فلما أركب جميع من أمر بهم قال لهم : سموا الله كلما جرت وكلما رست . لأن الأسباب مهما عظمت فهى من لطف الله ، ولا تمام لها إلا بالله .

فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً ، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير ، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض ، وساحت على الأماكن المنخفضة ، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة ، والسفينة تجرى بهم فى موج كالجبال تضرب يميناً وشمالا . وفى تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذى كان على دين قومه وقد اعتزل أباه حتى فى هذه الحال فرآه مثل سائر قومه قد فر هارباً من المياه الجارفة ، فناداه نوح مترفقاً فقال (يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) فتمادى به الغرور فى تلك الحال التى تنقشع فيها الغياهب إلا عن القلوب المحجوبة ، فقال (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) لم يخطر ببالهم أن المياه سترتفع فوق رءوس الجبال ، فقال له نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله ، ورحمته فى تلك الحال متعينة فى ركوب السفينة مع نوح (وحال بينهما الموج) فكان ذلك الابن من المغرقين .

فأغرق الله جميع الكافرين ونجى نوحاً ومن معه أجمعين ، وكان فى ذلك آية على أن ما جاء به نوح من التوحيد والرسالة والبعث والدين حق ، وأن من خالفه فانه مبطل ، ودليل على الجزاء فى الدنيا لأهل الايمان بالنجاة والكرامة ، ولأهل الكفر بالهلاك والاهانة .

فلما حصل هذا المقصود العظيم أمر الله السماء أن تقلع عن الماء ، والأرض أن تبلع ما فيها وغيض الماء ، أى نقص شيئاً فشيئاً ، واستوت السفينة بعد غيض الماء على الجودى ، وهو جبل

شامخ معروف فى نواحى الموصل .

وهذا دليل على أن جميع الجبال قد غمرتها المياه وجاوزها الطوفان ، وحزن نوح على ابنه فقال منادياً ربه مترفقاً متضرعاً يا رب(إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق) أن أحمل معى أهلى وأنت أرحم الراحمين ، فقال له ربه (إنه ليس من أهلك) أى الموعود بنجاتهم ، لأن الله قيد ذلك بقوله (إلا من سبق عليه القول) (انه عمل غير صالح) أى هذا الدعاء لابنك الذى على دين قومه بالنجاة (فلا تسألنى ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) وهذا عتاب منه لنوح وتعليم له وموعظة عن مثل هـذا الدعاء الذى إنما حمله عليه الشفقة الأبوية ، وإنما الواجب فى الدعاء أن يكون الحامل له العلم والاخلاص فى طلب رضا الله تعالى فقال نوح (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فهبط وبارك الله فى ذريته ، وجعل ذريتـه هم الباقين ؛ فكان أولاده يافث ملأ المشرق من الذرية ، وحام ملأ المغرب من النسل ، وسام ملأ ما بين ذلك ، ومكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومكث بعد هلاكهم ماشاء الله ، وكان من أولى العزم من المرسلين ، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة وهو أول الرسل إلى الناس ، وهو الأب الثاني للبشر ، ﷺ تسليما .

يستفاد من هذه القصة أمور :—

منها : أن جميع الرسل من نوح إلى محمد صلى الله عليهم وسلم متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهى عن الشرك ، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم (اعبـدوا الله ما لـكم من إله غيره) ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة .

ومنها : آداب الدعوة وتمامها ، فان نوحاً دعا قومه ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ؛ بكل وقت وبكل حالة يظن فيهـا نجاح الدعوة ، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب ، وبالتمتيع بالأموال والبنين ، وادرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل ؛ وحذرهم من ضد ذلك ، وصبر على هذا صبراً عظيما كغيره من الرسل ، وخاطبهم بالـكلام الرقيق والشفقة ، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب ، وأقام الآيات وبين البراهين

ومنها : أن الشبه التى قدح فيها أعداء الرسل برسالتهم من الأدلة على ابطال قول المـكذبين فان الاقوال التى قالوها ولم يكن عنـدهم غيرها ، ليس لها حظ من العلم والحقيقة عنـد كل عاقل . فقول قوم نوح (ما نراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعـك إلا الذين هم أراذلنـا بادى الرأى وما نرى لـكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين) تأمل جملها تجدها تمويهات دالة على انهم مبطلون

مكابرون للحقيقة ، فقولهم (ماتراك إلا بشراً مثلنا) فهل فى كون الحق جاء على يد بشر شىء من الشبهة تدل على أنه ليس بحق ، ومضمون هذا الكلام أن كل قول قاله البشر من أى مصدر يكون باطلا . وهذا قدح منهم فى جميع العلوم البشرية المستفادة من البشر ، ومعلوم أن هذا يبطل العلوم كلها ، فهل عند البشر علوم إلا مستفيدها بعضهم من بعض وهى متفاوتة ، فأعظمها وأصدقها وأنفعها ما تلقاه الناس عن الرسل الذين علومهم عن وحى إلهى .

وكذلك قولهم (ما نرى لكم علينا من فضل) أى نحن وأنتم بشر ، وقد أجابت الرسل كلهم عن هذه المقالة فقالوا (إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده) فمن الله على الرسل وخصهم بالوحى والرسالة ، مع ان انكارهم عليهم من هذه الجهة من أكبر الجهل وأعظم القدح فى نعمة الله ، فان رحمة الله وحكمته اقتضت أن يكون الرسل من البشر ليتمكن العباد من الأخذ عنهم ، وتتيسر عليهم هذه النعمة ويسهل الله لهم طرقها ، فهؤلاء المكذبون كفروا بأصل النعمة وبالطريق المستقيم النافع الذى جاءتهم به .

وكذلك قولهم (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا) من المعلوم لكل أحد عاقل أن الحق يعرف أنه حق بنفسه لابمن تبعه ، وأن هذا القول الذى قالوه صدر عن كبر و تيه ، والكبر أكبر مانع للعبد من معرفة الحق ومن اتباعه .

وأيضاً قولهم (أراذلنا) إن أرادوا الفقر ، فالفقر ليس من العيوب ، وإن أرادوا أراذلنا فى الأخلاق ، فهذا كذب معلوم بالبديهة ، وإنما الأراذل الذين قالوا هذه المقالة ، فهل الايمان بالله ورسله وطاعة الله ورسله والانقياد للحق والسلامة من كل خصلة ذميمة ، هل هذا الوصف رذيلة وأهله أراذل أم الرذيلة بضده من ترك أفرض الفروض توحيد الله وشكره وحده وامتلاء القلب من التكبر على الحق وعلى الخلق ؟ هذا والله أرذل الرذائل ، ولكن القوم مباهتون فما نقموا من هؤلاء الأخيار إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .

وقولهم (بادى الرأى) أى مبادرة منهم إلى الايمان بك يا نوح لم يشاوروا ولم يتأنوا ويتروووا لو فرض أن هذا حقيقة فهذا من أدلة الحق ، فان الحق عليه من البراهين والنور والجلالة والبهاء والصدق والطمأنينة مالا يحتاج إلى مشاورة أحد باتباعه ، وإنما التى تحتاج إلى مشاورة هى الأمور الخفية التى لا تعلم حقيقتها ولا منفعتها ؛ أما الايمان الذى هو اجلى من الشمس فى نورها ؛ وأحلى من كل شىء ، فما يتأخر عنه إلا كل متكبر جبار أمثال هؤلاء الطغاة البغاة .

وقولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) هل فى هذا الكلام شىء من الانصاف بوجه ، لأنهم يخبرون عن أنفسهم ، وكلامهم يحتمل أنه الذى فى قلوبهم ، ويحتمل انهم يقولون مالا يعتقدون وعلى كلا الأمرين فالحق يجب قبوله ، سواء أقاله الفاضل أو المفضول ، الحق أعلى من كل شىء .

وكذلك قولهم (بل نظنكم كاذبين) معلوم أن الظن أكذب الحديث ؛ ثم لوقالوا بل نعلمكم كاذبين . فهذه كل مبطل يقدر أن يقولها ، ولكن بأى شىء استدللتم انهم كاذبون ؟ فهذه أدلتهم وبراهينهم أبطلت نفسها بنفسها كما ترى ، فكيف وقد قابلها الرسل بالأدلة والبراهين المتنوعة التى لا تبقى ريب لأحد فى بطلانها .

ومنها أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم اخلاصهم التام لله تعالى فى عبوديتهم لله القاصرة وفى عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق ، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك ، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول (يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الله) ولهذا كان من أجلّ الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل فى هذه الفضيلة ، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا .

ومنها أن القدح فى نيات المؤمنين وفيما منّ الله عليهم به من الفضائل والتألى على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من مواريث أعداء الرسل ، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا فى ذم المؤمنين به بذلك ؛ فقال (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما فى أنفسهم)

ومنها أنه ينبغى الاستعانة بالله وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفى جميع التقلبات والحركات ، وحمد الله والاكثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من الكربات والمشقات ، كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) وقال (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك ، فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) وأنه ينبغى أيضاً الدعاء بالبركة فى نزول المنازل العارضة كالمنازل فى اقامات السفر وغيره ، والمنازل المستقرة كالمساكن والدور لقوله (وقل رب أنزلنى منزلا مباركاً وأنت خير المنزلين) وفى ذلك كله من استصحاب ذكر الله ، ومن القوة على الحركات والسكنات ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التى خير ما صحبت العبد فى أحواله كلها مالا غنى للعبد عنه طرفة عين .

ومنها أن تقوى الله والقيام بواجبات الايمان من جملة الأسباب التى تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان - وإن كان لذلك أيضاً أسباب أخر . وهى السبب الوحيد الذى ليس هناك سبب سواه فى نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها .

ومنها أن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هى للمؤمنين ، وهم الرسل وأتباعهم ، وأما العقوبات الدنيوية العامة فانها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان ، وإن لم يكن لها ذنوب ، لأن الوقائع التى أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم ؛ وأما مايذكر فى بعض الاسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله اهلاكهم أعقم الارحام حتى لا يتبعهم فى

العقوبة أطفالهم فهذا ليس له أصل ، وهو مناف للأمر المعلوم ، وذلك مصداق لقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

قصة هود عليه الصلاة والسلام

بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى المقيمين بالأحقاف — من رمال حضرموت — لما كثر شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا (من أشد منا قوة) مع شركهم بالله وتكذيبهم لرسل الله ، فأرسله الله اليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك والتجبر على العباد ، ويدعوهم بكل وسيلة ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من خير الدنيا والبسطة فى الرزق والقوة ، فردوا دعوته وتكبروا عن اجابته وقالوا (ما أنت إلا بشر مثلنا فأتنا بآية إن كنت من الصادقين) وهم كاذبون فى هذا الزعم ، فانه ما من نبى إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر ، ولو لم يكن من آيات الرسل إلا أن نفس الدين الذى جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله لاحكامه وانتظامه للمصالح فى كل زمان بحسبه وصدق أخباره ، وأمره بكل خير ونهيه عن كل شر ، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له ، ويصدقه من بعده ويشهد له .

ومن آيات هود الخاصة أنه متفرد وحده فى دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح فى آلهتهم ، وهم أهل البطش والقوة والجبروت ، وقد خوفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو سوء ، فتحداهم علناً وقال لهم جهاراً (إنى أشهد الله واشهدوا إنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) فلم يصلوا اليه بسوء .

فأى آية أعظم من هذا التحدى لهؤلاء الأعداء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق ، فلما انتهى طغيانهم تولى عنهم وحذرهم نزول العذاب ، فجاءهم العذاب معترضاً فى الأفق ، وكان الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر ، فلما استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا . قال الله (بل هو ما استعجلتم به) بقولكم فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء) تمر عليه (فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين) فبعدما كانت الدنيا لهم ضاحكة ، والعز بليغ ، ومطالب الحياة متوفرة ، وقد خضع لهم من حولهم من الاقطار والقبائل ، إذ أرسل الله اليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون (وأُتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود) ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين ، إن فى ذلك لآية

على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم ، ونصرهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، وآية على ابطال الشرك ، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها ، وآية على البعث والنشور .

(فوائد من هـذه القصة)

فيها ما تقدم فى قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل ؛ ومنها أن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا فى جزيرة العرب وما حولها ، لأن القرآن يذكر أعلى الطرق فى التذكير والله تعالى صرف فيه التذكيرات تصريفاً نافعاً ، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا فى مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله اليهم رسلا ، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من اجابة ورد واكرام وعقوبة ، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولا ، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلا بعد جيل ، بل ما نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم ، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا ، لا ريب أن نفع هـذا عظيم ، وانه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر ، ولا نعرف لغاتهم ، ولا تتصل الينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به ، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل فى مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقاً ، لكن الحق يتفاوت ، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد فى إيصال العلم والخير إلى الناس بالوسائل التى يفهمونها ، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لاقامة الحجة عليهم نفع وانتفع ، وأشار البارى إلى هذا فى آخر قصة عاد ، فقال (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات) أى نوعناها بكل فن ونوع (لعلهم يرجعون) أى ليكون أقرب لحصول الفائدة .

ومنها أن اتخاذ المبانى الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الامم الطاغية كما قال الله فى قصة عاد وانكار هود عليهم ، قال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)

وبالجملة فالبنايات للقصور والحصون والدور وغيرها من الابنية :

اما أن تتخذ مساكن للحاجة اليها ، والحاجات تتنوع وتختلف ، فهذا النوع من الامور المباحة وقد يتوسل به بالنية الصالحة إلى الخير .

واما أن تكون البنايات حصوناً واقية لشرور الأعداء ، وثغوراً تحفظ بها البلاد ونحوها مما ينفع المسلمين ويقيهم الشر ، فهذا النوع يدخل فى الجهاد فى سبيل الله ، وهو داخل فى الأمر باتخاذ الحذر من الأعداء .

وأما أن يكون للفخر والخيلاء والبطش بعباد الله وتبذير الأموال التي يتعين صرفها في طرق نافعة ، فهذا النوع هو المذموم الذي أنكره الله على عاد وغيرهم .

ومنها أن العقول والاذهان والذكاء وما يتبع ذلك من القوة المادية ، وما ترتب عليها من النتائج والآثار وإن عظمت وبلغت مبلغاً هائلا ، فانها لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الايمان بالله ورسله .

وأما الجاحد لآيات الله المكذب لرسل الله ، فانه وإن استدرج في الحياة وأمهل فان عاقبته وخيمة ، وسمعه وبصره وعقله لا يغني عنه شيئاً إذا جاء أمر الله ، كما قال الله عن عاد (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون) وفي الآية الأخرى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب)

قصة صالح عليه الصلاة والسلام

كانت ثمود - وهي عاد الثانية - يسكنون في الحجر وما حولها ، وكانوا أهل مواش كثيرة وأهل حروث وزروع ، وتواصلت عليهم النعم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة ، ومن الجبال بيوتاً منحوتة متقنة ، فبطروا النعم وكفروها ، وعبدوا غير الله ، فأرسل الله اليهم أخاهم صالحاً من قبيلتهم ، يعرفون نسبه وحسبه وفضله وكماله ، وصدقه وأمانته ، فدعاهم إلى الله وإلى اخلاص الدين له ، وترك ما كانوا يعبدون من دونه ، وذكرهم بنعم الله وبأيامه بالأمم المجاورة لهم ، فلم يتبعه إلا القليل .

وحين ذكرهم وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمأزوا ونفروا واستكبروا وقالوا (ياصالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) أي قد كنا قد تخايلنا فيك أن تفضلنا جميعاً لكمالك وكمال أخلاقك ، وآدابك الطيبة .

وهذا اعتراف منهم له بهذه الأمور قبل أن يقول ما قال ، فما نزله عن هذه المرتبة عندهم إلا أنه دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد ، وإلى السعادة الأبدية ، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين ، وهم كانوا أضل منهم ، ثم أقام لهم بينة عظيمة وآية وبرهاناً ونعمة على جميع القبيلة بأسرها وقال : هذه ناقة الله التي لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها وشرفها ومنافعها لكم آية على صدقي وعلى سعة رحمة ربكم فذروها تأكل في أرض الله على الله رزقها ولكم نفعها ترد الماء

يوماً فترد القبيلة بأسرها على ضرعها كل يصدر عن ضرعها قد ملأ آنيته ؛ ثم تردون أنتم فى اليوم الثانى ، فمكثت على هذا ما شاء الله .

وكان فى مدينتهم تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة ، يصدون عن سبيل الله ويفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وكان صالح قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق ؛ فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة ، فاتفقوا ، فانتدب لذلك أشقى القبيلة ، ولهذا قال الله تعالى (إذ انبعث أشقاها) أى بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك ، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها ؛ وهم جميعهم راضون بل آمرون ، فعقرها ، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها ، فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيعاً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة ، لأن الجريمة قد تفاقمت ، ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم . فقال لهم صالح : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب ، ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم ، ففى أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة ؛ على قتل نبيهم صالح ، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة ، وكتموا أمرهم خشية من منع أهل بيته ، لأنه فى بيت عزوشرف ، وقالوا : لنبيتنه وأهله ، ثم إذا ظن بنا اننا قتلناه حلفنا لأوليائه اننا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . فدبروا هذا المكر العظيم ، ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح . فحين كمنوا فى أصل جبل لينظروا الفرصة فى صالح ؛ بدأ الله بعقوبتهم ، فكانوا سلفا متقدما لقومهم إلى نار جهنم ، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة ، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين ، ونجى الله صالحا ومن معه من المؤمنين ، وتولى عنهم وقال (يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين)

(فوائد تتعلق بهذه القصة)

منها أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة ، وأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع لأنه يكذب الحق الذى جاء به كل واحد منهم ، ولهذا يقول فى كل قصة : كذبت قوم نوح المرسلين كذبت عاد المرسلين ، كذبت ثمود المرسلين

ومنها أن عقوبات الله للأمم الطاغية عند تناهى طغيانها وتفاقم جرائمها ، فكفرهم وتكذيبهم موجب للهلاك ، ولكن تحتم الاهلاك عند تناهى الشرور ، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تناهى إجرامهم ، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومنها أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق ، والحال أنها ليست فى العير ولا فى النفير، ولا لها مقام فى الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق ، فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا : أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا . وقالت جميع الأمم المكذبة رادين لدعوة الرسل (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وهذا سبيل لا يزال معموراً بالسالكين من أهل الباطل نهجته الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله ، ومن المعلوم أن طريق الرسل هى طريق الهدى والحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

قصة ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم

قد ذكر الله فى كتابه سيرة وأخباراً كثيرة من سيرة ابراهيم ، فيها لنا الأسوة بالأنبياء عموماً ، وبه على وجه الخصوص ، فان الله أمر نبينا وأمرنا باتباع ملته ، وهى ما كان عليه من عقائد وأخلاق وأعمال قاصرة ومتعدية ، فقد آتاه الله رشده وعلمه الحكمة منذ كان صغيراً ، وأراه ملكوت السموات والأرض ، ولهذا كان أعظم الناس يقيناً وعلماً وقوة فى دين الله ورحمة بالعباد . وكان قد بعثه الله إلى قوم مشركين يعبدون الشمس والقمر والنجوم ، وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أخبث الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق ، فدعاهم بطرق شتى ، فأول ذلك دعاهم بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها ، ولما كانوا يعبدون السبع السيارات التى منها الشمس والقمر ، وقد بنوا لها البيوت وسموها الهياكل ، قال لهم ناظراً ومناظراً : هلم ياقوم ننظر هل يستحق منها شىء الالهية والربوبية (فلما جن عليه الليل قال : هذا ربى) والمناظرة تخالف غيرها فى أمور كثيرة .

منها أن المناظر يقول الشىء الذى لا يعتقده ليبنى عليه حجته ، وليقيم الحجة على خصمه ، كما قال فى تكسيره الأصنام لما قالوا له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟) فأشار إلى الصنم الذى لم يكسره فقال (بل فعله كبيرهم هذا) ومعلوم أن غرضه إلزامهم بالحجة ، وقد حصلت .

فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله (هذا ربى) أى إن كان يستحق الالهية بعد النظر فى حالته ووصفه فهو ربى ، مع أنه يعلم العلم اليقينى أنه لا يستحق من الربوبية والالهية مثقال ذرة ، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة (فلما أفل) أى غاب (قال لا أحب الآفلين) فان من كان له حال وجود وعدم ، أو حال حضور وغيبة ، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل ، فلا يكون إلهاً ، ثم انتقل إلى القمر ، فلما رآه بازغاً (قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين) يريهم

صلوات الله وسلامه عليه ، وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم ، لكن لا على وجه التقليد ، بل يقصد اقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر ، فالآن وقد أفلت ، وتبين بالبرهان العقلى مع السمعى بطلان إلهيتها ، فأنا إلى الآن لم يستقر لى قرار على رب وإله عظيم ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا أكبر من النجوم ومن القمر ، فان جرى عليها ما جرى عليهما كانت مثلهما ، فلما أفلت وقد تقرر عند الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطل الباطل . فحينئذ ألزمهم بهذا الالزام ووجه عليهم الحجة فقال (يا قوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى) أى ظاهرى وباطنى (للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) فهذا برهان عقلى واضح أن الخالق للعالم العلوى والسفلى هو الذى يتعين أن يقصد بالتوحيد والاخلاص ، وأن هذه الأفلاك والكواكب وغيرها مخلوقات مدبرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها ، فجعلوا يخوفونه آلهتهم أن تمسه بسوء ، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن آلهتهم تنفع من عبدها وتضر من تركها أو قدح فيها ، فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شىء من الخوف ، وإنما الخوف الحقيقى عليكم فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) أجاب الله هذا الاستفهام جواباً يعم هذه القصة وغيرها فى كل وقت فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فرفع الله خليله ابراهيم بالعلم واقامة الحجة ، وعجزوا عن نصر باطلهم ، ولكنهم صمموا على الاقامة على ما هم عليه ، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير واقامة الحجج ، فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون نهيا عاما وخاصا ، وأخص من دعاه أبوه آزر ، فانه دعاه بعدة طرق نافعة ، ولكن (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فمن جملة مقالاته لأبيه إذ قال لأبيه (يا أبت لمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) انظر إلى حسن هذا الخطاب الجاذب للقلوب لم يقل لأبيه إنك جاهل لئلا ينفر من الكلام الخشن ، بل قال له هذا القول (فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) فانتقل بدعوته من أسلوب لآخر لعله ينجع فيه أو يفيد ، ولكنه مع ذلك قال له أبوه (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) هذا وابراهيم لم يغضب ولم يقابل أباه ببعض ما قال ، بل قابل هذه الاساءة الكبرى بالاحسان فقال (سلام عليك) أى لا أتكلم معك إلا بكلام طيب لا غلظة فيه ولا خشونة ، ومع ذلك فلست بآيس من هدايتك (سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا) أى

برّاً رحيماً قد عودني لطفه وأجراني على عوائده الجميلة ولم يزل لدعائي مجيباً ، فلم يزل ابراهيم مع قومه في دعوة وجدال ، وقد أفحمهم وكسر جميع حججهم وشبههم ، فأراد ﷺ أن يقاومهم بأعظم الحجج وأن يصمد لبطشهم وجبروتهم وقدرتهم وقوتهم ، غير هائب ولا وجل ، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم ، فنظر نظرة في النجوم فقال : إني سقيم ، لأنه خشي إن تخلف لغير هذه الوسيلة ، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهي الاكيد عنها وجهاد أهلها ، فلما برزوا جميعاً إلى الصحراء كر راجعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذاً كلها إلا الاصنام كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صبابة ومحبة ، فرأوا فيها أفظع منظر رآه أهلها فقالوا (من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم) أي يعيبها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء (يقال له ابراهيم) فلما تحققوا أنه الذي كسرها قالوا : فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . أي بحضرة الخلق العظيم ووبخوه أشد التوبيخ ثم نكلوا به ، وهذا الذي أراد ابراهيم ، ليظهر الحق بمرأى الخلق ومسمعهم ، فلما جمع الناس وحضروا ، وحضروا ابراهيم قالوا (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الصنم الذي سلم من تكسيره ، وهم في هذه بين أمرين ، إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جماداً معروفاً أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل ؛ وإما أن يقولوا نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها ، وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الاخير ، قال : فاسألوهم إن كانوا ينطقون . وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال ، فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، أي ما كان اعترافهم ببطلان إلهيتها إلا وقتاً قصيرا ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها ، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي رسخت في قلوبهم وصارت صفات ملازمة ، إن وجد ما ينافيها ، فانه عارض يعرض ثم يزول (ثم نكسوا على رءوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فحينئذ وبخهم بعد اقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رءوس الاشهاد ، فقال لهم (أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة مالا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء ، فلما أعيتهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا الى استعمال قوتهم و بطشهم وجبروتهم في عقوبة ابراهيم فقالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . فأوقدوا ناراً عظيمة جداً فألقوه بها ، فقال وهو في تلك الحال : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال الله للنار (يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم) فلم تضره بشيء ، وأرادوا به كيدا لينصروا آلهتهم ويقيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم

الخضوع والتعظيم ، فكان مكرهم وبالا عليهم ، وكان انتصارهم لآلهتهم نصراً عظما عند الحاضرين والغائبين والموجودين والحادثين عليهم . وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرءوسين حتى ان ملكهم حاج إبراهيم فى ربه بغياً وطغيانا ًأن آتاه الله الملك فقال ابراهيم (ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت) فألزمه الخليل بطرد دليله بالتصرف المطلق ، فقال : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ؛ فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين .

(فصل)

ثم خرج من بين أظهرهم مهاجراً وزوجته وابن أخيه لوط إلى الديار الشامية ، وفى أثناء مدة اقامته بالشام ذهب إلى مصر بزوجته ساره ، وكانت أحسن امرأة على الاطلاق ، فلما رآها ملك مصر وكان جباراً عنيداً لم يملك نفسه حتى أرادها على نفسها ، فدعت الله عليه ، فكاد أن يموت ثم أطلق ثم عاد ثانية ، وكلما أرادها دعت عليه فصرع ، ثم دعت له فأطلق ، فكفاها الله شره ، ووهب لها هاجر جارية قبطية ، وكانت سارة عاقراً منذ كانت شابة فوهبت هذه الجارية لابراهيم ليتسرها لعل الله يرزقه منها ولداً ، فأتت هاجر باسماعيل على كبر ابراهيم ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة رضى الله عنها أدركتها الغيرة فحلفت أن لا يساكنها بها ، وذلك لما يريده الله . وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضع البيت الحرام ، وإلا فهو متقرر عنده ذلك عليه السلام فذهب بها وبابنها اسماعيل إلى مكة ، وهى فى ذلك الوقت ليس فيها ساكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه تمر ووضعهما عند دوحة قريبة من محل بئر زمزم ثم قفى عنهما ، فلما كان فى الثنية بحيث يشرف عليهما ، دعا الله تعالى فقال (رب إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) إلى آخر الدعاء ، ثم استسلمت لأمر الله وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا فعطشت ثم عطش ولدها فجعل يتلوى من العطش ، ثم ذهبت فى تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً ، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا وتطلعت فلم تر أحدا ثم ذهبت الى المروة فصعدت عليه فتطلعت فلم تر أحدا ، ثم جعلت تتردد فى ذلك الموضع وهى مكروبة مضطرة مستغيثة بالله لها ولابنها ، وهى تمشى وتلتفت اليه خشية السباع عليه ، فاذا هبطت الوادى سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصرها ابنها والفرج مع الكرب ، والعسر يتبعه اليسر ؛ فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث فى الموضع الذى فيه زمزم فنبع الماء ، فاشتد فرح أم اسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها وحمدت

الله على هـذه النعمة الـكبرى ، وحوطت على الماء لئلا يسيح . قال النبى ﷺ « رحم الله أم اسماعيل لو تركت ماء زمزم - أي لم تحوطه - لـكانت زمزم عيناً معينا » ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة .

وشب اسماعيل شباباً حسنا وأعجب القبيلة بأخلاقه وعلو همته وكماله ، فلما بلغ تزوج منهم امرأة ، ففى أثناء هذه المدة ماتت أمه رضى الله عنها وجاء ابراهيم بغيبة اسماعيل يتصيد فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم ، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد وأن عيشهم عيش الشدة ، فقال لها : إذا جاء زوجك فاقرئيه منى السلام وقولى له يغير عتبة بابه . ورجع من فوره لحـكمة أرادها الله ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا . فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته . وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا فى شدة ، وأنه يقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك . فقال ذاك أبي وأنت العتبة إلحقى بأهلك . ثم تزوج اسماعيل غيرها ، ثم جاء ابراهيم مرة أخرى واسماعيل أيضا فى الصيد ، فدخل على امرأته فسألها عن اسماعيل فأخبرته ، وسألها عن عيشهم فأخبرته انهم فى نعمة وخير . وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة لزوجها ، ثم قال لها : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يثبت عتبة بابه ، ثم رجع أيضا من فوره قبل مواجهة اسماعيل لحـكمة أرادها الله تعالى ، فلما رجع اسماعيل من صيده قال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت جاءنا شيخ بهذا الوصف . فقال : هل قال لـكم من شيء ؟ فقالت سألنا عنك فأخبرته ، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إنا فى نعمة وأثنيت على الله فقال . فما قال ؟ قالت هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . فقال : ذاك أبى وأنتى العتبة أمرنى أن أمسكك .

ثم عاد ابراهيم المرة الثالثة فوجد اسماعيل يبرى نبلا عند زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق ، فقال : يا اسماعيل إن الله أمرني أن أبنى ههنا بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة : قال سأعينك على ذلك ، فجعلا يرفعان القواعد من البيت ، ابراهيم يبنى واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الـكتاب والحـكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحـكيم : فلما تم بنيانه وتم للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت ، فجعل يدعو الناس وهم يفدون الى هذا البيت من كل فج عميق ليشهدوا منافع دنياهم وأخراهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاءهم : وفى هذا الاثناء حين تمكن حب اسماعيل من قلبه وأراد الله أن يمتحن ابراهيم لتقـديم محبة ربه وخلته التى لا تقبل المشاركة والمزاحمة فأمره فى المنام أن يذبح اسماعيـل ، ورؤيا الانبياء وحى من الله ، فقال لاسماعيل : إنى أرى فى

المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ، أى خضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذى لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره (وتله للجبين) نزل الفرج من الرحمن الرحيم (وناديناه يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) فحصل توطين النفس على هذه المحنة والبلوى الشاقة المزعجة ، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لهما الأجر والثواب ، وحصل لهما الشرف والقرب والزلفى من الله ، وما ذلك من ألطاف الرب بعزيز . قال تعالى (إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم) وأى ذبح أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التى لا يشبهها عبادة ، وصار سنة فى عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم)

فصل

ثم ان الله أتم النعمة على ابراهيم ورحم زوجته سارة على الكبر والعقم واليأس بالبشارة بالابن الجليل وهو اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ، فحين أرسل الله لوطاً إلى قومه وتمردوا عليه وحتم الله عقوبتهم ، وكان لوط عليه السلام تلميذاً لابراهيم ، ولابراهيم عليه حقوق كثيرة ، فمرت الملائكة الذين أرسلوا لاهلاك قوم لوط بابراهيم بصورة آدميين ؛ فلما دخلوا عليه وسلموا ردعليهم السلام ، بادرهم بالضيافة ، وكان الله قد أعطاه الرزق الواسع والكرم العظيم ، وكان بيته مأوأ للأضياف ، فبالحال راغ إلى أهله بسرعة وخفية منهم ، فجاء بعجل سمين محنوذ مشوى على الرضف فقربه اليهم فقال (ألا تأكلون) فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، إذ ظن أنهم لصوص (فقالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وكانت سارة قائمة فى خدمتهم ، وبشروه بغلام عليم ، فصرخت سارة وصكت وجهها متعجبة ومستبشرة ومترددة ومتحيرة وقالت (أألد وأنا عجوز) وقبل ذلك كنت عقيما ، وهذا بعلى شيخا ، إن هذا لشىء عجيب ؛ قالوا : أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، فبشراهما باسحاق وانه يعيش ويولد له يعقوب ويدركانه . ولهذا حمد الله ابراهيم على تمام نعمته وقال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء)

فصل

﴿ فيما فى قصة الخليل من الفوائد ﴾

ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة ابراهيم الخليل ﷺ فاننا مأمورون به أمراً خاصاً

قال تعالى (ملة أبيكم ابراهيم) أى الزموها (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم) الآية . فما هو عليه فى التوحيد والاصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه ، فان اتباعنا اياه من ديننا ، ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك) أى فلا تقتدوا به فى هذه الحال بالاستغفار للمشركين ، فان استغفار ابراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

ومنها أن الله اتخذه خليلا ، والخلة أعلى درجات المحبة ، وهذه المرتبة لم تحصل لأحد من الخلق إلا للخليلين ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

ومنها ما أكرمه الله به من الكرامات المتنوعة ، جعل فى ذريته النبوة والكتاب وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو اسرائيل واختاره الله لبناء بيته الذى هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس ووهب له الأولاد بعد الكبر واليأس ، وملأ بذكره ما بين الخافقين وامتلأت قلوب الخلق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه .

ومنها أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج ، قال جل ذكره : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم » ومن شوقه الى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه (أرنى كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم)

ومنها أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره فى أسبابها ، ثم حصل مانع يمنع من اكمالها أن أجره قد وجب على الله ، كما قال الله ذلك فى المهاجر الذى يموت قبل أن يصل إلى مهاجره ، وكما ذكره الله فى قصة الذبح ، وأن الله أتم الأجر لابراهيم واسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الاجر الدنيوى والأخروى .

ومنها مافى قصصه من آداب المناظرة وطرقها ومسالكها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التى يعترف بها أهل العقول ، وإلجاؤه الخصم الألد الى الاعتراف ببطلان مذهبه واقامة الحجة على المعاندين وارشاد المسترشدين .

ومنها أن من نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين ، وأن عليه فى ذلك أن يحمد الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل ﷺ فى قوله (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق) الى آخر الدعاء ، وقال جل ذكره فى الثناء عموماً على من يدعو الله بصلاح ذريته :

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت اليك وإنى من المسلمين) فان العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

ومنها أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها ، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته فى عبادات ربهم ، وإيمان بالله ورسله ، وحث على الاقتداء بهم فى كل أحوالهم الدينية وكل أحوال الرسل دينية ، لقوله تعالى (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى)

ومنها الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصى القولية والفعلية تعظيما لله واعانة وتنشيطاً للمتعبدين فيه ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل (وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقال (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

ومنها أن أفضل الوصايا على الاطلاق ما وصى به ابراهيم بنيه ويعقوب ؛ وهو الوصية بملازمة القيام بالدين وتقوى الله والاجتماع على ذلك ، وهى وصيته تعالى للأولين والآخرين ، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة .

ومنها أن العامل كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد فى ايقاعه على أكمل الوجوه فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء ، وأن يتضرع إلى ربه فى قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص ، كما كان ابراهيم واسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل .

ومنها أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله ، وكذلك السعى فى تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذى خلق له الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأمرين وتعليله الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال (وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)

ومنها ما اشتملت عليه قصة ابراهيم من مشروعية الضيافة وآدابها ، فان الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون ، يعنى أنهم كرماء على الله ، وأيضاً ابراهيم أكرمهم بضيافته قولا وفعلا ، فاكرام الضيف من الايمان ، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شىء ، وأتى بأطيب ماله عجل حنيذ سمين وقربه اليهم ولم يحوجهم إلى الذهاب إلى محل آخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال : ألا تأكلون ؟

ومنها مشروعية السلام وأن المبتدىء فيه هو الداخل وهو الماشى ، وأنه يجب رده ومشروعية الوقوف على اسم من يتصل بك من صاحب ومعامل وضيف لقوله (قوم منكرون) أى لا أعرفكم فأحب أن تعرفونى بأنفسكم ، وهذا ألطف من قوله أنكرتكم ونحوه .

ومنها الترغيب فى أن يكون أهل الانسان ومن يتولى شئون بيته حازمين مستعدين لكل

ما يراد منهم من الشئون والقيام بمهمات البيت ، فان ابراهيم فى الحال بادر إلى أهله فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا الى تقديمه .

ومنها أن اتيان الولد والبشارة به من سارة وهى عجوز عقيم يعد معجزة لابراهيم وكرامة لسارة ففيه معجزة نبي وكرامة ولى ، ونظيره بشارة الملائكة لمريم بعيسى : وبشارتهم بيحيي لزكريا وزوجته ، وكون زكريا جعل الله آية وجود المبشر به أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام ؛ وهو سوى لا آفة فيه إلا بالرمز والاشارة ، وكل هذا وما أشبهه من آيات الله ، وأعجب من هذا ايجاده آدم من تراب . فسبحان من هو على كل شىء قدير .

ومنها ثناء الله على ابراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم ، وقد قال (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها ، ملآن من الخير والبر والكرم ، سليم من الشبهات القادحة فى العلم واليقين ؛ ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله ، سليم من الكبر ومن الرياء والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، وسليم من الغل والحقد ، ملآن بالتوحيد والايمان والتواضع للحق وللخلق ، والنصيحة للمسلمين والرغبة فى عبودية الله وفى نفع عباد الله .

ومنها ما ذكره فى قصة نوح وابراهيم وموسى وهارون والياس ﴿ سلام على نوح فى العالمين ، سلام على ابراهيم ﴾ يتبعها بقوله (إنا كذلك نجزى المحسنين) فوعد البارى أن كل محسن فى عبادته محسن إلى عباده أن الله يجزيه الثناء الحسن والدعاء من العالمين بحسب احسانه ، وهذا ثواب عاجل وآجل ، وهو من البشرى فى الحياة الدنيا ومن علامات السعادة .

قصة لوط عليه السلام

وقصة لوط عليه السلام تبع لقصة ابراهيم ، لأنه تلميذه وقد تعلم من ابراهيم ، وكان له بمنزلة الابن ، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين ، وكانوا مع شركهم بالله يلوطون بالذكور ، ولم يسبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنعاء ، فدعاهم الى عبادة الله وحده وحذرهم من هذه الفاحشة ؛ فلم يزدادوا إلا عتواً وتمادياً فيما هم فيه ، ولما أراد الله هلاكهم أرسل الملائكة لذلك فمروا بطريقهم على ابراهيم وأخبروه بذلك ؛ فجعل ابراهيم يجادل فى اهلاكهم - وكان رحيما حليما - وقال : إن فيها لوطاً . قالوا : نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله أجمعين . فقيل يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود .

ولما ذهب الملائكة إلى لوط بصورة أضياف آدميين شباب ، ساء لوطاً ذلك وضاق بهم ذرعا

وقال : هذا يوم عصيب » لعلمه بما عليه قومه من هذه الجراءة الشنيعة ، ووقع ما خاف منه ، فجاءه قومه يهرعون اليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط ، فقال (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) لعلمه أنه لاحق لهم فيهن ، كما عرض سليمان للمرأتين حين اختصمتا فى الولد فقال: ائتونى بالسكين أشقه بينكما . ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك ، وهذا مثله . ولهذا قال قومه (لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد) وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه ، وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين (هؤلاء بناتى) يعنى زوجاتهم ، يعنى لأن النبى أب لأمته ، فان هذا يمنعه أمران :

أحدهما : قوله (هؤلاء بناتى) يشير اليهن اشارة الحاضر .

ثانياً : هذا الاطلاق على زوجاتهم لا نظير له ، وأيضاً النبى إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به ، لا للكفار ، والمحذور الذى توهموه يزول بما ذكرنا ، وأنه يعلم أنه لاحق لهم فيهن ، وإنما يريد مدافعتهم بكل طريق ، فاشتد الأمر بلوط وقال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) أى لدافعتكم ، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال (يا قوم اتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) فاستلجوا فى طغيانهم وسكرهم ، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم وأنهم أرسلوا لاهلاكهم ، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس بهذه الصدمة أعينهم ، فكان هذا عذاباً معجلا وانموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه ، وأمروا لوطا أن يسرى بأول الليل بأهله ويلح فى السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب ، فخرج بهم فما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد .

وفى هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح ، وأنها توجب العقاب الشديد ، وأن من ابتلى بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح ، فاستحسن ما كان قبيحا ونفر من الطيب ، وذلك دليل على انحراف الأخلاق

وفيها وفى قصة ابراهيم جواز التعريض ، أما قصة ابراهيم ففى قوله (فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم) وأما لوط ففى قوله (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) والتعريض يكون فى الأقوال ويكون فى الأفعال ، وهو أن يقصد المتكلم أو العامل لعمل أمر من الأمور التى لا بأس بها ويوهم السامع والرائى أمراً آخر ليستجلب منفعة أو يدفع مضرة .

ومنها أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد فى أقواله وأفعاله ، ومن ذلك أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر ، هذا هو الرشيد

حقيقة، فلهذا قال لوط : أليس منكم رجل رشيد . أى فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغى .

ومنها الحث على السعى فى الاعوان على أمور الخير ودفع الشر ، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر فان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله ، ولهذا قال لوط (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) وأكثر الأنبياء يبعثهم الله فى أشراف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمكن من الدعوة مالا يحصل لو لم يكن كذلك ؛ واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) وكذلك نبينا محمد بعث فى أشرف بيت فى قريش وأعزه ؛ وقد رماه قومه بالعداوة البالغة وعقدوا المجالس المتعددة فى ابطال قوله ودينه ، بل وفى كيفية الفتك به ، ومن الأسباب التى أوقفتهم عند حدهم خوفهم من قبيلته ، وانظر إلى حالته فى تضييقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم - مسلمهم وكافرهم - ولم يخطر ببالهم أنهم يصلون إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم ، إذ اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه فى القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

قصة شعيب عليه السلام

نبأه الله وأرسله إلى أهل مدين ، وكانوا مع شركهم يبخسون المكاييل والموازين ، ويغشون فى المعاملات وينقصون الناس أشياءهم ، فدعاهم إلى توحيد الله ونهاهم عن الشرك به وأمرهم بالعدل فى المعاملات ، وزجرهم عن البخس فى المعاملات ، وذكرهم الخير الذى أدره الله عليهم ، والأرزاق المتنوعة ، وأنهم ليسوا بحاجة إلى ظلم الناس فى أموالهم ، وخوفهم العذاب المحيط فى الدنيا قبل الآخرة ، فأجابوه ساخرين وردوا عليه متهكمين فقالوا (يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد) أى فنحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون ، وجازمون على أننا نفعل فى أموالنا ما نريد من أى معاملة تكون فلا ندخل تحت أوامر الله وأوامر رسله ، فقال لهم (يا قوم ، أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً) أى أغناني الله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى ما نهيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها ، إلا وأنا أول تارك لها مع أن الله أعطانى ووسع علىّ وأنا محتاج إلى المعاملة ولكنى متقيد بطاعة ربى ، إن أريد فى فعلى وأمرى لكم إلا الاصلاح أى أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

ثم خوفهم أخذات الأمم التى حولهم فى الزمان والمكان فقال (ولا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) ثم عرض عليهم التوبة ورغبهم فيها فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربى رحيم ودود) فلم يفد فيهم. فقالوا (ما نفقه كثيراً مما تقول) وهذا لعنادهم وبغضهم البليغ للحق (وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) قال (يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربى بما تعملون محيط) ثم لما رأى عتوهم قال (وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إنى معكم رقيب . فلما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) فأرسل الله عليهم حراً أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يختنقون من شدته ، ثم فى أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلتهم فتنادوا إلى ظلها غير الظليل ، فلما اجتمعوا فيها التهبت عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذبين مذمومين ملعونين فى جميع الأوقات .

وفى قصة شعيب فوائد متعددة :—

منها أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً ، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة .

ومنها أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعى والحاجة اليها أعظم ، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب ، والكِبْر من الفقير أقبح من الغنى ، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج . لهذا قال شعيب لقومه (إني أراكم بخير) أى بنعم كثيرة ، فأى أمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدى الناس بطرق محرمة .

ومنها قوله (بقية الله خير لكم) فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه ، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس .

ومنها فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله ، وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » وقال تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته فى أنه فرض علينا الصلوات تتكرر فى اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها ، فلله على ذلك أتم الحمد .

ومنها أن العبد فى حركات بدنه وتصرفاته وفى معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة ، فما أبيح له منها فعله ، وما منعه الشرع تعين عليه تركه ، ومن يزعم أنه فى ماله حر له أن يفعل

ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة ، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك ، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والايمان ، والصدق والكذب ، وفعل الخير والشر الكل مباح . ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الاباحيين الذين هم شر الخليقة ، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا . لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة ، وأباح لهم سواها ، فردوا عليه أنهم أحرار فى أموالهم لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون ، ونظير هذا قول من قال : إنما البيع مثل الربا ، فمن سوى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف فى فطرته وعقله بعد ما انحرف فى دينه .

ومنها أن الناصح للخلق الذى يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله : أنه إذا أمرهم بشىء أن يكون أول الفاعلين له ، وإذا نهاهم عن شىء كان أول التاركين . لقول شعيب (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)

ومنها أن الأنبياء جميعهم بعثوا بالاصلاح والصلاح ، ونهوا عن الشرور والفساد ؛ فكل صلاح واصلاح دينى ودنيوى فهو من دين الأنبياء ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ فانه أبدى وأعاد فى هذا الأصل ووضع للخلق الأصول النافعة التى يجرون عليها فى الأمور العادية والدنيوية كما وضع لهم الأصول فى الأمور الدينية ، وأنه كما أن على العبد السعى والاجتهاد فى فعل الصلاح والاصلاح ، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك ، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) .

ومنها أن الداعى إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك ، وأن لا يحفظه أذى الخلق ولا يصده عن شىء من دعوته ، وهذا الخلق كماله للرسل صلوات الله عليهم وسلم ، فانظر إلى شعيب عليه السلام وحسن خلقه مع قومه ودعوته لهم بكل طريق وهم يسمعونه الأقوال السيئة ويقابلونه المقابلة الفعلية ، وهو ﷺ يحلم عليهم ويصفح ويتكلم معهم كلام من لم يصدر منهم له وفى حقه إلا الاحسان ويهون هذا الأمر أن هذا خلق من ظفر به وحازه فقد فاز بالحظ العظيم ، وأن لصاحبه عند الله المقامات العالية والنعيم المقيم ، ويهونه أنه يعالج أمماً قد طبعوا على أخلاق ازالتها وقلعها أصعب من قلع الجبال الرواسى ، ومرنوا على عقائد ومذاهب بذلوا فيها الأموال والأرواح وقدموها على جميع المهمات عندهم ، أفتظن مع هذا ان أمثال هؤلاء يقتنعون بمجرد القول بأن هذه مذاهب باطلة وأقوال فاسدة ، أم تحسبهم يغتفرون لمن نالها بسوء كلا والله إن هؤلاء يحتاجون إلى معالجات متنوعة بالطرق التى دعت اليها الرسل ، يذكرون بنعم الله وأن الذى تفرد بالنعم يتعين أن يفرد بالعبادة ، ويذكر لهم من تفاصيل النعم مالا يعد ولا يحصى ،

ويذكرون بما فى مذاهبهم من الزيغ والفساد والاضطراب والتناقض المزلزل للعقائد الداعى إلى تركها ، ويذكرون بما بين أيديهم وما خلفهم من أيام الله ووقائعه بالأمم المكذبة للرسل ، المنكرة للتوحيد ، ويذكرون بما فى الايمان بالله وتوحيده ودينه من المحاسن والمصالح والمنافع الدينية والدنيوية الجاذبة للقلوب المسهلة لكل مطلوب ، ومع هذا كله فيحتاج الخلق إلى الاحسان اليهم وبذل المعروف ، وأقل ذلك الصبر على أذاهم وتحمل ما يصدر منهم ولين الكلام معهم ، وسلوك كل سبيل حكمة معهم ، والتنقل معهم فى الأمور بالاكتفاء ببعض ما تسمح به أنفسهم ليستدرج بهم إلى تكميله ، والبداءة بالأهم فالأهم ، وأعظمهم قياماً بهذه الأمور وغيرها سيدهم وخاتمهم وإمام الخلق على الاطلاق محمد ﷺ .

قصة موسى وهارون عليهما السلام

قد ذكر الله لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام سيرة طويلة ، وساق قصصه فى مواضع من كتابه بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام ، وليس فى قصص القرآن أعظم من قصة موسى ، لأنه عالج فرعون وجنوده ، وعالج بنى اسرائيل أشد المعالجة ، وهو أعظم أنبياء بنى اسرائيل ، وشريعته وكتابه التوراة ، هو مرجع أنبياء بنى اسرائيل وعلمائهم وأتباعه أكثر أتباع الانبياء غير أمة محمد ﷺ ، وله من القوة العظيمة فى اقامة دين الله والدعوة اليه والغيرة العظيمة ماليس لغيره ، وقد ولد فى وقت قد اشتد فيه فرعون على بنى اسرائيل فكان يذبح كل مولود ذكر يولد من بنى اسرائيل ويستحيى النساء للخدمة والامتهان ، فلما ولدته أمه خافت عليه خوفاً شديداً ، فان فرعون جعل على بنى اسرائيل من يرقب نساءهم ومواليدهم ، وكان بيتها على ضفة نهر النيل فألهمها الله أن وضعت له تابوتاً إذا خافت أحداً ألقته فى اليم وربطته بحبل لئلا تجرى به جرية الماء ومن لطف الله بها أنه أوحى لها أن لا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فلما ألقته ذات يوم انفلت رباط التابوت ، فذهب الماء بالتابوت الذى فى وسطه موسى ، ومن قدر الله أن وقع فى يد آل فرعون وجىء به الى امرأة فرعون آسية فلما رأته أحبته حباً شديداً ، وكان الله قد ألقى عليه المحبة فى القلوب وشاع الخبر ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله ، فقالت امرأته لاتقتلوه قرة عين لى ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، فنجا بهذا السبب من قتلهم ، وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعى المشكور عند الله ، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك .

اما أم موسى فانها فزعت وأصبح فؤادها فارغا ، وكاد الصبر أن يغلب فيها إن كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه وتحسسى عنه ، وكانت امرأة

فرعون قد عرضت عليه المراضع فلم يقبل ثدى امرأة ، وعطش وجعل يتلوى من الجوع وأخرجوه الى الطريق لعل الله أن ييسر له أحداً ، فحانت من أخته نظرة اليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها ، فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعا قالت لهم : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؛ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن . ثم ذكر الله فى هذه السورة قصة مفصلة واضحة ، وكيف تنقلت به الأحوال ، قراءتها كافية عن شرح معناها لوضوحها وتفصيلاتها ، والله تعالى ما فصل لنا إلا ما ننتفع به ونعتبر ، ولكن فى قصته من العبر والفوائد شىء كثير ننبه على بعضها .

﴿ ذكر الفوائد المستنبطة نصاً أو ظاهراً أو تعميما أو تعليلا من قصة موسى ﷺ ﴾

منها : لطف الله بأم موسى بذلك الالهام الذى به سلم ابنها ، ثم تلك البشارة من الله لها برده اليها ، التى لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها ، ثم رده اليها بالجائه اليها قدراً بتحريم المراضع عليه وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات ، وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً وتأخذ عليه أجراً وتسمى أمه شرعا وقدرا وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها ، وفى هذا مصداق لقوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون ، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة .

ومنها : أن آيات الله وعبره فى الأمم السابقة ، إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون ؛ والله يسوق القصص لاجلهم ، كما قال تعالى فى هذه القصة (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) .

ومنها : أن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدريج لا دفعة واحدة .

ومنها : أن الأمة المستضعفة ولو بلغت فى الضعف ما بلغت لا ينبغى أن يستولى عليها الكسل عن السعى فى حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور ، خصوصاً إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله بنى اسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئه منهم ، ومكنهم فى الأرض وملكهم بلادهم .

ومنها : أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها .

ومنها : أن الخوف الطبيعى من الخلق لا ينافى الايمان ولا يزيله ، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف

ومنها : أن الايمـان يزيد وينقص لقوله (ولتكون من المؤمنين) والمراد بالايمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته .

ومنها : أن من أعظم نعم الله على العبد تثبيت الله له عند المقلقات والمخاوف ، فانه كما يزداد به إيمانه وثوابه فانه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب ، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة ، وأما من لم يحصل له هـذا الثبات ، فانه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله ولا ينتفع بنفسه فى تلك الحال .

ومنها : أن العبـد وإن عرف أن القضاء والقدر حق ، وأن وعد الله نافذ لا بد منه ، فانه لا يهمل فعل الأسباب التى تنفع ، فان الأسباب والسعى فيها من قدر الله ، فان الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها ، ومع ذلك لمـا التقطه آل فرعون سعت بالاسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال .

ومنها : جوازخروج المرأة فى حوائجها وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور ، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين .

ومنها : جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع ، كما فعلت أم موسى ، فان شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد من شرعنا ما ينسخه

ومنها : أن قتل الكافر الذى له عهد بعقد أو عرف لا يجوز ، فان موسى ندم على قتله القبطى واستغفر الله منه وتاب اليه .

ومنها : أن الذى يقتل النفوس بغير حق يعد من الجبارين المفسدين فى الأرض ؛ ولو كان غرضه من ذلك الارهاب ، ولو زعم أنه مصلح حتى يرد الشرع بما يبيح قتل النفس

ومنها : أن اخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون نميمة ، بل قد يكون واجباً ، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى محذراً لموسى على وجه الثناء عليه .

ومنها : إذا خاف التلف بالقتـل بغير حق فى اقامته فى موضع ، فلا يلقى بيـده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك ، بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى

ومنها : إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما الاسلم دفعاً لما هو أعظم وأخطر ، فان موسى لما دار الامر بين بقائه فى مصر ولكنه يقتل أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التى لا يعرف الطريق اليها ، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه ، ومعلوم أنها أرجى للسلامة لا جرم آثرها موسى .

ومنها : فيه تنبيه لطيف على أن الناظر فى العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين ، فانه يستهدى ربه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه ، فان الله لا يخيب من هذه حاله ، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين ولا يدرى الطريق المعين اليها قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه .

ومنها : أن الرحمة والاحسان على الخلق ، من عرفه العبد ومن لا يعرفه ، من أخلاق الأنبياء وأن من جملة الاحسان الاعانة على سقى الماشية ، وخصوصاً اعانة العاجز ، كما فعل موسى مع ابنتى صاحب مدين حين سقى لهما ، لما رآهما عاجزتين عن سقى ماشيتهما قبل صدور الرعاة

ومنها : أن الله كما يحب من الداعى أن يتوسل اليه بأسمائه وصفاته ونعمه العامة والخاصة ، فانه يحب منه أن يتوسل اليه بضعفه وعجزه وفقره وعدم قدرته على تحصيل مصالحه ودفع الأضرار عن نفسه كما قال موسى (رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير) لما فى ذلك من اظهار التضرع والمسكنة والافتقار لله الذى هو حقيقة كل عبد .

ومنها : أن الحياء والمكافأة على الاحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فانه لا يلام على ذلك ولا يخل باخلاصه وأجره ، كما قبل موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذى لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة

ومنها جواز الاجارة على كل عمل معلوم فى نفع معلوم أو زمن مسمى ، وأن مرد ذلك إلى العرف ، وأنه تجوز الاجارة وتكون المنفعة البضع ، كما قال صاحب مدين (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين) الآية . وأنه يجوز للانسان أن يخطب الرجل لابنته ونحوها ممن هو ولى عليها ولا نقص فى ذلك ، بل قد يكون نفعاً وكمالا ، كما فعل صاحب مدين مع موسى

ومنها قوله (إن خير من استأجرت القوى الأمين) هذان الوصفان بهما تمام الأعمال كلها ، فكل عمل من الولايات أو من الخدمات أو من الصناعات أو من الأعمال التى القصد منها الحفظ والمراقبة على العمال والأعمال إذا جمع الانسان الوصفين ، أن يكون قوياً على ذلك العمل بحسب احوال الأعمال ، وأن يكون مؤتمناً عليه ، تم ذلك العمل وحصل مقصوده وثمرته ، والخلل والنقص سببه الاخلال بهما أو بأحدهما .

ومنها من أعظم مكارم الاخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومعامل وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل عن العامل لقوله (وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) وفيه أنه لا بأس أن يرغب المعامل فى معاملته بالمعاوضات

والاجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة بشرط أن يكون صادقاً فى ذلك

ومنها جواز عقد المعاملات من اجارة وغيرها بغير اشهاد لقوله (والله على ما نقول وكيل) وتقدم أن الاشهاد تنحفظ به الحقوق، وتقل المنازعات، والناس فى هذا الموضع درجات متفاوتة وكذلك الحقوق

ومنها الآيات البينات التى أيد الله بها موسى من انقلاب عصاه التى كان يعرفها (حية تسعى) ثم عودها سيرتها الأولى، وأن يده إذا أدخلها فى جيبه ثم أخرجها صارت بيضاء من غير سوء للناظرين؛ ومن رحمة الله وحمايته لموسى وهارون من فرعون وملئه، ومن انفلاق البحر لما ضربه موسى بعصاه فصار اثنى عشر طريقاً وسلكه هؤلاء فنجوا، وقوم فرعون فهلكوا، وغير ذلك من الآيات المتتابعات التى هى براهين وآيات لمن رآها وشاهدها، وبراهين لمن سمعها، فانها نقلتها معظم مصادر اليقين، الكتب السماوية، ونقلتها القرون كلها، ولم ينكر مثل هذه الآيات إلا جاهل مكابر زنديق، وجميع آيات الأنبياء بهذه المثابة.

ومنها أن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أُخر أو وجود موانع تعوقها هى من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شىء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافى ما جعل الله فى هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا؛ فان سنن الله فى جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان :

أحدهما : وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه؛ وهذا القسم أيضا مندرج فى قدرة الله وقضائه، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة الله فى خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها؛ ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التى رتبت على الأعمال شرعاً ولا قدراً، وهذه توجب للعبد أن يجد ويجتهد فى الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه فى تيسيرها وتيسير أسبابها وآلاتها وكل ماتتوقف عليه

القسم الثانى : حوادث معجزات الأنبياء التى تواترت تواتراً لا يتواتر مثله فى جميع الأخبار وتناقلتها القرون كلها، وكذلك مايكرم الله به عباده من اجابة الدعوات وتفريج الكربات وحصول

المطالب المتنوعة ودفع المكاره التى لاقدرة للعبد على دفعها ، والفتوحات الربانية والالهامات الالهية والانوار التى يقذفها الله فى قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم المتنوعة مالا يدرك بمجرد الطلب وفعل السبب ، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لاعدائهم وهو مشاهد فى كثير من الأوقات ، فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم فى الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها ، وإنما هى حوادث قدرها الرب العظيم الذى هو على كل شىء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق ، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول اليها بوجه من الوجوه ، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم ، الاولون منهم والآخرون ، وبها يعرف عظمة البارى ، وأن نواصى العباد بيده ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل ، كما يعرف أيضاً بالقسم الأول ، وكما أنه لاسبيل إلى العباد فى هذه الدار إلى ادراك كنه صفات اليوم الآخر وكنه ما فى الجنة و النار ، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب ، ولا سبيل إلى أهل هذا الكون الارضى للوصول إلى العالم السماوى ، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وايجاد الأرواح فى الجمادات ، فكذلك هذا النوع العظيم من حوادث الكون ، وإنما أطلنا الكلام على هذه المسألة وإن كانت تستحق من البسط أكثر من هذا لأمرين .

أحدهما : أن الزنادقة المتأخرين الذين أنكروا وجود البارى وأنكروا جميع ما أخبرت به الرسل والكتب السماوية من أمور الغيب ، ولم يثبتوا من العلوم إلا ما وصلت اليه حواسهم وتجاربهم القاصرة على بعض علوم الكون ، وأنكروا ما سوى ذلك ، وزعموا أن هذا العالم وهذا النظام الموجود فيه لا يمكن أن يغيره مغير ، أو يغير شيئاً من أسبابه ، وأنه وجد صدفة من غير ايجاد موجد ، وأنه آلة تمشى بنفسها وطبيعتها ، ليس لها مدبر ولا رب ولا خالق ، وهؤلاء جميع أهل الاديان يعرفون مكابرتهم ومباهتتهم لأنهم كما عدموا الدين بالكلية فقد اختلت عقولهم الحقيقة ، إذ أنكروا أجلى الحقائق وأوضحها ، وأعظمها براهين وآيات ، وتاهوا بعقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة ، هؤلاء أمرهم معلوم ولكن ..

الأمر الثانى : أن بعض أهل العلم العصريين الذين يتظاهرون بنصر الاسلام ، والدخول مع هؤلاء الزنادقة فى الجدال عنه يريدون باجتهادهم أو اغترارهم أن يطبقوا السنن الالهية ؛ وأمور الآخرة على ما يعرفه العباد بحواسهم ويدركونه بتجاربهم ، فحرفوا لذلك المعجزات ، وأنكروا الآيات البينات ، ولم يستفيدوا إلا الضرر على أنفسهم وعلى من قرأ كتاباتهم فى هذه المباحث ؛ إذ ضعف إيمانهم بالله بتحريفهم لمعجزات الأنبياء تحريفاً يؤول إلى انكارها وانكارهم هذا النوع العظيم من قضاء الله وقدره ، وضعف إيمان من وقف على كلامهم ممن ليست له بصيرة ولا عنده من

العلوم الدينية ما يبطل هذا النوع ، ولم يحصل ما زعموه من جلب الماديين إلى الهدى والدين ، بل زادوهم إغراء فى مذاهبهم ، لما رأوا أمثال هؤلاء يحاولون ارجاع النصوص الدينية ومعجزات الانبياء وأمور الغيب إلى علوم هؤلاء القاصرة على التجارب والمدركات بالحواس ، فياعظم المصيبة ويا شدة الجرم المزوق ؛ ولكن ضعف البصيرة والاعجاب بزنادقة الدهريين أوجب الخضوع لأقوالهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومنها : أن من أعظم العقوبات على العبد أن يكون إماماً فى الشر وداعياً اليه ؛ كما أن من اعظم نعم الله على العبد أن يجعله إماماً فى الخير هادياً مهدياً ، قال تعالى فى فرعون وملئه (وجعلناهم أئمة يهدون الى النار)وقال(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا)

ومنها : ما فى هذه القصة من الدلالة على رسالة محمد ﷺ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبراً مفصلا مطابقاً وتأصيلا موافقاً ، قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين ، وهو لم يحضر فى شىء من تلك المواضع ولا درس شيئاً عرف به أحوال هذه التفصيلات ، ولا جالس وأخذ عن أحد من أهل العلم ، إن هو إلا رسالة الرحمن الرحيم ، ووحى أنزله عليه الكريم المنان لينذر به العباد أجمعين . ولهذا يقول فى آخر هذه القصة (وما كنت بجانب الطور ، وما كنت بجانب الغربى إذ أوحينا إلى موسى ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين) الآية . وهذا نوع من أنواع براهين رسالته

ومنها : ذكر كثير من أهل العلم ؛ انه يستفاد من قوله تعالى عن جواب موسى لربه لما سأله عن العصا فقال(وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى) الآية ، استحباب استصحاب العصا لما فيه من هذه المنافع المعينة والمجملة فى قوله (مآرب أخرى) وانه يستفاد منها أيضا الرحمة بالبهائم والاحسان اليها والسعى فى إزالة ضررها .

ومنها : أن قوله جل ذكره (أقم الصلاة لذكرى) أى إن ذكر العبد لربه هو الذى خلق له العبد وبه صلاحه وفلاحه ،وأن المقصود من اقامة الصلاة اقامة هذا المقصود الأعظم ، ولولا الصلاة التى تتكرر على المؤمنين فى اليوم والليلة لتذكرهم بالله ، و يتعاهدون فيها قراءة القرآن والثناء على الله ودعائه والخضوع له الذى هو روح الذكر ، لولا هذه النعمة لكانوا من الغافلين . وكما أن الذكر هو الذى خلق الخلق لأجله ، والعبادات كلها ذكر لله ، فكذلك الذكر يعين العبد على القيام بالطاعات وإن شقت ، ويهون عليه الوقوف بين يدى الجبابرة ، ويخفف عليه الدعوة إلى الله ، قال تعالى فى هذه القصة (كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً) وقال (اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) .ومنها : إحسان موسى ﷺ على أخيه هارون إذ طلب من ربه أن يكون نبياً معه ، وطلب المعاونة على الخير والمساعدة عليه إذ قال (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) الآيات .

ومنها : أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى اقامة الدعوة ، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وأن اللثغة لاعيب فيها إذا حصل الفهم للكلام ، ومن كمال أدب موسى مع ربه أنه لم يسأل زوال اللثغة كلها ؛ بل سأل ازالة ما يحصل به المقصود .

ومنها : أن الذى ينبغى فى مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم : الرفق والكلام اللين الذى يحصل به الافهام بلا تشويش ولا غلظة ، وهذا يحتاج اليه فى كل مقام ، لكن هذا أهم المواضع . وذلك لأنه الذى يحصل به الغرض المقصود ، وهو قوله (لعله يتذكر أو يخشى)

ومنها : أن من كان فى طاعة الله مستعيناً بالله واثقاً بوعد الله راجياً ثواب الله ، فان الله معه ومن كان الله معه فلا خوف عليه ، لقوله تعالى (لا تخافا) ثم علله بقوله (إننى معكما أسمع وأرى) وقال تعالى (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

ومنها : أن أسباب العذاب منحصرة فى هذين الوصفين (إنا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى كذب خبر الله وخبر رسله ، وتولى عن طاعة الله وطاعة رسله ، ونظيرها قوله تعالى (لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى)

ومنها : أن قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) استوعب الله بها الأسباب التى تدرك بها مغفرة الله

أحدها : التوبة ، وهو الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً الى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ، وهى تجبّ ما قبلها من الذنوب صغارها وكبارها .

الثانى : الايمان ، وهو الاقرار والتصديق الجازم العام بكل ما أخبر الله به ورسوله ، الموجب لأعمال القلوب ، ثم تتبعها أعمال الجوارح ، ولا ريب أن مافى القلب من الايمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر الذى لا ريب فيه ، أصل الطاعات وأكبرها وأساسها ، ولا ريب أنه بحسب قوته يدفع السيئات ، يدفع مالم يقع فيمنع صاحبه من وقوعه ، ويدفع ما وقع بالاتيان بما ينافيه وعدم اصرار القلب عليه ، فان المؤمن ما فى قلبه من الايمان ونوره لا يجامع المعاصى .

والثالث : العمل الصالح ، وهذا شامل لأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأقوال اللسان والحسنات يذهبن السيئات .

الرابع : الاستمرار على الايمان والهداية والازدياد منها ، فمن كمل هذه الأسباب الاربعة فليبشر بمغفرة الله العامة الشاملة . ولهذا أتى فيه بوصف المبالغة فقال (وإنى لغفار) ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد ، مع أن فيها فوائد كثيرة للمتأملين .

(قصة يونس صلى الله عليه وسلم)

وهو من أنبياء بنى اسرائيل العظام ، بعثه الله إلى أهل نينوى - من أرض الموصل - فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه ، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا ، فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذى ينبغى ، ولكنه أبق مغاضباً لهم . وهم لما ذهب نبيهم ألقى فى قلوبهم التوبة إلى الله والانابة بعد ما شاهدوا مقدمات العذاب ، فكشف الله عنهم العذاب . والظاهر أن يونس علم انكشاف العذاب عنهم واستمر فى ذهابه عنهم ، ولهذا قال تعالى (إذ ذهب مغاضباً) وقال تعالى (إذ أبق إلى الفلك المشحون) فركب فى سفينة موقرة من الركاب والأحمال ، فلما توسطوا البحر شارفت على الغرق ودار الامر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ماتخف السفينة فيسلم الباقون ، فاختاروا الاخير لعدلهم وتوفيقهم فاقترعوا فأصابت القرعة اناسا منهم ، ومنهم يونس ﷺ ، ولهذا قال (فكان من المدحضين) أى المغلوبين فى القرعة ، فألقوا فابتلعه حوت فى البحر ابتلاعاً ، لم يكسر له عظماً ولم يمضغ له لحماً فلما صار فى جوف الحوت ، فى تلك الظلمات نادى (لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) فأمر الله الحوت أن تلقيه بالعراء ، فخرج من بطنها كالفرخ الممعوط من البيضة فى غاية الضعف والوهن ، فلطف الله به وأنبت عليه شجرة من يقطين فأظلته بظلها الظليل حتى قوى واشتد ، وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم ويدعوهم ، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين .

وفى هذه القصة عتاب الله ليونس (ص) اللطيف وحبسه فى بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس . ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه فكثرة أتباع الانبياء من جملة فضائلهم .

وفيها استعمال القرعة عند الاشتباه فى مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها ، وفى عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذى هو أكبر منه ، ولا ريب أن القاء بعضهم وإن كان فيه ضرر ، فعطب الجميع إذا لم يلق أحد أعظم .

وفيها أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه فى حال الرخاء ، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه فى حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها ، ولهذا قال فى قصة يونس (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون)

وفيها ما قاله النبى ﷺ : دعوة أخى ذى النون ما دعى بها مكروب إلا فرج الله عنه (لا إله الا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين)

وفيها أن الايمان ينجى من الأهوال والشدائد لقوله تعالى (وكذلك ننجى المؤمنين) أى إذا وقعوا فيها لايمانهم .

قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

وكانا من أعظم أنبياء بنى اسرائيل ، وجمع الله لهما بين النبوة والحكمة والملك العظيم القوى أما داود ﷺ فكان من جملة العسكر الذين مع طالوت الذى اختاره أحد أنبياء بنى اسرائيل ملكا على بنى اسرائيل لشجاعته وقوته وعلمه فى السياسة ونظام الجيوش ، كما قال تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طلوت واستعانوا بالله تفوق داود ﷺ على الجميع بالشجاعة العظيمة ، فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت وحصلت الهزيمة على بقيتهم ونصر الله بنى اسرائيل ذلك النصر . نبأ الله داود وأعطاه الحكمة والملك القوى ، كما قال تعالى (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وكان قد أعطاه الله قوة فى العبادة وبصيرة ، ووصفه الله بهذين الوصفين اللذين بهما كمال العبد فقال (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايدى إنه أواب) فوصفه بالقوة العظيمة على ما أمر الله ، وبأنه أواب لكمال معرفته بالله ، وكان الله تعالى قد سخر له الطير والجبال تسبح الله معه ، وكان قد أعطى من حسن الصوت ورخامته ما لم يؤت أحد من العالمين . وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوما ، وكان إذا لاقى العدو رأى الخلق من شجاعته ما يعجب الناظرين ، وقد ألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع الواقية فى الحروب ، وهو أول من صنع الدروع السردية ذوات الحلق التى يحصل فيها الوقاية وهى خفيفة المحمل ؛ وقد عاتبه الله بسبب ذنب أذنبه بأن أرسل اليه ملكين بصورة خصمين ، فدخلوا عليه وهو فى محرابه ففزع منهم ؛ لأنهم دخلوا عليه فى وقت لا يدخل عليه فيه أحد وتسوروا المحراب وقالوا (لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط) ثم قص عليه أحدهما القصة فقال : إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة - والمراد بها المرأة - ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها ؛ وعزنى فى الخطاب ، أى صار خطابه أقوى منى فغلبنى . فقال داود عليه السلام : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وان كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وعلم داود أنه هو المراد بهذه القضية فانتبه لذلك (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) فمحى الله عنه الذنب وعاد بعد التوبة أحسن مما كان قبل ذلك ، حصل له القرب العظيم من ربه وحسن العاقبة ؛ وقال الله له (يا داود إنا جعلناك

خليفه فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية .

وأما سليمان بن داود ﷺ فان الله أعطاه النبوة وورث أباه علمه ونبوته وملكه ، وزاده الله ملكا عظيما لم يحصل لأحد قبله ولا بعده ، سخر الله له الريح تجرى بأمره وتدبيره برخاء ؛ أى بسهولة حيث أراد ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، وتذهب وتجىء بأمره إلى حيث أراد ، وسخر له من الجنود من الانس والجن والطير ، فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب ، وعلمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات ، فكانت تخاطبه ويفهم ما تكلم به ، ولهذا خاطب الهدهد وراجعه تلك المراجعة ، وسمع النملة إذ نادت فى قومها (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فحذرت وأمرت بما يقى من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده ، فلهذا ابتسم سليمان ضاحكا من قولها وقال (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين)

ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه ، مع أنه قد جعل لهم مدبرين ، فان قوله (فهم يوزعون) دليل على ذلك ، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هى لازمة لمراكزها فقال (مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها ، فان هذا خلاف اللفظ القرآنى ، فان الله لم يقل وطلب الهدهد ، بل قال : (وتفقد الطير) ثم توعده لمخالفته لأمره ، ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال (لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ؛ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ففى هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة . أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية وأن ملكتهم امرأة ، وأنها قد أعطيت من كل شىء يحتاج الملك اليه وأن لها عرشاً عظيما ، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم ، وأنهم مشركون يعبدون الشمس ، وأنكر الهدهد عليهم غاية الانكار ، هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده ، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك ، وتبغض الكفار المكذبين ، وتدين الله بذلك ، فقال له سليمان (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب

بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) فذهب بالكتاب فألقاه فى حجر المرأة ملكة سبأ ، فلما قرأته عظمته جداً وأرعبت منه فزعاً وجمعت رؤساء قومها فقالت (يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو علىّ واءتونى مسلمين) كتاب مختصر جامع فيه المقصود كله ، قالت (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) أى أشيروا علىّ ، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها (ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) قالوا ، نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين) أى مستعدون لما تقولين حرباً وسلما ، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين ، فمن عزمها وحزمها وبعد نظرها عدلت عن الحرب واختارت السلم ، لكن بصورة حازمة ، فقالت سأهدى له هدية حاضرة (فناظرة بم يرجع المرسلون) إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا ، فربما أن الهدية كسرت سورته وفلت عزيمته وسالمناو سالمناه من بعيد ، وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر . فأرسلت أناساً ذوى عقل وحزم وخبرة ومعرفة ، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال (أتمدونن بمال ! فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) فبين لهم أنه لا غرض له فى الدنيا ، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله فى الاسلام ، ثم وصى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب ، وقال للرسول (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وعلم سليمان أنهم سينقادون ويسلمون ، فقال لأهل مجلسه (أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين) وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إيابا : ثم قال الذى عنده علم من الكتاب (أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين إنه رجل صالح قد أعطى الاسم الأعظم الذى إذا دعى الله به أجاب ، وأنه دعى الله فأتى به قبل أن يرتد اليه طرفه ، ويحتمل أن الذى عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التى سخرها الله لسليمان ، أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة .

وعلى كل فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم ، ولهذا لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك ، قال (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) فقال لمن حوله « نكروا لها عرشها » أى غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا « ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » وكان قد مدح له رأيها وعقلها فأحب أن يقف على الحقيقة ، فلما جاءت قيل (أهكذا عرشك ؟) وعرض عليها ، فلما رأته عرفته ورأت مافيه من التنكير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالين (كأنه هو) لم تقل هو لما فيه من التغيير ،

ولم تنف أنه هو لما كانت تعرفه ، فأتت بلفظ صالح للأمرين ، فعرف سليمان رجاحة عقلها . (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) إن كان هذا من كلام سليمان فمعناه اننا أخبرنا عن عقلها وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها لما سبرناها ، وإن كان الكلام كلام ملكة سبأ ، فانها تقول (وأوتينا العلم) عن ملك سليمان ، وأنه ملك نبوة ورساله وقوة هائلة من قبل هذه الحالة (وكنا مسلمين) مذعنين لما قاله سليمان بعدما تحققنا أمره ، فكأنه قيل مع عقلها هذا ورأيها السديد فكيف كانت تعبد غير الله ، وكيف اجتمع العقل وعبادة من لاينفع ولا يضر ، وإنما يضر من عبده .

حاصل الجواب قوله (وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين) أى العقائد التى نشأت عليها ، والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمن عليه باتباعه .

وكان له صرح من قوارير أجرى تحته الأنهار ، فكان من ينظر اليه يظنه ماء يجرى ، لأن الزجاج شفاف ، فلما قيل لها ادخلى الصرح . فرأته لجة وكشفت عن ساقيها . قال إنه صرح ممرد من قوارير . قالت (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت لله واتبعها قومها ، فيقال إن سليمان تزوجها ، فالله أعلم

ولما كانت الشياطين زمن سليمان قد سخرهم الله له وبلغه أنهم باجتماعهم بالانس يعلمونهم السحر فجمعهم وتوعدهم وأخذ كتبهم ودفنها ، فلما توفى سليمان جاءت الشياطين للناس وقالوا : إن ملك سليمان مشيد على السحر ، واستخرجوا الكتب التى دفنها ، وأشاعوا من إغوائهم للناس أنها مأخوذة من سليمان ، وأن سليمان ساحر ، وروج ذلك طائفة من اليهود ، فبرأ الله سليمان من هذا الأمر وبين أن السحر من العلوم الضارة فقال تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان) أى بتعليم السحر والرضاء به (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) الآية ، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمر الخلق بالايمان بجميع الرسل ويذكرهم بأوصافهم الجميلة وينزههم عما قاله الناس فيهم مما ينافى رسالتهم

وكان الله قد ابتلى سليمان وألقى على كرسيه جسداً ، أى شيطاناً عتاباً له على بعض الهفوات وارجاعاً له إلى كمال الخضوع لربه ، ولهذا قال تعالى (ثم أناب) إلى الله بقلبه ولسانه وبدنه بظاهره وباطنه فقال (رب اغفرلى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب) فاستجاب الله له دعاءه وأعطاه ما طلبه من مغفرة الذنب ، وأعطاه جميع ما طلب كما تقدم

وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم ، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال (وداود

وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) أى دخلت الغنم بستانهم ليلا فرعت زرعه وأشجاره ، فحكم داود بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث ، لظنه أن الذى تلف من الحرث يقابل قيمتها ، ثم رفعت القضية إلى سليمان ، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقى والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفشها ، ويدفع له صاحب الغنم الغنم ينتفع بدرها ولبنها ودهنها وصوفها ومغلها مقابلة ما كان بصدد أن ينتفع بحرثه فى هذه المدة ، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث ، فلهذا قال تعالى (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)

ونظير هذه القضية حكم داود وسليمان بين المرأتين اللتين خرجتا ومع كل واحدة ابنها فعدا الذئب على ابن الكبرى ، فادعت الكبرى على الصغرى أن الذئب أكل ابن الصغرى ، وأن الذى سلم من الذئب ابنها ، والمرأة الصغرى أنكرت وقالت : بل الذئب أكل ابن الكبرى فتحاكما إلى داود فلم ير لكل منهما بينة إلا قولها . رأى أن يحكم به للكبرى اجتهاداً ورحمة بها لكبرها ، وأن الصغرى فى مستقبل عمرها سيرزقها الله ولداً بدله ، ثم رفعت القضية إلى سليمان فقال لهما : ائتونى بالسكين أشقه بينكما . فرضيت الكبرى . وقالت الصغرى لما دار الأمر بين تلفه أو بقائه بيد غيرها وهو أهون الأمرين عليها : هو ابنها يا نبى الله ، فعلم سليمان بهذا الأمر الطبيعى الذى هو من أقوى البينات أنه ليس ابناً للكبرى لكونها رضيت بشقه واتلافه ، وأن دعواها على الأخرى انما حملها عليه الحسد ، وأنه ابن الصغرى حين فزعت من شقه إلى التنازل عن دعواها ، فقضى به سليمان للصغرى ، ولا ريب أن استخراج الصواب فى القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال، من الفهم الذى يخص الله به من يشاء .

فصل فى بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه ، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وانابتهم مايشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذى تنافسوا فى قربه والصبر على أذى قومه ، ولهذا ذكر تعالى فى أول سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به ، قال بعدها (اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيدى انه أواب) الآيات

ومنها أن قوله (ذا الأيدى انه أواب) مدح عظيم من الله لهذين الوصفين ، قوة القلب والبدن على طاعة الله والانابة باطناً وظاهراً الى الله المستلزمة لمحبته وكمال معرفته ، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب اتباعهم ، والثناء من الله عليهما يقتضى الحث

على جميع الأسباب التى تُعين على القوة والانابة ؛ وأن يكون العبد رجاعاً إلى الله فى حال السراء والضراء ، وفى جميع الأحوال .

ومنها ما أكرم الله به نبيه داود (ص) من حسن الصوت ورخامته ، وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه ، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية

ومنها أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس فى المقالات والمذاهب وفى الخصومات والمشاحنات . كما قال تعالى (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)

ومنها كمال اعتناء المولى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الهفوات بفتنة إياهم وابتلائهم بما يزول عنهم المحذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى كما جرى لداود وسليمان

ومنها أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله . فان الله أمر بطاعتهم مطلقاً ، ومقصود الرسالة لايحصل إلا بذلك ؛ وقد يجرى منهم أحياناً بعض مقتضيات الطبيعة من المخالفات ، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والانابة

ومنها أن داود فى أغلب أوقاته ملازماً محرابه لخدمة ربه وله وقت يجلس فيه لحوائج الخلق فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده

ومنها أنه ينبغى استعمال الأدب فى الدخول على الناس ، خصوصاً الحكام والرؤساء ، فان الخصمين لما دخلا على داود فى حالة غير معتادة ، ومن غير الباب فزع منهم ، واشتد عليه ذلك ؛ ورآه غير لائق بالحال

ومنها أنه لايمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله مالا ينبغى .

ومنها كمال حلم داود ، فانه ما غضب منهما حين جاءاه بغير استئذان ولا انتهرهما ولا وبخهما

ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتنى أو يا ظالم ونحوه أو يا باغى لقوله (بغى بعضنا على بعض)

ومنها أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز ، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه ، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح ، فان داود لم يشمئز من قول الخصمين (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط) بل حكم بالحق الصرف

ومنها أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب والمعاملين وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادى ، وبغى بعضهم على بعض ، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالايمان والعمل الصالح ، وأن هذا من أقل شىء فى الناس

ومنها إكرام الله لداود وسليمان بالزلفى عنده وحسن المآب ، فلا يتوهم أحد أن ماجرى منهما منقص لدرجتهما عند الله ، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين ، أنه إذا غفر لهم وازال عنهم أثر الذنوب ، أزال الآثار المترتبة عليها حتى مايقع فى قلوب الخلق ، وماذلك على فضل الكريم بعزيز

ومنها أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية تولاها رسل الله وخواص خلقه ، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى ، فالحكم بالحق يقتضى العلم بالأمور الشرعية والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية ادخالها فى الأحكام الشرعية الكلية ، فالجاهل بواحد من هذه الأمور لايحل له الاقدام على الحكم بين الناس

ومنها أن سليمان يعد من فضائل داود ومن منن الله عليه ، قال تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب) وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان

ومنها كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار يمن عليهم بالاخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ثم يثنى عليهم بها ويرتب عليها من الثواب أنواعاً منوعة ، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها

ومنها أن سليمان قدم محبة الله على محبة كل شيء ، وأتلف الخيل التى ألهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب

ومنها أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشئوم فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له

ومنها أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد - التى ألهته عن طاعة الله - سخر الله له الريح والشياطين : أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

ومنها أن تسخير الشياطين وتسخير الريح على الوجه الذى سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان ، ولهذا لما رأى النبى (ص) أن يأخذ الشيطان الذى تفلت عليه ليلة فيربطه فى سارية المسجد قال : ذكرت دعوة أخى سليمان فتركته

ومنها أن سليمان كان ملكا نبياً مباح له أن يفعل مايريد ، ولكنه لكماله لايريد إلا الخير والعدل ، وهذا بخلاف النبي العبد ، فانه لا يكون له ارادة مستقلة ، بل ارادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر ، كحال نبينا محمد ﷺ

ومنها أن الله أعطى سليمان ملكا عظيماً ، فيه أمور لايمكن أن تدرك بالأسباب ، وإنما هى من تقدير الملك الوهاب ، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره ، وتسخير الشياطين ، وكون جنوده من الانس والجن والطير ، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الاخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات ، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه فى هذه القصة ، وكذلك الذى عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد اليه طرفه ، وهذه آيات أنبياء ، فلهذا مهما بلغ الخلق فى الترقى فى علوم الطبيعة

والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان

ومنها أنه ينبغى للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين ولا يكتفوا بمجرد السؤال ، بل يختبرونهم ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم ؛ كما فعل سليمان مع ملكة سبأ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحته ولم يكتف بالسؤال ، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة ، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة ، وتمام الملك أن يدبر دفته الرجال الكاملون

قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

كان أيوب من أنبياء بنى اسرائيل ومن الأصفياء الكرام ، وقد ذكره الله فى كتابه وأثنى عليه بالخصال الحميدة عموماً ، وبالصبر على البلاء خصوصاً ، فان الله تعالى ابتلاه بولده وأهله وماله ، ثم بجسده ، فأصابه من البلاء ما لم يصب أحداً من الخلق ، فصبر لأمر الله ولم يزل منيباً لله .

ولما تطاول به المرض العظيم ، ونسيه الصاحب والحميم نادى ربه (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له (اركض برجلك)فركض، فنبعت بركضته عين ماء بارد ، فقيل له : اشرب منها واغتسل : ففعل ذلك فأذهب الله ما فى باطنه وظاهره من البلاء ، ثم أعاد الله له أهله وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً ؛ وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين وعبرة للمعتبرين ، وكان فى مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة فى بعض شيء ، فحلف أن يجلدها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنها ، وقيل له : خذ بيدك ضغثاً حزمة حشيش أو علف أو شماريخ أو نحوها فيها مائة عود فاضرب به ولا تحنث ، أى ينحل بذلك يمينك . وفى هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا ؛ وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذى لا بد من وفائه ، وفى هذا دليل على أن من لا يحتمل اقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك ، لأن الغرض التنكيل ليس الاتلاف والاهلاك

قصة الخضر مع موسى ، ومحلها فى أثناء قصص موسى

وذلك أن موسى ﷺ قام ذات يوم فى بنى اسرائيل مقاماً عظيماً ، علمهم فيه علوماً جمة ، وأعجب الناس بكمال علمه ، فقال له قائل : يانبي الله ، هل يوجد أو هل تعلم فى الأرض أحداً أعلم منك ؟ فقال لا ، بناءاً على ما يعرفه ، وترغيباً لهم فى الاخذ عنه ، فأخبره الله أن له عبداً فى مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى وإلهامات خارجة عن الطور المعهود ، فاشتاق موسى إلى لقيه رغبة فى الازدياد من العلم ، فطلب من الله أن يأذن له فى ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوتاً وقيل له : إذا فقدت الحوت فهو فى ذلك المكان ، فذهب فوجده ، وكان ماقص الله من نبأهما فى

سورة الكهف (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا - إلى قوله - ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا)

وفى هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شىء كثير ننبه على بعضه بعون الله ونذكر المهم منه

فمنها ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه ومشروعية الرحلة فى طلبه ؛ وأنه أهم الأمور ، فان موسى رحل فى طلبه مسافة طويلة ولقى فى ذلك النصب ، وترك الاقامة عند بنى اسرائيل لتعليمهم وارشادهم ، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك

ومنها البداءة فى العلم بالأهم فالأهم ؛ فان زيادة علم الانسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالا بالتعليم فقط ، بل يتعلم ليعلم

ومنها جواز أخذ الخادم فى السفر والحضر لكفاية المؤن وطلب الراحة ، كما فعل موسى صلى الله عليه وسلم

ومنها أن المسافر بطلب العلم أو الجهاد أو غيرهما من أسفار الطاعة ، بل وكذلك غيرهما إذا اقتضت المصلحة الاخبار بمطلبه وأين مراده ، فانه أكمل من كتمه ؛ فان فى اظهاره من فوائد الاستعداد له عدته ، واتيان الأمر على بصيرة والاعلان بالترغيب لهذه العبادة الفاضلة لقول موسى (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً) ولما غزا ﷺ تبوك أخبر الناس بمقصده ، مع أنه كان فى الغالب إذا أراد غزوة ورّى بغيرها تبعاً للمصلحة فى الحالتين

ومنها إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، وكذلك النقص ، لقول فتى موسى (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره)

ومنها جواز اخبار الانسان عما يجده مما هو مقتضى الطبيعة البشرية من نصب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا)

ومنها أنه ينبغى أن يتخذ الانسان خادما ذكيا فطناً كيسا ليتم له أمره الذى يريد

ومنها استحباب اطعام الانسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعا لأن ظاهر قوله (آتنا غداءنا) أنه للجميع . ومنها أن المعونة تنزل على العبد بحسب قيامه بالأمر الشرعى ، وأن ما وافق رضا الله يعان عليه مالا يعان على غيره لقوله (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) والاشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين ، وأما الأول فلم يشتك منه مع طوله

ومنها أن ذلك العبد الذى لقياه ليس نبيا ، بل هو عبد صالح عالم ملهم ، لأن الله ذكره بالعلم والعبودية الخاصة والأوصاف الجميلة ، ولم يذكر معها أنه نبى أو رسول ، وأما قوله فى آخر القصة (وما فعلته عن أمرى) فانه لايدل على انه نبى ، وإنما يدل على الالهام والتحديث ، وذلك يكون

لغير الأنبياء ، قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) (وأوحينا إلى أم موسى) الآية .

ومنها أن العلم الذى يعلمه الله للعبد نوعان : علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجدّه ، وعلم إلهى لدنى يهبه الله لمن يمن عليه من عباده ، لقوله (وعلمناه من لدنا علما) فالخضر أعطى من هذا النوع الحظ الأوفر . ومنها التأدب مع المعلم والتلطف فى خطابه لقول موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، وأنك هل تأذن لى أم لا ؟ واظهار حاجته إلى المعلم وأنه يتعلم منه ومشتاق إلى ما عنده ، بخلاف حال أهل الكبر والجفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى علم المعلم ، فلا أنفع للمتعلم من اظهار الحاجة إلى علم المعلم وشكره على تعليمه

ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه ، فان موسى بلا ريب أفضل من الخضر

ومنها تعلم العالم الفاضل للعلم الذى لم يتمهر فيه ممن مهر فيه ، وإن كان دونه فى العلم درجات ، فان موسى من أكابر أولى العزم من الرسل الذين منحهم الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم ، ولكن فى هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه

ومنها أنه يتعين اضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته ، والاعتراف بذلك وشكر الله عليه لقوله (تعلمن مما علمت رشدا)

ومنها أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير ، وكل علم فيه رشد وهداية لطريق الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة إلى ذلك ، فانه من العلم النافع ، وما سوى ذلك فاما أن يكون ضاراً أو ليس فيه فائدة لقوله (أن تعلمن مما علمت رشدا)

ومنها أن من ليس له صبر على صحبة العالم ، ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم ، فانه قاصر ليس بأهل لتلقى العلم ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى اليه ، فان الخضر اعتذر عن موسى انه لا يصبر على علمه الخاص

ومنها أن مما يعين على الصبر على الأشياء إحاطة العبد بها علما وبمنافعها وثمراتها ونتائجها ، فمن لا يدرى هذه الأمور يصعب عليه الصبر لقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا)

ومنها الأمر بالتأنى والتثبت وعدم المبادرة على الحكم على الأشياء حتى يعرف ما يراد منه وما هو المقصود .

ومنها مشروعية تعليق ايجاد الأمور المستقبلة على مشيئة الله لقوله (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمرا) وإن العزم على الشىء ليس بمنزلة فعله ، فموسى عزم على الصبر ولكن لم يفعل .

ومنها أن المعلم إذا رأى من المصلحة أن يخبر المتعلم أن يترك الابتداء فى السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذى يوقفه عليها ، فان المصلحة تتبع ، كما إذا كان فهمه قاصراً أو نهاه

عن التدقيق الشديد أو الأسئلة التى لا تتعلق بالموضوع . ومنها جواز ركوب البحر إذا لم يكن فى ذلك خطر .

ومنها أن الناسى غير مؤاخذ ، لافى حق الله ولا فى حق العباد ، إلا إن ترتب على ذلك اتلاف مال ، ففيه الضمان حتى على الناسى لقوله (لا تؤاخذنى بما نسيت)

ومنها أنه ينبغى العبد أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم ولا ينبغى له أن يكلفهم مالا يطيقون أو يشق عليهم أو يرهقهم ، فان هذا داع إلى النفور ، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر .

ومنها أن الأمور تجرى على ظاهرها ، وتعلق بها الاحكام الدنيوية فى كل شىء ، فان موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام بحسب أحكامها العامة ، ولم يلتفت إلى الاصل الذى أصلاه هو والخضر أنه لا يسأله ولا يعترض عليه حتى يكون الخضر هو المبتدىء .

ومنها فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة ، وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف ، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما ؛ فان قتل الغلام الصغير شر ، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً ؛ وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان فى ظاهر الحال أنه خير ، فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة، فكان إلهامه الباطنى بمنزلة البينات الظاهرة فى حق غيره

ومنها القاعدة الكبيرة الأخرى ، وهى أن عمل الانسان فى مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن ، حتى ولو ترتب عليه اتلاف بعض المال ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم ، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد مالا حصر له .

ومنها أن العمل يجوز فى البحر كما يجوز فى البر ، لقوله (يعملون فى البحر)

ومنها أن القتل من أكبر الذنوب .

ومنها أن العبد الصالح يحفظه الله فى نفسه وفى ذريته وما يتعلق به ، لقوله (وكان أبوهما صالحا) وأن خدمة الصالحين وعمل مصالحهم أفضل من غيرهم لأنه علل أفعاله بالجدار بقوله (وكان أبوهما صالحا)

ومنها استعمال الأدب مع الله حتى فى الألفاظ ، فان الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله (فأردت أن أعيبها) وأما الخير فأضافه إلى الله لقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) وقال ابراهيم (وإذا مرضت فهو يشفينى) وقالت الجن (وإنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا) مع أن الكل بقضاء الله وقدره

ومنها أنه ينبغى للعبد أن لا يفارق صاحبه فى حالة من الأحوال ويترك صحبته ، بل بقى له

بذلك حتى لايجد للصبر محلا ، وأن موافقة الصاحب لصاحبه فى غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها ، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة

﴿ قصة ذو القرنين ﴾

وكان ذو القرنين ملكا صالحاً ، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره ، فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه فى المشارق والمغارب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله ، ولهذا قال (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) أى من بعض أخباره ، ومن المعلوم أن ما قصه الله فى كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد ، فأخبر أنه أعطاه من كل شىء سببا يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح المخضع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات وجميع ما يحتاجه ، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التى أعطيها ، فما كل أحد يعطى الاسباب النافعة ، ولا كل من أعطيها يتبعها ويعمل بها .

أما ذو القرنين فانه تم له الامران أعطى سبباً فأتبع سببا ، فغزا بجيوشه الجرارة أدنى أفريقيه وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربى فوصل إلى محل إذا غربت الشمس (وجدها تغرب فى عين حمئة) أى رآها فى رؤية العين كأنها تغرب فى البحر ، والبحر لونه أسود كالحمئة ، والقصد أنه وصل إلى حيث منتهى الخف والحافر من بلاد أفريقيه ، ووجد فى ذلك المحل وتلك الاقطار قوماً منهم المسلم والكافر ، والبر والفاجر ، بدليل قوله (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) إما أن القائل له نبى من أنبياء الله أو أحد العلماء ، أو ان المعنى أنه بسبب قدرته كان مخيراً قدراً ، وإلا فمن المعلوم أن الشرع لا يسوى بين الامرين المتفاوتين فى الاحسان والاساءة فقال (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءاً الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح وعلى حسن تدبيره (ثم أتبع سببا) أى ثم عمل بالأسباب التى أوتيها بعدما أخضع أهل المغارب رجع يفتح الارض قطراً قطراً حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطىء البحر المحيط الهادى . وهذا منتهى ما وصل اليه الفاتحون (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) أى لا ستر لهم عن الشمس ، لاثياب ينسجونها ويلبسونها ، ولا بيوت يبنونها ويأوون اليها ، أى وجد هؤلاء القوم الذين فى أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التى تأوى إلى الغياض والغيران والاسراب منقطعين عن الناس ، وكانوا فى ذلك الوقت على هذه الحالة التى وصف الله ، والمقصود من هذا أنه وصل إلى ما لم يصل اليه أحد ، ثم كر راجعاً واتبع سببا ؛ يمكنه من مناهج البلاد

وتخضيع العباد قاصداً نحو الشمال (حتى إذا بلغ بين السدين) أى بلغ محلا متوسطاً بين السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض ، وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصله من تلك الفجوة ، وهى الريع إلى البحار الشرقية والغربية وهى فى بلاد الترك ، على هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنما اختلفوا : هل هى سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك فى أذر بيجان ، أم سلاسل جبال التاى أم الجبال المتصلة بالسور الصينى فى بلاد منغوليا وهو الظاهر ، وعلى الاقوال كلها ، فوجد عند تلك الفجوة التى بين سلاسل هذه الجبال قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، من بُعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم (فقالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض) وهم أمم عظيمة من نسل يافث بن نوح من العناصر التركية وغيرهم ، كما هو مذكور مفصل من أحوالهم ومشروح من صفاتهم (فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ . قال ما مكنى فيه ربى) من القوة والاسباب والاقتدار خير فأعينونى بقوة ؛ أى إن هذا بناء عظيم يحتاج فى الاعانة عليه إلى مساعدة قوية فى الأبدان (أجعل بينكم وبينهم ردما) ولم يقل سداً ، لأن الذى بنى فقط هو تلك الثنية والريع الواقع بين السدين الطبيعيين ، أى بين سلاسل تلك الجبال ، فدبرهم على كيفية آلاته وبنيانه فقال (آتونى زبر الحديد) أى اجمعوا لى جميع قطع الحديد الموجودة من صغار وكبار ولاتدعوا من الموجود شيئاً ، اركموه بين السدين ، ففعلوا ذلك حتى كان الحديد تلولا عظيمة موازنة للجبال ، ولهذا قال (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى الجبلين المكتنفين لذلك الردم قال (انفخوا حتى إذا جعله نارا قال : آتونى أفرغ عليه قطرا) أى أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلا هائلا متصلا بالسدين ، فحصل بذلك المقصود من عيث يأجوج ومأجوج ، ولهذا قال (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى يصعدوا ذلك الردم (وما استطاعوا له نقبا . قال هذا رحمة من ربى) أى ربى الذى وفقنى لهذا العمل الجليل والاثر الجميل ، فرحمكم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذى لا قدرة لكم عليه (فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء) أى هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل ، فاذا جاء ذلك الاجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون ، بل ومن وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها ، كما قال تعالى (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى من كل مكان مرتفع ، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء (ينسلون) أى يسرعون فيها غير مكترثين ولا حاجز يحجزهم ، فلفظة من كل حدب يشمل جميع المواضع والاقطار ؛ سهلها وصعبها ، منخفضها ومرتفعها ؛ وانما نص الله على المرتفعات لأن السهول والاماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى ، وقد ورد فى صفاتهم أحاديث فى الصحيحين تؤيد مافى هذه الآيات من صفاتهم

وأورد أصحاب السير والتواريخ الأول من صفاتهم وهيئاتهم آثاراً لا خطام لها ولا زمام شوشت أفكار أكثر الناس ومنعتهم من الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية وتطبيقها على الواقع ، فعليك بلزوم ما دل عليه الكتاب والسنة ودع ما سوى ذلك ، فان فيه الهدى والرشد والنور .

﴿ قصة عيسى وأمه ، وزكريا ويحيى عليهم السلام ﴾

كانت زوجة عمران - وهو من أكابر بنى اسرائيل ورؤسائهم وذوى المقامات العالية عندهم - نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما فى بطنها لبيت المقدس ، يكون خادماً لبيت الله معداً لعبادة الله ظناً أن الذى فى بطنها ذكراً ، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شاكية اليه الحال (رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى) أى ان الذكر الذى له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس (وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) فحصنتها بالله من عدوها هى وذريتها . وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها فى هذه الدنيا (فتقبلها ربها بقبول حسن) أى أن الله جبر أمها وصار لها عند ربها من القبول أعظم مما للذكور (وأنبتها نباتاً حسنا ، وكفلها زكريا) فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية ، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بنى اسرائيل فى ذلك الوقت فان أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم ، فاقترعوا وألقوا أقلامهم ، فأصابت القرعة زكريا رحمة به وبمريم ، فكفلها أحسن كفالة ، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه ، فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات ، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها ، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا ، قال أنى لك هذا ؟ فانه ليس لها كافل غير زكريا . قالت (هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أى رزقه تعالى يأتى بطرق معهودة وبطرق أخرى ، والله على كل شيء قدير

فحين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته ، فدعا الله أن يهب له ولداً يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده فى بنى اسرائيل ، فى تعليمهم وهدايتهم (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله) أى بعيسى عليه السلام (وسيداً) أى عظيما عند الله وعند الخلق لما جبله الله عليه من الأخلاق الحميدة والعلوم العظيمة ، والأعمال الصالحة (وحصوراً) أى ممنوعاً بعصمة الله وحفظه ووقايته من مواقعة المعاصى ، فوصفه الله بالتوفيق لجميع الخيرات والحماية من السيئات والزلات وهذا غاية كمال العبد ، فتعجب زكريا من ذلك وقال (أنى يكون لى ولد وامرأتى عاقر وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو على هين

وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وهذا أعجب من حملها وهى عاقر على كبرك ، فمن فرحه ورغبته العظيمة فى طمأنينة قلبه قال (رب اجعل لى آية) تدلنى على وجود الولد ، قال (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) (واذكر ربك بالعشى والابكار) وهذه آية كبرى ، يمنع من الكلام الذى هو أسهل ما يقدر عليه الانسان ، وهو سوىّ فلا يقدر أن يكلم أحداً إلا بالاشارة ومع ذلك لسانه منطلق بذكر الله وتسبيحه وتحميده ، فحينئذ تمت له البشارة من الله وعرف أنه لا بد أن يكون ، فولدت زوجته يحيى ، وأنشأه الله نشأة عجيبة ، فتعلم وهو صغير ، ومهر فى العلم وهو صغير ، ولهذا قال (وآتيناه الحكم صبياً) حتى قيل إن الله أيضاً نبأه وهو صغير ، وكما أعطاه الله العلم العظيم فقد منّ عليه بأكمل الصفات فقال (وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) ومضمون هذا وصفه بالقيام بحقوق الله وحقوق والديه وحقوق الخلق ، وان الله سيحسن له العواقب فى أحواله كلها

وأما مريم فانها انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . متجردة لعبادة ربها (فاتخذت من دونهم حجاباً) لئلا يشغلها أحد عما هى بصدده ، فأرسل الله لها الروح الأمين جبريل فى صورة بشر سوى من أكمل الرجال وأجملهم فظنت أنه يريدها بسوء ، فقالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) فتوسلت بالله فى حفظها وحمايتها ، وذكرته وجوب التقوى على كل مسلم يخشى الله فكان هذا الورع العظيم منها فى هذه الحالة التى يخشى منها الوقوع فى الفتنة ، ورفع الله بذلك مقامها ونعتها بالعفة الكاملة ، وأنها أحصنت فرجها ، فقال لها جبريل (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا) به وبك وبالناس (وكان امراً مقضيا) فلا تعجبى مما قدره وقضاه (فحملته فانتبذت) أى ابتعدت به عن الناس (مكانا قصيا) خشية الاتهام والأذية منهم (فأجاءها) أى ألجأها المخاض أى الطلق (إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) لما تعرفه مما هى متعرضة له من الناس ، وأنهم لا يصدقونها ، ولم تدر ما الله صانع لها (فناداها) الملك (من تحتها) وكانت فى مكان مرتفع ، وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أى نهراً جارياً (وهزى اليك بجذع النخلة) من دون أن تحوجك إلى صعود (تساقط عليك رطباً جنيا) أى طريا ناضجا (فكلى) من الرطب (واشربى) من السرى (وقرى عينا) بولادة عيسى ، وليذهب روعك وخوفك (فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً) أى سكوتا ، وكان معهوداً عندهم أنهم يتعبدون بالصمت فى جميع النهار ، ولهذا فسره بقوله (فلن أكلم اليوم إنسياً) فاطمأن قلبها وزال عنها ما كانت تجد .

ثم لما تعالت من نفاسها وأصلحت شأنها وقويت بعد الولادة (أتت به قومها تحمله) علناً غير هائبة ولا مبالية ، فلما رآه قومها وقد علموا أنه لا زوج لها جزموا أنه من وجه آخر فقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت اليه) كما أمرت بذلك . فقالوا منكرين عليها مقالتها لهم (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) فقال وهو فى تلك الحال له أيام يسيرة بعد ولادته (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً) فكان هذا الكلام منه فى هذه الحال من آيات الله وأدلة رسالته ، وأنه عبد الله لا كما يزعمه النصارى ، وحصل لأمه البراءة العظيمة مما يظن بها من السوء ، لأنها لو أتت بألف شاهد على البراءة وهى على هذه الحال ما صدقها الناس ، ولكن هذا الكلام من عيسى وهو فى المهد جلى كل ريب يقع فى القلوب ، فانقسم الناس فيه بعد هذا ثلاثة أقسام :

قسم آمنوا به وصدقوه فى كلامه هذا وفى الانقياد له بعد النبوة ، وهم المؤمنون حقيقة

وقسم غلوا فيه وهم النصارى ، فقالوا فيه المقالات المعروفة ونزلوه منزلة الرب ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً

وقسم كفروا به وجفوه - وهم اليهود - ورموا أمه بما برأها الله منه ، ولهذا قال تعالى (فاختلف الأحزاب من بعدهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)

ولما أرسله الله إلى بنى اسرائيل ، آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وجعل يريهم الآيات والعجائب ، فكان يصور الطين فينفخ فيه فيكون طيراً باذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى باذن الله وينبئهم عن كثير مما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك فتكالبت عليه أعداءه وأرادوا قتله ، فألقى الله شبهه على واحد من الحواريين أصحابه أو من غيرهم ، ورفعه الله اليه وطهره من قتلهم ، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وباءوا بالاثم العظيم والجرم الجسيم ، وصدقهم النصارى أنهم قتلوه وصلبوه ، ونزهه الله من هذه الحالة فقال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وقد قام عيسى فى بنى اسرائيل فبشر وأعلن برسالة محمد ﷺ ، فلما جاءهم محمد الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم قالوا (هذا سحر مبين) كما قالوا فى عيسى (فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين)

وفى هذه القصة من الفوائد أمور :

منها أن النذر ما زال مشروعا فى الأمم السابقة ، والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح

النافذ منه وللباطل فقال « من نذر أن يطيع الله فليطعه ؛ ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه »

ومنها أن من نعمة الله على العبد أن يكون فى كفالة الصالحين الأخيار ، فان المربى والكافل له الأثر الأعظم فى حياة المكفول وأخلاقه وآدابه ، ولهذا أمر الله المربين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة ، والترهيب من مساوىء الأخلاق

ومنها إثبات كرامات الأولياء فان الله كرم مريم بأمور: يسر لها أن تكون فى كفالة زكريا بعدما حصل الخصام فى شأنها ، وأكرمها بأن كان رزقها يأتيها من الله بلا سبب ؛ وأكرمها بوجود عيسى وولادتها إياه وبخطاب الملك لها بما يطمن قلبها ، ثم بكلامه فى المهد ، فهذه الأخيرة جمعت كرامة ولىّ ومعجزة نبى

ومنها الآيات العظيمة التى أجراها الله على يد عيسى بن مريم : من إحياء الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ونحوها

ومنها ما أكرم الله به عيسى بأن جعل له حواريين وأنصاراً فى حياته وبعد مماته فى بث دعوته والنصر لدينه ، ولذلك كثر تابعوه ، ولكن منهم المستقيم ؛ وهو الذى آمن به حقيقة ، وآمن بجميع الرسل ، ومنهم المنحرف ، وهم الذين غلوا فيه ، وهم جمهور من يدعى أنه من أتباعه وهم أبعد الناس عنه

ومنها أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصديقية ، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع لله ، وأنه اصطفاها وفضلها على نساء العالمين .

ومنها أن إخبار النبى ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته لقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك) الآية

قصة يوسف ويعقوب عليهما الصلاة والسلام

هذه القصة من أعجب القصص ، وذكرها الله جميعاً ، وأفردها بسورة مطولة مفصلة تفصيلا واضحاً ، قراءتها تغنى عن التفسير ، فان الله ساق فيها حالة يوسف من ابتداء أمره إلى آخره ، وما بين ذلك من التنقلات واختلاف الأحوال ، وقال فيها (لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين) فلنذكر مايستنبط من هذه القصة العظيمة من الفوائد ، فنقول مستعينين بالله

ذكر ما فيها من الفوائد :

منها أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها ، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال ، من محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عز ، ومن أمن إلى خوف

وبالعكس ، ومن ملك إلى رق وبالعكس ؛ ومن فرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس ، ومن سرور إلى حزن وبالعكس ، ومن رخاء إلى جدب وبالعكس ، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس ، ومن وصول إلى عواقب حميدة ، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولى الألباب

ومنها مافيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة ، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده ، وأن أغلب ما تبنى عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشابهة فى الصفات .

فوجه مناسبة رؤيا يوسف : أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له ، أن هذه زينة للسماء ، وفيها منافعها ، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض ، وبهم يهتدى فى الظلمات كما يهتدى بالانوار السماوية ، ولأن أباه وأمه أصل ، واخوته فرع عنهما ، فمن المناسب أن يكون الاصل أعظم نوراً وجرما من الفرع ، فلذلك كانت الشمس أمه أو أبوه ، والقمر الآخر منهما ، والكواكب اخوته ، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له ، والمسجود له معظم محترم ، فدل ذلك على أن يوسف يصير معظما محترماً لأبويه واخوته ، ولا يتم هذا إلا بمقدمات تقتضى الوصول إلى هذا : من علوم وأعمال واجتباء من الله ، فلهذا قال (وكذلك يجتبيك ربك) الآية

ومنها المناسبة فى رؤيا الفتيين ، حيث عبر رؤيا من رأى أنه يعصر خمراً ، أن الذى يعمل هذا العمل يكون فى العادة خادماً لغيره ، وأيضاً العصر مقصود لغيره والخادم تابع لغيره ويؤول أيضاً إلى السقى الذى هو خدمته ، فلذلك أوله بما يؤول اليه ، وأما تعبيره لرؤيا من رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، بأنه يقتل ويصلب مدة حتى تأكل الطير من مخ رأسه الذى هو يحمل .

وعبر رؤيا الملك بالبقرات والسنبلات : بأنها السنين المخصبة والمجدبة ، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أمور الرعية ومصالحها ، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد ، فهذه نسبته إذ رأى هو الرؤيا ، وكذلك السنون بخصبها وجدبها تنتظم أمور المعاش أو تختل ، والبقر هى آلة حرث الارض واستخراج مغلها ، والمغل هو الزرع ؛ فرأى السبب والمسبب ، فرؤيته السبع السمان من البقر ثم السبع العجاف ، والسبع السنبلات الخضر ، ثم السبع اليابسات . أى لابد أن تتقدم السبع السنين المخصبات ، ثم تتلوها المجدبات ، وتأكل ماحصل فيها من غلال ، ولا تبقى إلا شيئاً يحصنونه عنها وإلا فهى بصدد أكلها كلها .

فان قيل من أين اخذ قوله « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » فان بعض المفسرين قال هذه زيادة من يوسف فى التعبير بوحى أوحى اليه

فالجواب : ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك ، فان السنين المجدبة سبع فقط ،

فدل على أنه سيأتى بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة الذى لايزيلها عام خصب عادى ، بل لابد فيه من خصب خلاف العادة ، وهذا واضح وهو من مفهوم العدد .

ومنها مافيها من الأدلة والبراهين على نبوة نبينا محمد ﷺ حيث قص عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التى أتت بالمقصود كله ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس احداً كما هو معلوم لقومه ، وهو بنفسه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولهذا قال (ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون)

ومنها أنه ينبغى للعبد البعد عن أسباب الشر وكتمان ماتخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف (لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً)

ومنها ذكر الانسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله (فيكيدوا لك كيدا) ومنها أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه فانه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) أى بما يحصل لك ، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله فى آخر القصة

ومنها أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل اليها ؛ لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير ، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة ، خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرع عنها من الأخلاق والأعمال ، فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التى يخضع له فيها أبوه وأمه وإخوته ، مقام عظيم ومرتبة عالية ، وأنه لا بد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله اليها ، ولهذا قال (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك) الآية

ومنها أن العدل مطلوب فى جميع الأمور الصغار والكبار ، فى معاملة السلطان لرعيته ، ومعاملة الوالدين للأولاد ، والقيام بحقوق الزوجات وغير ذلك فى المحبة والايثار ونحوها ، وأن القيام بالعدل فى ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب ، وفى الاخلال بذلك تفسد الاحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر ، لهذا لما قدم يعقوب عليه السلام يوسف فى المحبة ، وجعل وجهه له جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى

ومنها الحذر من شؤم الذنوب ، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول ؛ وانظر إلى جرم إخوة يوسف ، فانهم لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه الذى هو من أعظم الجرائم ، احتالوا على ذلك بعدة حيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوّروا

على أبيهم فى القميص والدم الذى فيه ، وفى صفة حالهم حين أتوا عشاء يبكون ، ولابد أن الكلام فى هذه القضية تسلسل وتشعب ، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف ، وكلما بحث فى هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب ، بل وعلى يوسف ، فليحذر العبد من الذنوب ، خصوصاً الذنوب المتسلسلة ، وضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة ، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره ، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد فى علمه وعمله .

ومنها أن العبرة للعبد فى حال كمال النهاية ، لا بنقص البداية ، فان أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى فى أول الأمر من الجرائم المتنوعة ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والاعتراف التام ، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة ، وإذا سمح العبد بحقه فالله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين ، ولهذا فى أصح الأقوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم وكأنه ما كان ولقوله (وما أنزل على ابراهيم واسحاق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم ، ومما يؤيد هذا أن فى رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التى فيها النور والهداية ، وهى من صفات الأنبياء ، فان لم يكونوا أنبياء فانهم علماء عباد

ومنها ما منّ الله به على يوسف من العلم والحلم والاخلاق الكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به ، وتمم ذلك بأن أخبرهم أنه لا يثرب عليهم بعد هذا العفو ، ثم بره العظيم بأبيه وأمه وإحسانه على إخوته ، واحسانه على عموم الخلق ، كما هو بيّن فى سيرته وقصته .

ومنها أن بعض الشر أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فان إخوة يوسف لما قالوا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً) الآية . وقال قائل منهم (لا تقتلوه وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الاثم الأكبر ، وهو من جملة الاسباب التى قدر الله ليوسف فى وصوله إلى الغاية التى يريد

ومنها أن الشىء إذا تداولته الأيدى وصار من جملة الاموال ولم يعلم المتعاملون أنه على غير وجه الشرع فلا إثم على من باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال ، فان يوسف باعه إخوته بيعاً محرماً عليهم ، واشترته السيارة بناءاً على أنه عبد لاخوة يوسف البائعين ، ثم ذهبوا به إلى مصر فباعوه بها ، وبقى عند سيده غلاماً رقيقا وسماه الله سيداً ، وكان عندهم بمنزلة الرقيق المكرم ، وسمى الله شراء السيارة وشراءه فى مصر معاملة لما ذكرنا

ومنها الحذر من الخلوة بالنساء الاجنبيات ، وخصوصا اللاتى يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضا

من المحبة التى يخشى ضررها ، فان امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبها الشديد له الذى ما تركها حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل .

ومنها أن الهم الذى همّ به يوسف ثم تركه لله ولبرهان الايمان الذى وضعه الله فى قلبه مما يرقيه إلى الله زلفى ، لأن الهم داع من دواعى النفس الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة طبع عليها الآدمى ، فاذا حصل الهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الايمان والخوف من الله وقع الذنب ، وإن كان العبد مؤمناً كامل الايمان ، فان الهم الطبيعى إذا قابله ذلك الايمان الصحيح القوى منعه من ترتب أثره ، ولو كان الداعى قوياً ، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع ، قال تعالى (لولا أن رأى برهان ربه) بدليل قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه واخلاصه ، خلصه الله من الوقوع فى الذنب ، فكان ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، ومن أعلى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، فذكر ﷺ منهم رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . فهمّها لما كان لامعارض له استمرت فى مراودته ، وهمه عارض عرض ثم زال فى الحال ببرهان ربه .

ومنها أن من دخل الايمان قلبه ثم استنار بمعرفة ربه ونور الايمان به ، وكان مخلصا لله فى كل أحواله ، فان الله يدفع عنه ببرهان إيمانه واخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصى ماهو جزاءاً لايمانه واخلاصه ، لأن الله علل صرف هذه الامور عن يوسف بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) على قراءة من قرأها بكسر اللام ؛ ومن قرأها بالفتح ، فان من أخلصه الله واجتباه فلابد أن يكون مخلصا ، فالمعنيان متلازمان

ومنها أنه ينبغى للعبد إذا ابتلى بالوقوع فى محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر ، كما فر يوسف هاربا للباب ، وهى تمسك بثوبه وهو مدبر عنها .

ومنها أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه فى الدعاوى ، وذلك أن الشاهد الذى شهد ؛ أى حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبر القرينة فقال (إن كان قميصه قدّ من قبل) إلى آخر القضية ، وصار حكمه هذا موافقا للصواب ، ومن القرائن وجود الصواع فى رحل الاخ ؛ وقد اعتبر هذا وهذا .

ومنها ما عليه يوسف من الجمال الباهر ظاهراً وباطنا ، فان جماله الظاهر أوجب لامرأة العزيز ما أوجب من الحب المفرط والمراودة المستمرة ؛ ولما لامها النساء دعتهن واعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت : اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ، ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم)

وأما جماله الباطن فهو العفة العظيمة منه ، مع وجود الدواعى الكثيرة لوقوع السوء منه ، ولكن الايمان ونوره والاخلاص وقوته لا يشذ عنهما فضيلة ولا تجامعهما رذيلة ، وقد بينت امرأة العزيز للنساء من يوسف الأمرين ، فانها لما أرتهن جماله الظاهر الذى اعترفن أن هذا الجمال لا يوجد فى الآدميين قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وقالت بعد ذلك (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين)

ومنها أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية ، فهكذا إذا ابتلى العبد بأحد أمرين ، إما أن يلجأ إلى فعل المعصية ، وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية ، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التى فيها الثواب من هذا الوجه بعدة أمور : ثواب من جهة اختياره الايمان على السلامة من العقوبة الدنيوية ، وثواب من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية ؛ وهو يدخل فى الجهاد فى سبيل الله ، وثواب من جهة المصيبة التى نالته والألم الذى أصابه ، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه ، وهذا أيضاً عنوان الايمان وعلامة السعادة

ومنها أنه ينبغى للعبد أن يلتجىء إلى ربه ويحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته لقول يوسف (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) فالعبد الموفق يستعين ربه على دفع المعاصى وأسبابها ، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافى المتوكلين .

ومنها أن العلم والعقل الصحيح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر ، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله (أصب اليهن وأكن من الجاهلين) أى الجاهلين بالامور الدينية ، والجاهلين بالحقائق النافعة والحقائق الضارة

ومنها أنه كما على العبد عبودية لربه فى حال رخائه ، فعليه عبودية فى حال الشدة ، فيوسف ﷺ لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن استمر على ذلك ودعا من يتصل به من أهل السجن ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك ، ومن كمال رأيه وحكمته انه لما رأى فيهما قابلية لدعوته حين احتاجا اليه فى تعبير رؤياهما وقالا له (إنا نراك من المحسنين) رأى ذلك فرصة ، فدعاهما إلى الله قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أقرب إلى حصول المطلوب ، وبين لهما أن الذى أوصله إلى هذه الحال التى رأياه فيها من الكمال والعلم إيمانه وتوحيده وتركه لملة المشركين ، وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال ، وبرهن لهما على حسن التوحيد ووجوبه ، وعلى قبح الشرك وتحريمه

ومنها أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سئل المفتى وكان السائل حاجته فى غير سؤاله أشد أنه ينبغى له أن يعلمه ما يحتاج اليه قبل أن يجيب سؤاله ، فان هذا علامة على نصح المعلم وفطنته

وحسن إرشاده وتعليمه ، فان يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما ، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والايمان أعظم من كل شيء قدمها

ومنها أن من وقع فى مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الاخبار بحاله ، وأن هذا لايكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة ، فان هذا من الأمور العادية التى جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها ، ولهذا قال يوسف للذى ظن أنه ناج منهما (اذكرنى عند ربك)

ومنها أنه يتعين على المعلم والداعى إلى الله استعمال الاخلاص التام فى تعليمه ودعوته ، وأن لا يجعل ذلك وسيلة إلى معاوضة فى مال أو جاه أو نفع ، وأن لايمتنع من التعليم إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم ، فان يوسف قد وصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسى فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى وجاءه سائلا مستفتياً عن تلك الرؤيا ، فلم يعنفه يوسف ولا وبخه ، بل ولا قال له لِم لم تذكرنى عند ربك وأجابه جواباً تاماً من جميع الوجوه .

ومنها أنه ينبغى للمسئول إذا أجاب السؤل أن يدل السائل على الامر الذى ينفعه مما يتعلق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التى ينتفع بها فى دينه ودنياه ، فان هذا من كمال نصحه وجزالة رأيه وحسن ارشاده ، فان يوسف لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك ، بل دلهم مع ذلك وأشار عليهم بما يصنعونه فى تلك السنين المخصبات من الاكثار من الزراعة وحسن الحفظ والجباية

ومنها أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته مع النسوة اللاتى قطعن أيديهن .

ومنها فضيلة العلم ، علم الشرع والاحكام ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ، وعلم السياسة ، فان يوسف ﷺ انما حصلت له الرفعة فى الدنيا والآخرة بسبب علمه المتنوع ، وفيه أن علم التعبير داخل فى الفتوى ، فلا يحل لأحد أن يجزم بالتعبير قبل أن يعرف ذلك ، كما ليس له أن يفتى فى الأحكام بغير علم ، لأن الله سماها فتوى فى هذه السورة

ومنها أنه لابأس أن يخبر الانسان عما فى نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان فى ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف (اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم) وكذلك لاتذم الولاية إذا كان المتولى لها يقوم بما يقدر عليه من اقامة الشرع وايصال الحقوق إلى أهلها ، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلا وأعظم كفاءة من غيره ، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة أو كان موجوداً من هو أمثل منه أو مثله ، أو لم يرد بها اقامة أمر الله بل أراد الترأس والمأكلة المالية

ومنها أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة ، وان خير الآخرة له سببان لاثالث لهما : الايمان بكل ما أوجب الله الايمان به ، والتقوى التى هى امتثال الأوامر الشرعية واجتناب النواهى ، وأن خير الآخرة خير من ثواب الدنيا وملكها ، وأنه ينبغى للعبد أن يدعو نفسه ويشوقها لثواب الله ولا يدعها تحزن إذا رأت لذات الدنيا ورياساتها وهى عاجزة عنها ، بل يسليها بالثواب الأخروى ليخف عليها عدم حصول الدنيا ، لقول يوسف (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)

ومنها أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم لا بأس به ، بل ذلك مطلوب ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة فى السنين المخصبات للاستعداد به للسنين المجدبات ، وقد حصل به الخير الكثير .

ومنها حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها ، فنهض بالزراعة حتى كثرت الغلال جداً ، فصار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها عندما فقدوا ماعندهم ، لعلمهم بوفورها فى مصر ، ومن عدله وتدبيره وخوفه أن يتلاعب بها التجار أنه لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله ، وظاهر حاله هذا أنه لا يعطى أهل البلد إلا أقل من ذلك بكثير لحضورهم عنده .

ومنها مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين واكرام الضيف ، لقول يوسف (ألاترون انى أوف الكيل وأنا خير المنزلين)

ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم ، فان يعقوب قال لأولاده (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) وقال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) فهم فى الاخيرة ، وإن لم يكونوا مفرطين ؛ فقد جرى منهم ما أوجب لابيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه

ومنها أن استعمال الاسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره أوالرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع ، وإن كان لا يقع شىء إلا بقضاء الله وقدره ، فان الاسباب أيضاً من القضاء والقدر ؛ لقول يعقوب (يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) الآية

ومنها جواز استعمال الحيل والمكائد التى يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد ، وأما الحيل التى يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فانها محرمة غير نافذة .

ومنها أنه ينبغى لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لايحب بيانه له أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف حين ألقى الصواع فى رحل أخيه ثم استخرجها

منه موهماً أنه سارق ، وليس فى ذلك تصريح بسرقته ، وإنما استعمل المعاريض ، ومثل هذا قوله (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق متاعنا

ومنها أنه لايجوز أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا) وقوله (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)

ومنها هذه المحنة العظيمة التى امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام ، إذ قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذى لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ويحزنه أشد الحزن ، فتم لهذه الفرقة مدة طويلة ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه ، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ، ثم ازداد به الأمرحين اتصل فراق الابن الثانى بالأول ، وهو فى ذلك صابر لأمر الله محتسب الأجر من الله ، وقد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا ريب أنه وفى بما وعد به ، ولا ينافى ذلك قوله (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) فان الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر ، وإنما الذى ينافيه الشكوى إلى المخلوقين ، ولا ريب أن الله رفعه بهذه المحنة درجات عالية ومقامات سامية ،لا تنال إلا بمثل هذه الأمور .

ومنها أن الفرج مع اشتداد الكرب ، فانه لما تراكمت الشدائد المتنوعة وضاق العبد ذرعاً بحملها ، فرجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين ، وهذه عوائده الجميلة ، خصوصا لأوليائه وأصفيائه ، ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم ، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة

ومنها جواز اخبار العبد بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط لقول يعقوب (يا أسفى على يوسف) وقول إخوة يوسف (مسنا وأهلنا الضر) وأقرهم يوسف

ومنها فضيلة التقوى والصبر ، وإن كل خير فى الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر ، وإن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله (قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)

ومنها أنه ينبغى للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى ، ولهذا قال يوسف (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخونى)

ومنها ما فى هذه القصة من الالطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها رؤيا يوسف السابقة ؛ فان فيها روحا ولطفا بيوسف و بيعقوب ، وبشارة بالوصول إلى تأويلها ، ولطف الله بيوسف إذ أوحى اليه وهو فى الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون ، وتنقلانه من حال إلى حال ، فان فيهما

ألطافاً ظاهرة وخفية ، ولهذا قال فى آخر الامر (إن ربى لطيف لما يشاء) يلطف به فى أحواله الداخلية ، ويلطف له فى الأمور الخارجية ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر

ومنها أنه ينبغى للعبد أن يلح دائما على ربه فى تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها ، وخير أعماله خواتمها ، فان الله كريم جواد رحيم .

قصة أصحاب الكهف

وهم فتية وفقهم الله وألهمهم الايمان وعرفوا ربهم وأنكروا ماعليه قومهم من عبادة الأوثان وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم ، خائفين من سطوة قومهم فقالوا (ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً) أى إن دعونا غيره (شططا) أى زوراً وبهتاناً وظلماً (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فلما اتفقوا على هذا الأمر ، وعرفوا أنهم لا يمكنهم اظهار ذلك لقومهم سألوا الله أن يسهل أمرهم فقالوا (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا) فأووا إلى غار يسره الله غاية التيسير ، واسع الفجوة ، بابه نحو الشمال لا تدخله الشمس ، لا فى طلوعها ولا فى غروبها فناموا فى كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً ، وقد ضرب الله عليهم نطاقاً من الرعب على قربهم من مدينة قومهم ، ثم انه فى الغار تولى حفظهم بقوله (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) وذلك لئلا تبلى الارض أجسادهم ، ثم أيقظهم بعد هذه المدة الطويلة (ليتساءلوا بينهم) وليقفوا فى آخر الامر على الحقيقة (فقال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) إلى آخر القصة .

ففيها آيات بينات وفوائد متعددة :

منها أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله ، فان لله آيات عجيبة وقصصاً فيها عبرة للمعتبرين .

ومنها أن من أوى الى الله أواه الله ولطف به وجعله سببا لهداية الضالين ، فان الله لطف بهم فى هذه النومة الطويلة ابقاءاً على ايمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم ، وجعل هذه القومة من آياته التى يستدل بها على كمال قدرة الله وتنوع احسانه ، وليعلم العباد أن وعد الله حق

ومنها الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها ، لأن الله بعثهم لأجل ذلك ، وببحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها

ومنها الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده الى عالمه ، وان يقف عندما يعرف

ومنها صحة الوكالة فى البيع والشراء ، وصحة الشركة فى ذلك ، لقولهم (فابعثوا أحدكم بورقكم

هذه إلى المدينة فليأتكم برزق منه) الآية . ومنها جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الانسان ويوافقه ، إذا لم تخرج الى حد الاسراف المنهى عنه ، لقوله (فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه)

ومنها الحث والتحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن فى الدين واستعمال الكتمان الذى يدرأ عن الانسان الشر .

ومنها بيان رغبة هؤلاء الفتية فى الدين ، وفرارهم من كل فتنة فى دينهم ، وتركهم لأوطانهم وعوائدهم فى الله

ومنها ذكر ما اشتمل عليه الشر من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه ، وأن هذه الطريقة طريقة المؤمنين

ومنها أن قوله (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) فيه دليل على أن هؤلاء القوم الذين بعثوا فى زمانهم ، أناس أهل تدين ، لانهم عظموهم هذا التعظيم حتى عزموا على اتخاذ مسجد على كهفهم ، وهذا وإن كان ممنوعاً - وخصوصاً فى شريعتنا ، فالمقصود بيان أن ذلك الخوف العظيم من أهل الكهف وقت إيمانهم ودخولهم فى الغار أبدلهم الله به بعد ذلك أمناً وتعظيما من الخلق ، وهذه عوائد الله فيمن تحمل المشاق من أجله أن يجعل له العاقبة الحميدة

ومنها أن كثرة البحث وطوله فى المسائل التى لا أهمية لها لا ينبغى الانهماك به لقوله (فلا تمار فيهم إلا مراءاً ظاهراً)

ومنها أن سؤال من لا علم له فى القضية المسئول فيها أو لا يوثق به منهى عنه لقوله (ولا تستفت فيهم منهم أحداً)

﴿ قصة خاتم النبيين وإمام المرسلين ومن أنزل عليه القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ﴾

اعلم أن سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم عون على معرفة تفسير كتاب الله ، والقرآن إنما كان ينزل تبعاً لمناسبات سيرته وما يقوله للخلق وجواب ما يقال له وما يحصل به تحقيق الحق الذى جاء به وابطال المذاهب التى جاء لابطالها ، وهذا من حكمة انزاله مفرقاً ، كما ذكر الله هذا المعنى بقوله (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وقال (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق) فلنذكر من سيرته ﷺ على الاحوال المناسبة لنزول الآيات المعينات ، أو لجنس النوع من علوم القرآن ليكون عونا فى هذا المقام .

فأول مقاماته فى انزال القرآن عليه أنه كان قبل البعثة قد بغضت اليه عبادة الأوثان ،

وبغض اليه كل قول قبيح وفعل قبيح ، وفطر ﷺ فطرة مستعدة متهيئة لقبول الحق علماً وعملا والله تعالى هو الذى طهر قلبه وزكاه وكمله ، فكان من رغبته العظيمة فيما يقرب إلى الله أنه كان يذهب إلى غار حراء الأيام ذوات العدد ويأخذ معه طعاماً يطعم منه المساكين ويتعبد ويتحنث فيه ، فقلبه فى غاية التعلق بربه ، ويفعل من العبادات ما وصل اليه علمه فى ذلك الوقت الجاهلى الخالى من العلم ، ومع ذلك فهو فى غاية الاحسان إلى الخلق ، فلما تم عمره أربعين سنة وتمت قوته العقلية وصلح لتلقى أعظم رسالة أرسل الله بها أحداً من خلقه ، تبدى له جبريل ﷺ فرأى منظراً هاله وأزعجه ، إذ لم يتقدم له شيء من ذلك ، وإنما قدم الله له الرؤيا ، التى كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح

فأول ما أنزل الله عليه (اقرأ باسم ربك) فجاءه بها جبريل وقال له : اقرأ . فأخبره انه ليس بقارئ - أى لا يعرف أن يقرأ - كما قال تعالى (ووجدك ضالا فهدى) وتفسيرها الآية الأخرى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فغطه جبريل مرتين أو ثلاثاً ليهيئه لتلقى القرآن العظيم ، ويتجرد قلبه وهمته وظاهره وباطنه لذلك فنزلت هذه السورة التى فيها نبوته ، وأمره بالقراءة باسم ربه ، وفيها أصناف نعمه على الانسان بتعليمه البيان العلمى والبيان اللفظى والبيان الرسمى ، فجاء بها إلى خديجة ترعد فرائصه من الفرَق وأخبرها بما رآه وما جرى عليه ، فقالت خديجة رضى الله عنها : أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، أى ومن كانت هذه صفته ، فانها تستدعى نعما من الله أكبر منها وأعظم ، وكان هذا من توفيق الله لها ولنبيه ، ومن تهوين القلق الذى أصابه .

وبهذه السورة ابتدأت نبوته ثم فتر عنه الوحى مدة ليشتاق اليه وليكون أعظم لموقعه عنده وكان قد رأى الملك على صورته فانزعج ، فجاء إلى خديجة أيضاً ترعد فرائصه فقال « دثرونى دثرونى » فأنزل الله عليه (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) الآيات فكان فى هذا :الأمر له بدعوة الخلق وانذارهم ، فشمر ﷺ عن عزمه وصمم على الدعوة إلى ربه مع علمه أنه سيقاوم بهذا الأمر البعيد والقريب ، وسيلاقى كل معارضة من قومه ومن غيرهم وشدة ، ولكن الله أيده وقوى عزمه وأيده بروح منه وبالدين الذى جاء به ، وجاءته سورة الضحى فى فترة الوحى لما قال المكذبون : إن رب محمد قلاه . قال (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى) إلى آخرها .

وهذا اعتناء عظيم من الله برسوله ، ونفى لكل نقص ، وبشارة بأن كل حالة له أحسن مما قبلها وخير منها ، وأن الله سيعطيه من النصر والأتباع والعز العظيم وانتشار الدين ما يرضيه .

فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص والنهى عن ضده ، دعى الناس لهذا ، وقرره الله فى كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبين وجوب التوحيد وحسنه ، وتعينه طريقاً إلى الله وإلى دار كرامته ، وقرر ابطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن ، وهى أغلب السور المكية ، فاستجاب له فى هذا الواحد بعد الواحد على شدة عظيمة من قومه ، وقاومه قومه وغيرهم وبغوا له الغوائل ، وحرصوا على اطفاء دعوته بجدهم وقولهم وفعلهم ، وهو يجادلهم ويتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، ولكنهم يكابرون ويجحدون آيات الله ، كما قال تعالى (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) . ولهذا لما كان استماعهم للقرآن على وجه الكفر والجحد والتكذيب وتوطين نفوسهم على معاداته أخبر الله تعالى أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ؛ وأنهم لا يهتدون بسبب ما أسسوا من هذا الأصل الخبيث المانع لصاحبه من كل خير وهدى ، وهذا مما يعلم به حكمة البارى فى اضلال الضالين ، وأنهم لما اختاروا لأنفسهم الضلال ورغبوا فيه ، ولاهم الله ماتولوا لانفسهم وتركهم فى طغيانهم يعمهون ؛ وأنهم لما ردوا نعمة الله عليهم حين جاءتهم ، قلب الله أفئدتهم وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم وأفئدتهم ، وهذا الوصف الذى أشرنا اليه قد ذكره الله فى كتابه عنهم ، وهو يعينك على فهم آيات كثيرة يخبر الله فيها بضلالهم وانسداد طرق الهداية عليهم ، وعدم قبول محالهم وقلوبهم للهدى ، والذنب ذنبهم وهم السبب فى ذلك ؛ قال تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وبضده تعرف الحكمة فى هدايته للمؤمنين ، وأنهم لما كانوا منصفين ليس غرضهم إلا الحق ، ولا لهم قصد إلا طلب رضا ربهم ، هداهم الله بالقرآن ، وازدادت به علومهم ومعارفهم وإيمانهم وهدايتهم المتنوعة . قال تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) . وهذا الوصف الجليل للمؤمنين هو الاساس لهدايتهم وزيادة إيمانهم وانقيادهم وبه ينفتح لك الباب فى فهم الآيات فى أوصاف المؤمنين وسرعة انقيادهم للحق أصوله وفروعه .

ومن مقامات النبى ﷺ مع المكذبين له أنه يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتى هى أحسن ؛ ويدعوهم أفراداً ومتفرقين ، ويذكرهم بالقرآن ويتلوه فى الصلاة وخارجها ، وكانوا إذا سمعوه صموا آذانهم ، وقد يسبونه ويسبون من أنزله ، فأنزل الله على رسوله آيات كثيرة فى هذا المعنى يبين حالهم مع سماع القرآن وشدة نفورهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ، وأن شياطينهم ورؤساءهم فى الشر فكروا وقدروا ونظروا فيما يقولون عن القرآن ويصفونه به لينفروا عنه الناس ، حتى قر قرار رئيسهم الوليد بن المغيرة الذى سماه الله وحيداً فقال : إن هذا الاسحر يؤثر ان هذا الا قول البشر ، ولكن أبى الله الا أن يعلو هذا الكلام كل كلام ويزهق هذا الحق

كل باطل، وكانوا من إفكهم يقولون فى القرآن الأقوال المتناقضة، يقولون إنه سحر، إنه كهانة، إنه شعر، انه كذب انه أساطير، فجعلوا القرآن عضين، كل هذا أثر البغض الذى أحرق قلوبهم، حتى قالوا فيه مقالة المجانين، وكلما قالوا قولا من هذه الأقوال، أنزل الله آيات يبطل بها ما قالوا، ويبين زورهم وافتراءهم وتناقضهم.

وكان من الأدلة والبراهين على رسالة محمد ﷺ وأن القرآن من عند الله مقابلة المكذبين له فان من نظر اليها علم انها سلاح عليهم، وأكبر دليل على أنهم مقاومون للحق ساعون فى ابطاله وأنهم على الباطل الذى ليس له حظ من العقل، كما ليس له حظ من الدين، وكانوا أيضاً يقولون فى النبى ﷺ الأقوال التى ليس فيها دلالة على ما كانوا يعتقدون، وليس فيها نقص بالنبى ﷺ يقولون: لو أن محمداً صادق لأنزل الله ملائكة يشهدون له بذلك، ولأغناه الله عن المشى فى الأسواق وطلب الرزق كما يطلبه غيره، ولجعل له كذا وكذا مما توحى اليه عقولهم الفاسدة، ويذكرها الله فى القرآن فى مواضع متعددة، تارة يصورها للعباد فقط، لأن من تصورها عرف بطلانها وأنها ليست من الشبه القادحة، فضلا عن الحجج المعتبرة، وتارة يصورها ويذكر ما يبطلها من الأمور الواضحة، وهذا كثير فى القرآن.

ومن مقاماتهم مع النبى ﷺ أنهم يسعون أشد السعى أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن فى دينهم ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه، لعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التى هى عليه من النقص، وأنه ليس فيها شىء من الصفات يوجب أن تستحق شيئاً من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك ويعترفون به، فلا أحب اليهم من التزوير وابقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه وهذا الذى منه يفرون، وهذا المقام أيضاً ذكره الله فى آيات متعددة، مثل قوله (ودوا لو تدهن فيدهنون) ونحوها من الآيات. وأما قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فهذا إذا ترتب على السب المذكور سبهم لله، فانه يترك لما يترتب عليه من الشر.

ومن مقاماتهم المتنوعة مع النبى ﷺ أنهم كانوا يقترحون الآيات بحسب أهوائهم ويقولون إن كنت صادقاً فأتنا بعذاب الله، أو بما تعدنا، أو أزل عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهاراً وعيوناً. وحتى يحصل لك كذا وكذا مما ذكره الله عنهم فيجيبهم الله عن هذه الاقوال بأن رسوله ﷺ قد أيده الله بالآيات والله أعلم بما ينزل من آياته، وأعلم بما هو أنفع لهم، وأنه قد حصل المقصود من بيان صدقه وقامت الادلة والبراهين على ذلك. فقول الجاهل الاحمق لو كان كذا وكذا جهل منه وكبر ومشاغبة محضة، وتارة يخبرهم أنه لا يمنعه من الاتيان بها إلا الابقاء عليهم

وأنها لو جاءت لا يؤمنون ، فعند ذلك يعاجلهم الله بالعقاب . وتارة يبين لهم أن الرسول إنما هو نذير مبين ، ليس له من الأمر شيء ، ولا من الآيات شيء وأن هذا من عند الله ، فطلبهم من الرسول محض الظلم والعدوان ، وهذه المعانى فى القرآن كثيرة بأساليب متعددة

وأحياناً يقدحون فى الرسول قدحا يعترضون فيه على الله ، وأنه لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، ومحمد ليس كذلك ، وانك يا محمد لست بأولى بفضل الله منا ، فلأى شيء تفضل علينا بالوحى ، ونحوه من الأقوال الناشئة عن الحسد ، فيجيبهم الله بذكر فضله ، وأن فضله يؤتيه من يشاء ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته والمحل اللائق بها ، ويشرح لهم من صفات رسوله التى يشاهدونها رأى عين ما يعلمون هم وغيرهم أنه أعظم رجل فى العالم ، وأنه ما وجد ولن يوجد احد يقاربه فى الكمال ، مؤيداً ذلك بالأمور المحسوسة والبراهين المسلمة ، وقد أبدى الله هذه المعانى وأعادها معهم فى مواضع كثيرة .

ومن مقاماته ﷺ مع المؤمنين الرأفة العظيمة والرحمة لهم والمحبة التامة والقيام معهم فى كل أمورهم ، وأنه لهم أرحم وأرأف من آبائهم وأمهاتهم ، وأحنى عليهم من كل أحد ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم - لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) (فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك - فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر) فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله ، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة ، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث الى أن استكمل بعد بعثته ، نحو عشر سنين وهو يدعو الى الله على بصيرة .

ثم أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه من آياته ، وعرج به الى فوق السموات السبع ، وفرض الله عليه الصلوات الخمس بأوقاتها وهيئاتها ، وجاءه جبريل على أثرها فعلمه أوقاتها وكيفياتها ، وصلى به يومين ، اليوم الأول صلى الصلوات الخمس فى أول وقتها . واليوم الثانى فى آخر الوقت ، وقال : الصلاة ما بين هذين الوقتين ؛ ففرضت الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين ، ولم يفرض الأذان فى ذلك الوقت ولا بقية أركان الاسلام ، وانتشر الاسلام فى المدينة وما حولها . ومن جملة الاسباب أن الاوس والخزرج كان اليهود فى المدينة جيراناً لهم ، وقد أخبروهم انهم ينتظرون نبياً قد أظل زمانه ، وذكروا من أوصافه ما دلهم عليه ؛ فبادر الاوس والخزرج لما اجتمعوا بالنبى (ص) فى مكة وتيقنوا أنه رسول الله ، واما اليهود فاستولى عليهم الشقاء والحسد ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به . وكان المسلمون فى مكة فى أذى شديد من

قريش فأذن لهم النبي ﷺ في الهجرة أولا إلى الحبشة ، ثم لما أسلم كثير من أهل المدينة صارت الهجرة إلى المدينة .

وحين خاف أهل مكة من هذه الحال اجتمع ملأهم ورؤساؤهم في دار الندوة يريدون القضاء التام على النبي ﷺ ، فاتفق رأيهم أن ينتخبوا من قبائل قريش من كل قبيلة رجلا شجاعاً فيجتمعون ويضربونه بسيوفهم ضربة واحدة . قالوا لأجل أن يتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن مقاومة سائر قريش فيرضون بالدية ، فهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، فجاء الوحي إلى النبي (ص) وعزم على الهجرة ، وأخبر أبا بكر بذلك وطلب منه الصحبة فأجابه الى ذلك وخرج في تلك الليلة التي اجتمعوا على الايقاع به ، وأمر علياً أن ينام على فراشه وخرج هو وأبو بكر الى الغار ، فلم يزالوا يرصدونه حتى برق الفجر ، فخرج اليهم علي فقالوا : أين صاحبك ؟ قال لا أدري .

ثم ذهبوا يطلبونه في كل وجهة وجعلوا الجمالات الكثيرة لمن يأتي به ، وكان الجبل الذي فيه الغار قد امتلأ من الخلق يطلبون رسول الله (ص) فقال أبو بكر : يارسول الله لو نظر أحدهم الى قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبابكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ وأنزل الله تعالى (الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار ، اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم) فهاجر الى المدينة واستقرّ بها وأذن له في القتال بعدما كان قبل الهجرة ممنوعاً لحكمة مشاهدة ، فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وجعل يرسل السرايا ، ولما كانت السنة الثانية فرض الله على العباد الزكاة والصيام ، فآيات الصيام والزكاة انما نزلت في هذا العام وقت فرضها ، وأما قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) فان المراد زكاة القلب وطهارته بالتوحيد وترك الشرك .

وفي السنة الثانية أيضاً كانت وقعة بدر . وسببها أن عيراً لقريش تحمل تجارة عظيمة من الشام ، خرج النبي ﷺ بمن خف من أصحابه لطلبها ، فخرجت قريش لحمايتها وتوافوا في بدر على غير ميعاد ، فالعير نجت والنفير التقوا مع الرسول وأصحابه ، وكانوا ألفاً كاملي العدد والخيل ، والمسلمون ثلثمائة وبضعة عشر على سبعين بعيراً يعتقبونها ، فهزم الله المشركين هزيمة عظيمة ، قتلت سرواتهم وصناديدهم ، وأسر من أسر منهم ، وأصاب المشركين مصيبة ما أصيبوا بمثلها ، وهذه الغزوة أنزل الله فيها وفي تفاصيلها سورة الأنفال . وبعدما رجع الى المدينة منها مظفراً منصوراً ذل من بقي ممن لم يسلم من الاوس والخزرج ، ودخل بعضهم في الاسلام نفاقاً ، ولذلك جميع الآيات التي نزلت في المنافقين انما كانت بعد غزوة بدر .

ثم فى السنة الثالثة كانت غزوة أحد . غزا المشركون وجيشوا الجيوش على المسلمين حتى وصلوا إلى أطراف المدينة ، وخرج اليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وعبأهم ورتبهم والتقوا فى أحد عند الجبل المعروف شمالى المدينة ، وكانت الدائرة فى أول الأمر على المشركين ، ثم لما ترك الرماة مركزهم الذى رتبهم فيه رسول الله ﷺ وقال لهم لاتبرحوا عنه ظهرنا أو غلبنا ، وجاءت الخيل مع تلك الثغرة وكان ما كان ، حصل على المسلمين فى أحد مقتلة أكرمهم الله بالشهادة فى سبيله ، وذكر الله تفصيل هذه الغزاة فى سورة آل عمران ، وبسط متعلقاتها ، فالوقوف على هذه الغزوة من كتب السير يعين على فهم الآيات الكثيرة التى نزلت فيها كبقية الغزوات

ثم فى السنة الرابعة تواعد المسلمون والمشركون فيها — فى بدر — فجاء المسلمون لذلك الموعد وتخلف المشركون معتذرين أن السنة مجدبة ، فكتبها الله غزوة للمسلمين ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم

ثم فى سنة خمس كانت غزوة الخندق اتفق أهل الحجاز وأهل نجد وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على غزو النبى ﷺ وجمعوا ما يقدرون عليه من الجنود ، فاجتمع نحو عشرة آلاف مقاتل وقصدوا المدينة ، ولما سمع بهم النبى (ص) خندق على المدينة ، وخرج المسلمون نحو الخندق ، وجاء المشركون كما وصفهم الله بقوله (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ومكثوا محاصرين المدينة عدة أيام ، وحال الخندق بينهم وبين اصطدام الجيوش ، وحصل مناوشات يسيرة بين أفراد من الخيل . وسبب الله عدة أسباب لانخذال المشركين ، ثم انشمروا إلى ديارهم ، فلما رجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا جازمين على حصوله تفرغ النبى (ص) لبنى قريظة الذين ظاهروا المشركين بقولهم وتشجيعهم على قصد المدينة ومظاهرتهم الفعلية ونقضهم ما كان بينهم وبين النبى (ص) فحاصرهم فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، وفى هذه الغزوة أنزل الله صدر سورة الأحزاب من قوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها — إلى قوله — وأورثكم أرضهم وديارهم وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا)

ثم فى سنة ست من الهجرة اعتمر (ص) وأصحابه عمرة الحديبية ، وكان البيت لا يصد عنه أحد ، فعزم المشركون على صد النبى (ص) عنه ، ولما بلغ الحديبية ورأى المشركين قد أخذتهم الحمية الجاهلية جازمين على القتال دخل معهم فى صلح لحقن الدماء فى بيت الله الحرام ، ولما فى ذلك من المصالح ، وصار الصلح على أن يرجع النبى (ص) عامه هذا ولا يدخل البيت ، ويكون القضاء من العام القابل ، وتضع الحرب أوزارها بينهم عشر سنين ، فكره جمهور المسلمين هذا الصلح حين توهموا أن فيه غضاضة على المسلمين ولم يطلعوا على ما فيه من المصالح الكثيرة ،

فرجع (ص) عامه ذلك وقضى هذه العمرة فى عام سبع من الهجرة ، فأنزل الله فى هذه القضية سورة الفتح بأكملها (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) فكان هذا الفتح لما فيه من الصلح الذى تمكن فيه المسلمون من الدعوة إلى الاسلام ودخول الناس فى دين الله حين شاهدوا مافيه من الخير والصلاح والنور . وقد تقدم أن قصة بنى قريظة دخلت فى ضمن قصة الخندق ، أما قبيلة بنى النضير من اليهود فانها قبل ذلك ، حين هموا بالفتك بالنبى (ص) وكانوا على جانب المدينة غزاهم (ص) واحتموا بحصونهم ووعدهم المنافقون حلفاؤهم بنصرتهم ، فألقى الله الرعب فى قلوبهم ، وأنزلهم رسول الله (ص) على أن يجلوا عن ديارهم ولهم ما حملت ابلهم ، ويدعوا الأرض والعقار ومالم تحمله الابل للمسلمين ، فأنزل الله فى هذه القضية أول سورة الحشر (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) إلى آخر القصة .

وفى سنة ثمان من الهجرة ، وقد نقض قريش العهد الذى بينهم و بين النبى (ص) غزا مكة فى جند كثيف من المسلمين يقارب عشرة آلاف ، فدخلها فاتحاً لها ، ثم تممها بغزو حنين على هوازن وثقيف ، فتم بذلك نصر الله لرسوله وللمسلمين ، وأنزل الله فى ذلك أول سورة التوبة

وفى سنة تسع من الهجرة غزا تبوك وأوعب المسلمون معه ، ولم يتخلف إلا أهل الأعذار وأناس من المنافقين ، وثلاثة من صلحاء المؤمنين : كعب بن مالك وصاحباه . وكان الوقت شديداً والحر شديداً والعدو كثيراً والعسرة مشتدة ، فوصل إلى تبوك ومكث عشرين يوماً ولم يحصل قتال فرجع إلى المدينة ، فأنزل الله فى هذه الغزوة آيات كثيرة من سورة التوبة ، يذكر تعالى تفاصيلها وشدتها ، ويثنى على المؤمنين ، ويذم المنافقين وتخلفهم ، ويذكر توبته على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، ويدخل معهم الثلاثة الذين خلفوا بعد توبتهم وانابتهم .

وفى مطاوى هذه الغزوات يذكر الله آيات الجهاد وفرضه وفضله وثواب أهله ، وما للناكلين عنه من الذل العاجل والعقاب الآجل ، كما أنه فى أثناء هذه المدة ينزل الله الأحكام الشرعية شيئاً فشيئاً بحسب ما تقتضيه حكمته .

وفى سنة تسع من الهجرة أو سنة عشر فرض الله الحج على المسلمين ، وكان أبو بكر حج بالناس سنة تسع ونبذ إلى المشركين عهودهم ، وأتم عهود الذين لم ينقضوا ، ثم حج النبى (ص) بالمسلمين سنة عشر واستوعب المسلمين معه ، وأعلمهم بمناسك الحج والعمرة بقوله وفعله ، وأنزل الله الآيات التى فى الحج وأحكامه ، وأنزل الله يوم عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بينه لهم ، فان القرآن تبيان لكل شىء ، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والاحكام ، وعلوم الأخلاق والآداب ، وعلوم الكون ، وكل مايحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة ، فى القرآن بيانه والارشاد اليه

وهو الذى اليه المرجع فى جميع الحقائق الشرعية والعقلية ، ومحال وممتنع أن يأتى علم صحيح لامحسوس ولا معقول ينقض شيئاً مما جاء به القرآن ؛ فانه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) فهذه الآية جمعت بين نوعى العلوم ، فان العلوم وسائل ومقاصد ، وهو الحق الذى يقوله الله فى كتابه وعلى لسان رسوله ، ونوع وسائل ، وهو الهداية إلى السبيل إلى كل علم وعمل ، كما أن قوله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) جمعت الكمال فى ألفاظه ومعانيه ؛ فألفاظه أوضح الألفاظ وأبانها وأحسنها تفسيراً لكل ما تفسره من الحقائق ، بوضوحها وأحكامها وقوامها ، ومعانيه كلها حق ، وذلك أنه تمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، صدقاً فى أخبارها ، وعدلا فى أحكامها أوامرها ونواهيها (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) فأحكامه على الاطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد ، فهذا فى شرعه ودينه ونظيره فى خلقه ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين .

وقد جمع الله فى كتابه بين المتقابلات العامة ، وذلك لكمال هذا الكتاب وأحكامه كالأمثلة السابقة ، وكما فى قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) فان البر اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد والأخلاق والاعمال ، والتقوى اسم جامع لما يجب اتقاؤه من جميع المآثم والمضار ، ولهذا قال (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) فالاثم المعاصى المتعلقة بحقوق الله ، والعدوان البغى على الخلق فى الدماء والأموال والأعراض والحقوق

وكذلك قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فجمع بين زاد سفر الدنيا ، وزاد سفر الآخرة بالتقوى .

وكذلك قوله تعالى (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً) فهذا اللباس الحسى الضرورى والكمالى ، ثم قال : ولباس التقوى ذلك خير ، فهذا اللباس المعنوى ، وإن شئت قلت عن الأول إنه لباس البدن ، وعن لباس التقوى انها لباس القلب والروح

وكذلك قوله تعالى (ولقاهم نضرة وسروراً) جمع لهم بين نعيم الظاهر بالنضرة والحسن والبهاء ونعيم الباطن بكمال الفرح والسرور

وكذلك قوله فى صفة نساء الجنة (فيهن خيرات حسان) فوصفهن بجمال الباطن بحسن الخلق الكامل ، وجمال الظاهر بأنهن حسان الوجوه وجميع الظاهر .

ولما ذكر السير الحسى ذكر السير المعنوى ، فقال (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر)

وكذلك قوله (فانفروا ثبات) أى أفراداً بدليل قوله (أوانفروا جميعاً)

وكذلك قوله (لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) كذب الخبر وتولى عن الطاعة « التكذيب » انحراف الباطن « والتولى » انحراف الظاهر ، ونظيره قوله (إنا قد اوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى)

وضد ذلك ما رتب الله على الايمان والعمل الصالح من خير الدنيا والآخرة ؛ فان الايمان ضد التكذيب ، والتولى ضده الاستقامة والعمل الصالح

وكذلك قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) فاعبده وتوكل عليه تجمع جميع ما يراد من العبد ، فالعبادة حق الله على العبد ، والاعانة من ربه اسعافه بما استعان عليه من عبودية ربه وغيرها من منافعه ؛ فالعبد فى عبادة لله واستعانة به .

وكذلك قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فجمع للمؤمن العامل للصالحات بين طيب الحياة فى الدنيا والآخرة ، ونظيره (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر - ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة)

وكذلك قوله (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فى مواضع ، نفى جميع المكروه الماضى بنفى الحزن والمستقبل بنفى الخوف .

وكذلك قوله تعالى (فروح وريحان وجنة نعيم) فالروح اسم جامع لنعيم القلب ، والريحان اسم جامع لنعيم الأبدان ؛ وجنة نعيم تجمع الأمرين

وكذلك قوله (ومن أعرض عن ذكرى) أى القرآن الذى أنزله (فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) جمع له بين عذاب الدنيا وعذاب البرزخ وعذاب دار القرار .

وكذلك قوله (إن الله لا يهدى من هو متكبر جبار) أى متكبر على الحق جبار على الخلق .

ومثله (معتد أثيم) أى معتد فى البغى على عباد الله (أثيم) أى متجرىء على محارم الله

وكذلك قوله فى مواضع (من ولى ولا نصير) فالولى الذى يجلب لموليه المنافع (والنصير) الذى يدفع عنه المضار

﴿ فوائد منثورة منوعة غير مرتبة ﴾

الأمة : جاء فى القرآن لعدة معانى ، جاء بمعنى الامام الجامع لخصال الخير ، مثل قوله (إن ابراهيم كان أمة) وبمعنى الطائفة (وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وهذا المعنى كثير ، وبمعنى الملة والدين (وأن هذه أمتكم أمة واحدة) وبمعنى المدة الطويلة (وادكر بعد أمة)

السلطان : أكثر استعماله فى القرآن بمعنى الحجة ، مثل قوله (إن عندكم من سلطان ـ فأتوا بسلطان مبين) ويأتى بمعنى الملك ، مثل قوله (هلك عنى سلطانيه) ويأتى بمعنى التسلط والسيطرة مثل قوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)

اللسان : ورد فى القرآن لعدة معانى ، ورد بمعنى الجارحة (لا تحرك به لسانك ... ويقولون بألسنتهم) وهو كثير ، وبمعنى اللغة (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ـ بلسان عربى مبين) وبمعنى الثناء الحسن (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) ـ « استوى » وردت فى القرآن على ثلاثة أوجه ، تارة تُعدّى بعلى فتدل على العلو والارتفاع ، مثل « ثم استوى على العرش . لتستووا على ظهوره » وتعدى بإلى فتدل على القصد مثل (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) وتأتى بلا تعدية بحرف فتدل على الكمال ، ومنه قوله (ولما بلغ أشده واستوى) أى كمل فى عقله وأحواله كلها

التأويل : أكثر وروده فى القرآن بمعنى عاقبة الشىء وما يؤول اليه ووقت وقوعه ، مثل قوله (هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل) أى وقوع المخبر به من العذاب (هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا ما آلت اليه وهذا وقوعها ، وقد يأتى بمعنى التفسير وهو قليل ، ومنه على أحد التفسيرين (وما يعلم تأويله إلا الله) أى تفسيره ، وعلى القول الآخر يكون من المعنى الأول ، أى وما يعلم حقيقة المخبر عنه إلا الله وحده ، فعلى هذا المعنى يتعين الوقوف على (الله) وعلى المعنى الأول الذى بمعنى التفسير يعطف عليه (أولو العلم) أى ما يعلم تفسير المتشابه الذى يتشابه فهمه على أذهان أكثر الناس إلا الله وإلا أهل العلم فانهم يعلمون تأويله بهذا المعنى

الغافل : ورد فى القرآن بمعنى الجاهل ، مثل قوله (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وبمعنى النسيان لذكر الله ونسيان طاعته ، كقوله (واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ـ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا)

فائدة : اخبار الله أنه مع عباده يرد فى القرآن على أحد معنيين .

أحدهما : المعية العامة ، كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم) أى هو معهم بعلمه واحاطته .

الثانى : المعية الخاصة ، وهى أكثر وروداً فى القرآن ، وعلامتها أن يقرنها الله بالاتصاف بالأوصاف التى يحبها والأعمال التى يرتضيها ، مثل قوله (إن الله مع المتقين) مع المحسنين مع الصابرين (لا تحزن إن الله معنا ـ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) وهذه المعية تقتضى العناية من الله والنصر والتأييد والتسديد بحسب قيام العبد بذلك الوصف الذى رتبت عليه المعية

ونظير هذا التقسيم وصف العباد بأنهم عبيد لله يرد فى القرآن على نوعين : نوع عام ، مثل

قوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) أى معبداً مملوكا لله . والنوع الثانى العبودية الخاصة ، وهى تقتضى أن العبد بمعنى العابد المتعبد لربه القائم بعبوديته ، وذلك مثل قوله (وعباد الرحمن - تبارك الذى نزل الفرقان على عبده - أليس الله بكاف عبده) فبحسب قيام العبد بعبودية ربه تحصل له كفاية الله

ونظير هذا القنوت يرد فى القرآن على قسمين : قنوت عام ، مثل قوله (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) أى الكل عبيد خاضعون لربوبيته وتدبيره . النوع الثانى : وهو الأكثر فى القرآن القنوت الخاص ، وهو دوام الطاعة لله على وجه الخشوع ، مثل قوله (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً - وقوموا لله قانتين - يامريم اقنتى لربك واسجدى - والقانتين والقانتات) ونحوها .

فائدة : طغيان الرئاسة وطغيان المال يحملان صاحبهما على الكبر والبطر والبغى على الحق وعلى الخلق ، برهان ذلك قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان آتاه الله الملك) وقوله (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى) فعلل هذا التجرؤ والطغيان بحصول الملك ورؤيته لنفسه الاستغناء ، أما الموفقون الأصفياء فانهم فى هذه الأحوال يخضعون لله ويعترفون له بالنعمة ويزداد تواضعهم ؛ ولهذا لما رأى سليمان عليه السلام من ملكه ملكا كبيراً ، ورأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده لم يطغ ويقل هذا من حولى وقوتى ونحوه ، بل قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر . وقال قبل ذلك : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

فائدة : من الحكمة استعمال اللين فى معاشرة المؤمنين ، وفى مقام الدعوة للكافرين ، كما قال تعالى : فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . وقال : فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى . فأمر باللين فى هذه المواضع ، وذكر ما يترتب عليه من لمصالح ؛ كما أن من الحكمة استعمال الغلظة فى موضعها . قال تعالى : يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . لأن المقام هنا مقام لا تفيد فيه الدعوة ، بل قد تعين فيه القتال فالغلظة فيه من تمام القتال وقد جمع الله بين الأمرين فى قوله فى وصف خواص الأمة (أشداء على الكفار رحماء بينهم)

والفرق بين قوله : إنك لا تهدى من أحببت . وبين قوله : وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . أن هداية الارشاد والتعليم والبيان هى التى أثبتها لرسوله ، بل ولكل من له تعليم وارشاد للخلق كما قال : وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا . وقال : ولكل قوم هاد . وأما هداية التوفيق ووضع الايمان فى القلوب ، فانها مختصة بالله ، فكما لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ويميت إلا الله ، فلا يهدى إلا الله

والفرق بين التبصرة والتذكرة فى مثل قوله (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أن التبصرة هى العلم بالشىء والتبصر فيه ، والتذكرة هى العمل بالعلم اعتقاداً وعملا ، وتوضيح هذا أن العلم التام النافع يفتقر إلى ثلاثة أمور : التفكر أولا فى آيات الله المتلوة والمشهودة ، فاذا تفكر أدرك ما تفكر فيه بحسب فهمه وذكائه فعرف ما تفكر فيه وفهمه ، وهذا هو التبصر ، فاذا علمه عمل به ، فان كان اعتقاداً وإيماناً صدقه بقلبه وأقرّ به واعترف ، وإن اقتضى عملا قلبياً أو قولياً أو بدنياً عمل به ، وهذا هو التذكر وهو التذكرة ، وحاصل ذلك هو معرفة الحق واتباعه ، ومعرفة الباطل واجتنابه .

والفرق بين المواضع التى ورد فى القرآن أن الناس لا يتساءلون ولا يتكلمون ، والمواضع التى ذكر فيها احتجاجهم وتكلمهم وخطاب بعضهم لبعض من وجهين أوجهما تقييد هذه المواضع بقوله (لا يتكلمون ، إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) فاثبات الكلام المتعدد من الخلق يوم القيامة تبع لاذن الله لهم فى ذلك ، ونفى التساؤل والكلام فى الحالة التى لم يؤذن لهم . الوجه الثانى : ما قاله كثير من المفسرين إن القيامة لها أحوال ومقامات ، ففى بعض الأحوال والمقامات يتكلمون وفى بعضها لا يتكلمون ، وهذا الوجه لا ينافى الاول ، فيقال هذه الأحوال والمقامات تبع لاذن الله لهم أو عدمه

والفرق بين اثبات الله فى القرآن الانساب بين الناس فى مواضع كثيرة ، ونفيها فى مواضع إن المواضع المنفية المراد بها أن الانساب لا تنفع ، كما أن جميع الاسباب لا تنفع يوم القيامة إلا سبب واحد ، وهو الايمان والعمل الصالح ، كما ذكره فى كتابه فى مواضع ؛ وأما المواضع المثبتة فهو المطابق للحقيقة ، ويذكر فى كل مقام بحسبه

ففى مقامات الفضل والثواب يذكر الله فضله على الجميع بالحاق الناقص من المؤمنين بالكامل من غير نقص لدرجة الكامل ، مثل قوله (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى ما نقصناهم ؛ ومثل (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) ونحوها

وفى مقامات العدل والعقوبة ، يذكر الانساب وأنها لا تنفع ؛ وأن الامر أعظم من أن يلتفت الانسان إلى أقرب الناس اليه ، مثل قوله (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه) ومثل (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه)

ونظير هذا الاخبار عن المجرمين أنهم يسئلون عن أعمالهم ، وذلك على وجه اظهار العدل والتوبيخ والتقريع لهم والفضيحة ، وفى بعض المواضع مثل (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس

ولا جان) أى لا يحتاج فى علم ذلك وجزائه عليه إلى سؤاله سؤال استعلام ، لأنها مسطرة عليهم قد حفظت بالشهود من الملائكة والجوارح والأرض وغيرها .

فائدة : النفى المحض لايكون كمالا ، ولهذا فى مقامات المدح كل نفى فى القرآن فانه يفيد فائدتين نفى ذلك النقص المصرح به واثبات ضده ونقيضه ، فيدخل فى هذا أشياء كثيرة أعظمها أنه أثنى على نفسه بنفى أمور كثيرة تنافى كماله ، نفى الشريك فى مواضع متعددة فيقتضى توحده بالكمال المطلق ، وأنه لاشريك له فى ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته ، وسبح نفسه فى مواضع ، وأخبر فى مواضع عن تسبيح المخلوقات ، والتسبيح تنزيه الله عن كل نقص وعن أن يماثله أحد ، وذلك يدل على كماله . ونفى عن نفسه الصاحبة والولد ومكافأة أحد ومماثلته ، وذلك يدل على كماله المطلق وتفرده بالوحدانية والغنى المطلق والملك المطلق . ونفى عن نفسه السنة والنوم والموت ، لكمال حياته وقيوميته ، ونفى كذلك الظلم فى مواضع كثيرة وذلك يدل على كمال عدله وسعة فضله . ونفى أن يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء أو يعجزه شىء ، وذلك لاحاطة علمه وكمال قدرته ونفى العبث فى مخلوقاته وفى شرعه ، وذلك لكمال حكمته ، وهذه فائدة عظيمة فاحفظها فى خزانة قلبك ؛ فانها خير الكنوز وأنفعها .

وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوج والشك ونحوها ؛ وذلك يدل على أنه الحق فى أخباره وأحكامه ، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد ، وأحكامه كلها محكمة فى كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم

وقال عن نبيه ﷺ (ما ضل صاحبكم وما غوى) فنفى عنه الضلال من جميع الوجوه ، وهو عدم العلم أوقلته أو نقصه أو عدم جودته (والغىّ) وهو سوء القصد ، فيدل ذلك أنه أعلم الخلق على الاطلاق ، وأهداهم وأعظمهم علماً ويقيناً وإيماناً ، وأنه أنصح الخلق للخلق ، وأعظمهم اخلاصاً لله وطلباً لما عنده ، وأبعدهم عن الأغراض الرديئة ، وكذلك نفى عنه كل نقص قاله أعداؤه فيه وأنه فى الذروة العليا من الكمال المضاد لذلك النقص

وكذلك نفى الله عن أهل الجنة الحزن والكدر والنصب واللغوب والموت وغيرها من الآفات ، فيدل ذلك على كمال سرورهم وفرحهم واتصال نعيمهم وكماله ، وكمال حياتهم وقوة شبابهم وكمال صحتهم وتمام نعيمهم الروحى والقلبى والبدنى من كل وجه ؛ وأنه لا أعلى منه حتى يطلب عنه حولا

وعكس هذا ما نفى القرآن عنه صفات الكمال ، فانه يثبت له ضد ذلك من النقص ، كما نفى عن آلهة المشركين جميع الكمالات القولية والفعلية والذاتية ، وذلك يدل على نقصها من كل وجه وأنها لاتستحق من العبادة مثقال ذرة

فائدة : قوله تعالى (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم) أى القوة والشجاعة فى هذه الآية ، على أن الملك إذا اجتمعت فيه هاتان الخصلتان : العلم بالولاية والسياسة وحسن التدبير والشجاعة والقوة ، فهو الذى يصلح للولاية والملك ، وإن لم يكن من بيت الملك ولا ذا مال ، فان العبرة بجميع الولايات امكان اقامتها والنهوض بها على أكمل الحالات ، وولاية الملك لاتتم إلا بالعلم والشجاعة القلبية والبدنية .

فائدة : قوله تعالى (واءتوا البيوت من أبوابها) يؤخذ من عمومها اللفظى والمعنوى أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغى أن يؤتى من بابه ، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها اليه ، وذلك يقتضى معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة ليسلك الأحسن منها والاقرب والأسهل ، والأقرب نجاحا ، لافرق بين الأمور العلمية والعملية ، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية ، ولا بين الامور المتعدية والقاصرة ، وهذا من الحكمة

فائدة : لما ذكر الله الأنبياء وأثنى عليهم قال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) تدل على اتباع جميع الأنبياء فى جميع هداهم ، والله هداهم فى عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم فكل أمر أثنى الله فيه على أحد من أنبيائه من عقد أو خلق أو عمل ، فاننا مأمورون بالاقتداء بهم ، وذلك من هداهم وهو أيضاً من شريعتنا ، فان الله أمرنا بذلك ، كما أمرنا بالاوصاف العامة التى تدخل فيها مفردات كثيرة

فائدة : إذا أمرنا الله فى كتابه بأمر كان آمراً بذلك ، وبكل أمر لايتم إلا به . فالأمر مثلا بالصلاة أمر بالطهارة وستر العورة واجتناب النجاسة واستقبال القبلة وبجميع شروطها وأركانها ، وكذلك هو أمر بمعرفتها ومعرفة مالا تتم إلا به ، وهذا من أعظم الادلة على وجوب طلب العلم ، فان المأمورات يتوقف تكميلها على معرفتها ؛ وكذلك إذا نهانا الله عن شىء كان نهياً عن كل وسيلة توصل اليه ، والامر بالجهاد أمر به وبكل ما يتوقف عليه فى كل زمان ومكان ؛ والأمر بتبليغ الشريعة أمر بكل ما يحصل به التبليغ ويتم ويكمل ويشمل ؛ ويدخل فى هذا إيصال الاحكام الشرعية وتبليغها للناس بجميع المقربات الحادثة

فائدة : قد أخبر الله فى عدة آيات بهدايته الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ، وتوبته على كل مجرم ، وأخبر فى آيات أخر (أنه لايهدى القوم الظالمين - لا يهدى القوم الفاسقين) فما الجمع بينها ؟ فيقال قوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم) هى الفاصله بين من هداهم الله ومن لم يهدهم ، فمن حقت عليهم كلمة العذاب ؛ لعنادهم ولعلم الله أنهم لا يصلحون للهداية ، بحيث صار الظلم والفسق وصفاً لهم ملازما غير قابل للزوال ويعلم ذلك بظاهر أحوالهم وعنادهم ومكابرتهم للحقائق ، فهؤلاء يطبع الله على قلوبهم فلا يدخلها

خير أبداً ، والجرم جرمهم ، فانهم رأوا سبيل الرشد فزهدوا فيه ، ورأوا سبيل الغى فرغبوا فيه واتخذوا الشياطين أولياء من دون الله

فائدة : ورد فى كثيرمن الآيات اضافة الامور إلى قدرة الله ومشيئته وعموم خلقه ، وفى آيات كثيرة اضافتها إلى عامليها وفاعليها ، وهذه الآيات المتنوعة تنزل على الأصل العظيم المتفق عليه بين سلف الأمة ، والذى دل عليه العقل والنقل ، وهو أن جميع الامور واقعة بقضاء الله وقدره أعيانها وأوصافها وأفعالها وجميع ما حدث ويحدث ، لا يخرج شىء منه عن قضائه وقدره . ومع ذلك فقد جعل الله الحوادث تبعاً لأسبابها ولارادة الفاعلين لها وقدرتهم عليها ، فالآيات المتعددة المضافة إلى عموم قدره تدل على الاصل الأول ، والآيات المتعددة المضافة إلى فاعليها تدل على الاصل الثانى ، ولامنافاة بينهما ، فان أعمال العباد مثلا تقع بفعلهم وإرادتهم وقدرتهم ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وارادتهم وخالق السبب التام خالق للمسبب ، ومع ذلك فقد جعلهم فى أفعالهم وتروكهم مختارين غير مجبورين .

فائدة : يختم الله كثيراً من الآيات عندما يبين للعباد الاصول والاحكام النافعة بقوله (لعلكم تعقلون) وهذا يدل على أمور :

منها أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه وارشاداته وتعليماته ؛ فنحفظها ونفهمها ونعقلها بقلوبنا ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها

ومنها أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذى بينه بياناً خاصاً ، فانه يحب أن نعقل بقية ما أنزل علينا من الكتاب والحكمة ، وأن نعقل آياته المسموعة وآياته المشهودة

ومنها أن فى هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله الينا من أعظم ما يربى عقولنا ويجعلها عقولا تفهم الحقائق النافعة والضارة ، وترجح هذه على هذه ؛ ولا تميل بها الاهواء والاغراض والخيالات والخرافات الضارة المفسدة للعقول

وإذا أردت معرفة مقادير عقول الخلق على الحقيقة ، فانظر إلى عقول المهتدين بهداية القرآن والسنة ، وإلى عقول المنحرفين عن ذلك تجد الفرق العظيم ، ولا تحسبن العقل هو الذكاء وقوة الفطنة والفصاحة اللفظية وكثرة القيل والقال ، وإنما العقل الصحيح أن يعقل العبد فى قلبه الحقائق النافعة ، عقلا يحيط بمعرفتها ويميز بينها وبين ضدها ، ويعرف الراجح من الامور فيؤثره ، والمرجوح أو الضار فيتركه ، وبعبارة أخرى مختصرة نقول : العقل هو الذى يعقل به العلوم النافعة ويعقل صاحبه ويمنعه من الامور الضارة .

فائدة : ورد فى القرآن آيات عامة عطف عليه بعض أفرادها الداخلة فيها ، وذلك يدل على فضيلة المخصوص وآكديته ، وأن له من المزايا ما أوجب النص عليه ؛ مثل قوله (من كان عدواً

لله وملائكته وجبريل وميكائيل ، فان الله عدو للكافرين - تنزل الملائكة والروح فيها) وهو جبريل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى - والذين يمسكون بالكتاب) دخل فيه الدين كله ثم قال (وأقاموا الصلاة) ومثله (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) أى اتبعه ، ويدخل فى ذلك جميع الشرائع ، ثم قال (وأقم الصلاة) وذكر السبب فى ذلك ، إلى غير ذلك من الآيات التى إذا تأملت المخصوص من العام علمت أن ذلك لشرفه وآكديته وما يترتب عليه من الثمرات الطيبة .

فائدة لطيفة : فى عدة آيات من القرآن إذا ذكر الله الحكم لم ينص على نفس الحكم عليه ، بل يذكر من أسمائه الحسنى ما إذا علم ذلك الاسم وعلمت آثاره ، عُلم أن ذلك الحكم من آثار ذلك الاسم ، وهذا انهاض من الله لعباده أن يعرفوا أسماءه حق المعرفة ، وأن يعلموا أنها الأصل فى الخلق والأمر ، وأن الخلق والأمر من آثار أسمائه الحسنى ، وذلك مثل قوله (فان فاءوا فان الله غفور رحيم ، وإن عزموا الطلاق فان الله سميع عليم) فيستفاد أن الفيئة يحبها الله وأنه يغفر لمن فاء ويرحمه ، وأن الطلاق كريه إلى الله ، وأما المؤلى إذا طلق فان الله تعالى سيجازيه على ما فعل من السبب ، وهو الايلاء ، والمسبب ، وهو ما ترتب عليه ، ومثل هذا قوله تعالى « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » أى فانكم إذا علمتم ذلك رفعتم عنه العقوبة المتعلقة بحق الله ، وهذا كثير ، وقد يصرح الله بالحكم ويعلله بذكر الأسماء الحسنى المناسبة له .

فائدة : قوله تعالى « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » جمع الله فيها أموراً كثيرة نافعة فى الدين والبدن والحال والمآل ، فالأمر بالاكل والشرب يدل على الوجوب ، وأن العبد لايحل له ترك ذلك شرعاً ، كما لايتمكن من ذلك قدراً ما دام عقله معه ، وأن الأكل والشرب مع نية امتثال أمر الله يكون عبادة ، وأن الأصل فى جميع المأكولات والمشروبات الاباحة ، إلا ما نص الشارع على تحريمه لضرره لاطلاق ذلك ، وعلى أن كل أحد يأكل ما ينفعه ويناسبه ويليق به ويوافق لغناه وفقره ، ويوافق لصحته ومرضه ولعادته وعدمها ، لأنه حذف المأكول ، والآية ساقها الله لارشاد العباد إلى منافعهم ، وهى تدل على ذلك كله ، وعلى أن أصل صحة البدن تدبير الغذاء بأن يأكل ويشرب ما ينفعه ويقيم صحته وقوته ، وعلى الأمر بالاقتصاد فى الغذاء والتدبير الحسن ، لأنه لما أمر بالاكل والشرب نهى عن السرف ، وعلى أن السرف منهى عنه ، وخصوصاً فى الأطعمة والاشربة ، فان السرف يضر الدين والعقل والبدن والمال .

أما ضرره الدينى ، فكل من ارتكب ما نهى الله ورسوله عنه فقد انجرح دينه ، وعليه أن يداوى هذا الجرح بالتوبة والرجوع .

وأما ضرره العقلى ، فان العقل يحمل صاحبه أن يفعل ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، ويوجب له أن يدبر حياته ومعاشه ، ولهذا كان حسن التدبير فى المعاش من أبلغ ما يدل على عقل صاحبه ، فمن تعدى الطور النافع إلى طور الاسراف الضار ، فلا ريب أن ذلك لنقص عقله ، فانه يستدل على نقص العقل بسوء التدبير .

وأما ضرره البدنى ، فان من أسرف بكثرة المأكولات والمشروبات انضر بدنه واعتراه أمراض خطرة ، وكثير من الأمراض إنما تحدث بسبب الاسراف فى الغذاء ، ثم إنه ينضر أيضاً من وجه آخر ، فان من عود بدنه شيئاً اعتاده ، فاذا عوده كثرة الأكل أو أكل الأطعمة المتنوعة فربما تعذرت فى بعض الأحوال لفقر أو غيره ، وحينئذ يفقد البدن ما كان معتاداً له فتنحرف صحته

وأما ضرره المالى فظاهر ، فان الاسراف يستدعى كثرة النفقات ، ولهذا قال تعالى (ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) أى تلام على مافعلت ، لأنه فى غير طريقه (محسوراً) فارغ اليد ، وإخباره انه لايحب المسرفين ، دليل على أنه يحب المقتصدين ، ففى هذه الآية إثبات صفة المحبة لله ، وأنها تتعلق بما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأحوال كلها ، فسبحان من جعل كتابه كنوزاً للعلوم النافعة المتنوعة .

فائدة : ذكر الله فى كتابه عدة آيات فيها وصف القلوب بالمرض وبالعمى وبالقسوة ، وبجعل الموانع عليها من الران ، والاكنة والحجاب ، وبموتها وبحيرتها ؛ فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضاً ، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة ، وقد يكون ليناً وقد يكون قاسياً

فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع هذه الآفات ، وهو القلب الذى صحت وقويت قوته العلمية ، وقوته العملية الارادية ، وهو الذى عرف الحق فاتبعه بلا تردد ، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف ، فهذا هو القلب الصحيح الحى السليم ، وصاحبه من أولى النهى وأولى الحجى وأولى الالباب وأولى الابصار ؛ والمخبت لله والمنيب اليه

وأما القلب المريض فهو الذى انحرفت أحد قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما

فمرض الشبهات والشكوك الذى هو مرض المنافقين لما اختل علمهم و بقيت قلوبهم فى شكوك واضطراب ولم تتوجه إلى الخير ، كان مرضها مهلكا

ومرض الشهوات الذى هو ميل القلب إلى المعاصى مخل بقوة القلب العملية ، فان القلب الصحيح لايريد ولا يميل إلا إلى الخير أو إلى ما أباحه الله له ، فمتى رأيت القلب ميالا إلى المعاصى سريع الانقياد لها ، فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة ، كما قال تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض)

وأما القلب القاسى ، فهو الذى لا يلين لمعرفة الحق ، وإن عرفه لايلين للانقياد له ، فتأتيه

المواعظ التى تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك ، اما لقسوته الاصلية أو لعقائد منحرفة اعتقدها ورسخ قلبه عليها وصعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها ، وقد يجتمع الامران ، وأما الرّان والاكنة والاغطية التى تكون على القلوب ، فانها من آثار كسب العبد وجرائمه ، فاذا أعرض عن الحق وعارض الحق ، وجاءه الحق فردّه وفتح الله له أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه ، عاقبه الله بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التى كانت مفتوحة له ومتيسرة فتكبر عنها وردها ، فطبع على قلبه وختم عليه وأحاطت به الجرائم ورانت عليه الذنوب وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً وأقفلت القلب ، فهذه المعانى التى أكثر الله من ذكرها فى كتابه ، إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة فى هذه الفائدة اتضحت لك معانيها وعرفت بذلك حكمة الله وعدله فى عقوبة هذه القلوب ، وأن الله ولاهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها

فائدة : قوله تعالى (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) جمع الله فيها الحقوق الثلاثة : الحق المختص بالله الذى لايصلح لغيره ، وهو العبادة فى قوله (وتسبحوه بكرة وأصيلا) والحق المختص بالرسول ، وهو التوقير والتعزير ، والحق المشترك ، وهو الايمان بالله ورسوله .

فائدة : ذكر الله اليقين فى مواضع كثيرة من القرآن فى المحل العالى من الثناء ، أخبر أن اليقين هو غاية الرسل لقوله (وليكون من الموقنين) وأنه بالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين وأن الآيات إنما ينتفع بها الانتفاع الكامل (الموقنون) فحقيقة اليقين هو العلم الثابت الراسخ التام المثمر للعمل القلبى والعمل البدنى .

أما آثار اليقين العلمية فثلاث مراتب : علم اليقين . وهى العلوم الناتجة عن الادلة والبراهين الصادقة الخبرية ، كجميع علوم أهل اليقين الحاصلة عن خبر الله وخبر رسوله وأخبار الصادقين . وعين اليقين وهى مشاهدة المعلومات بالعين حقيقة ، كما طلب الخليل ابراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فأراه الله ذلك بعينه ، وغرضه عليه السلام الانتقال من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، وحق اليقين : وهى المعلومات التى تحقق بالذوق ، كذوق القلب لطعم الايمان ، والذوق باللسان للأشياء المحسة .

وأما آثاره القلبية ، فسكون القلب وطمأنينته ، كما قال ابراهيم (ولكن ليطمئن قلبى) وقال ﷺ : البر ما اطمأن اليه القلب . وفى لفظ : الصدق ما اطمأن اليه القلب . فان العبد إذا وصل إلى درجة اليقين فى علومه اطمأن قلبه لعقائد الايمان كلها ، واطمأن قلبه لحقائق الايمان وأحواله التى تدور على محبة الله وذكره ، وهما متلازمان ، قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فتسكن القلوب عند الاخبار فلا يبقى فى القلب شك ولا ريب فى كل خبر أخبر الله به فى كتابه وعلى لسان رسوله ، بل

يفرح بذلك مطمئناً عالما أن هذا أعظم فائدة حصلتها القلوب . ويطمئن عند الأوامر والنواهى مكملا للمأمورات تاركاً للمنهيات راجياً لثواب الله واثقاً بوعده .

ويطمئن أيضاً عند المصائب والمكاره فيتلقاها بانشراح صدر واحتساب ، ويعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فيخف عليه حملها ويهون عليه ثقلها ، وقد علم بذلك آثارها البدنية ، فان الأعمال البدنية مبنية على أعمال القلوب ، فأهل اليقين هم أكمل الخلق فى جميع صفات الكمال ، فان اليقين روح الاعمال والأخلاق وحاملها ، والله هو الموفق الواهب له ولأسبابه

فائدة : الظن ورد فى القرآن على وجهين ، وجه محمود ووجه مذموم :

أما المحمود ففى كل مقام مدح وجزاء بالخير والثواب ، فانه بمعنى العلم واليقين مثل قوله تعالى (الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم) أى يتيقنون ذلك ، ومثل قوله (انى ظننت أنى ملاق حسابيه)

وأما المذموم ، ففى أغلب الآيات الواردة فى الظن ، مثل (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ، وإن هم إلا يظنون) وهو كثير ، فهذا وما أشبهه فيمن قدم الظنون الكاذبة على الاخبار الصادقة ، لأن الظن فى الاصل يحتمل الصدق والكذب ، ولكنه إذا ناقض الصدق قطعنا بكذبه .

فائدة : قوله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقوله (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون) تدل الآيتان على أن الزيادة من المحرمات ، وخصوصاً المكاسب المحرمة ، نقص فى البركة ، وقد ينسحت المال بذاته عاجلا أو آجلا ، وعلى أن من أخرج شيئاً لله أو فعل شيئاً لله ، فان الله يزيده وينزل له البركة فان المال وإن نقص حساً بما يخرج منه لله ، فانه يزداد معنى ووصفاً ، وقد يفتح للعبد بسبب ذلك أبواب من الرزق أو يدفع عن العبد من أسباب النقص ما كان بصدد أن يصيبه .

فائدة : الفرح ورد فى القرآن محموداً مأموراً به فى مثل قوله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) فهذا فرح بالعلم والعمل بالقرآن والاسلام ، وكذلك قوله (فرحين بما آتاهم الله من فضله) فهذا فرح بثواب الله .

وورد منهياً عنه مذموماً ، مثل الفرح بالباطل وبالرياسات والدنيا المشغلة عن الدين فى مثل قوله تعالى (إنه لفرح فخور) وقوله عن قارون (قال له قومه لاتفرح إن الله لا يحب الفرحين) وماأشبه ذلك ، فصار الفرح تبعاً لما تعلق به ؛ إن تعلق بالخير وثمراته فهو محمود ، وإلا فهو مذموم

فائدة : ورد السعى فى القرآن فى آيات كثيرة ، والمراد به الاهتمام والجد فى العمل ، مثل قوله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً) وقوله (إذا نودى

للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) وقوله (إن سعيكم لشتى) وآيات كثيرة كلها بمعنى الاهتمام للعمل ، إلا فى مثل قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى - وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) فالمراد بذلك العدْو ، وهو يتضمن الأول وزيادة

فائدة : أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين ، وذكر جزاء الصادقين فى آيات كثيرة ، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقا فى عقيدته ، صادقاً فى خلقه ، صادقاً فى قوله وعمله ، فهو الذى يجىء بالصدق فى ظاهره وباطنه ، ويصدق بالصدق لمن جاء به ، كما قال تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق فى كل حالة ، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله فقال (لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ، ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم ، قال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) والمراد الايمان الكامل ، كما قال النبى ﷺ لما ذكر لأصحابه الغرف العالية التى يتراآها أهل الجنة من علوها وارتفاعها ونورها كالكوكب الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى، فقالوا : يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم ؟ فقال بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وهؤلاء هم الهداة المهديون ، كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

فالصديقية شجرة أصلها العلوم الصحيحة والعقائد السلفية المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله وقوامها وروحها الاخلاص الكامل لله والانابة اليه ، والرجوع اليه فى جميع الاحوال رغبة ورهبة ومحبة وتعظيما وخضوعاً وذلا لله ، وثمراتها الأخلاق الحميدة والاقوال السديدة والاعمال الصالحة والاحسان فى عبادة الخالق ، والاحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الاحسان ، وجهاد جميع أصناف المنحرفين؛ فهى فى الحقيقة القيام بالدين ظاهراً وباطناً وحالا ودعوة إلى الله ، والله هو الموفق وهو المعين لكل من استعان به صدقاً .

فائدة : قوله تعالى فى المصطفين الذين أورثهم الله الكتاب (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) اشترك هؤلاء الثلاثة فى أصل الايمان ، وفى اختيار الله لهم من بين الخليقة وفى أنه منّ عليهم بالكتاب ، وفى دخول الجنة ، وافترقوا فى تكميل مراتب الايمان ، وفى مقدار الاصطفاء من الله وميراث الكتاب ، وفى منازل الجنة ودرجاتها بحسب أوصافهم

أما الظالم لنفسه ، فهو المؤمن الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئاً ؛ وترك من واجبات الايمان مالا يزول معه الايمان بالكلية ، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : من يرد القيامة وقد كفر عنه السيئات كلها . إما بدعاء أو شفاعة أو آثار خيرية

ينتفع بها فى الدنيا أو عذب فى البرزخ بقدرذنوبه ، ثم رفع عنه العقاب وعمل الثواب عمله ، فهذا من أعلى هذا القسم وهو الظالم لنفسه .

القسم الثانى : من ورد القيامة وعليه سيئات ؛ فهذا توزن حسناته وسيئاته ثم هم بعد هذا ثلاثة أنواع .

أحدها : من ترجح حسناته على سيئاته فهذا لا يدخل النار ، بل يدخل الجنة برحمة الله وبحسناته ، وهى من رحمة الله .

ثانيها : من تساوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء هم أصحاب الأعراف ، وهى موضع مرتفع بين الجنة والنار يكونون عليه ، وفيه ما شاء الله ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة ، كما وصف ذلك فى القرآن .

ثالثها : من رجحت سيئاته على حسناته فهذا قد استحق دخول النار ، إلا أن يمنع من ذلك مانع ، من شفاعة الرسول له ، أو شفاعة أحد من أقاربه أو معارفه ممن يجعل الله لهم فى القيامة شفاعة لعلو مقاماتهم على الله وكرامتهم عليه ؛ أو تدركه رحمة الله المحضة بلا واسطة وإلا فلا بد له من دخول النار يعذب فيها بقدر ذنوبه ، ثم مآله إلى الجنة ؛ ولا يبقى فى النار أحد فى قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ، كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبى ﷺ وأجمع عليه سلف الأمة وأئمتها .

وأما المقتصد فهو الذى أدى الواجبات وترك المحرمات ، ولم يكثر من نوافل العبادات ، وإذا صدر منه بعض الهفوات بادر إلى التوبة فعاد إلى مرتبته ، فهؤلاء أهل اليمين ، وأما من كان من أصحاب اليمين (فسلام لك من أصحاب اليمين) فهؤلاء سلموا من عذاب البرزخ أو عذاب النار وسلم الله لهم إيمانهم وأعمالهم فأدخلهم بها الجنة ، كل على حسب مرتبته .

وأما السابق إلى الخيرات فهو الذى كمل مراتب الاسلام وقام بمرتبة الاحسان ، فعبد الله كأنه يراه ، فان لم يكن يراه فانه يراه ، وبذل ما استطاع من النفع لعباد الله ، فكان قلبه ملآنا من محبة الله والنصح لعباد الله ، فأدى الواجبات والمستحبات ؛ وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات المنقصة لدرجته ، فهؤلاء هم صفوة الصفوة ، وهم المقربون فى جنات النعيم إلى الله ، وهم أهل الفردوس الأعلى ، فان الله كما أنه رحيم واسع الرحمة ، فانه حكيم ينزل الأمور منازلها ويعطى كل أحد بحسب حاله ومقامه ، فكما كانوا هم السابقين فى الدنيا إلى كل خير ، كانوا فى الآخرة فى أعلى المنازل ، وكما تخيروا من الأعمال أحسنها ، جعل الله لهم من الثواب أحسنه ، ولهذا كانت عين التسنيم أعلى أشربة أهل الجنة ؛ يشرب منها هؤلاء المقربون صرفا ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجا فى بقية أشربة الجنة التى لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، كما قال تعالى (ومزاجه من تسنيم عينا

يشرب بها المقربون) وهكذا بقية ألوان وأصناف نعيم الجنة لهؤلاء السابقين منه أعلاه وأكمله وأنفسه ، وإن كان ليس فى نعيم الجنة دنى ولا نقص ولا كدر بوجه من الوجوه ، بل كل من تنعم بأى نعيم من نعيمها لم يكن فى قلبه شىء أعلى منه ، فان الله أعطاهم وأرضاهم ، وخيار هؤلاء الأنبياء على مراتبهم ، ثم الصديقون على مراتبهم ، ولكل درجات مما عملوا ، فسبحان من فاوت بين عباده هذا التفاوت العظيم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

فائدة : ورد فى القرآن (الظلم) بمعنى الكفر والشرك الأكبر ، كما قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وقال (إن الشرك لظلم عظيم) ونحوهما . وورد كثيراً بمعنى الجرائم التى دون الشرك كما سبق فى الظالم لنفسه ، ومثل (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) وورد أيضاً عدة آيات يدخل فيها هذا وهذا ، ومثل هذا (الفسق) والمعصية والذنب والسيئة والجرم والخطيئة ونحوها ، فانها وردت فى القرآن لكل واحد من هذه الثلاثة ، فتفسر فى كل مقام بما يناسب ذلك المقام .

فائدة : قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) جمعت السعادة وجميع الاسباب التى تنال بها السعادة ، وهى ثلاثة أشياء : فعل المأمور ، واجتناب المحظور ، وتصديق خبر الله ورسوله . فهذه الثلاثة يدخل فيها الدين كله ، وذلك أن قوله (أعطى) أى جميع ما أمر به من قول وعمل ونية (واتقى) جميع ما نهى عنه من كفر وفسوق وعصيان (وصدق بالحسنى) بما أخبر الله به ورسوله من الجزاء ، فصدق بالتوحيد وحقوقه وجزاء أهله ، فمن جمع ثلاثة الأمور يسره الله لليسرى ، أى لكل حالة فيها تيسير أموره وأحواله كلها ، ومقابل هذا قوله (وأما من بخل) أى ترك ما أمر به - ليس خاصاً بالنفقة - بل معنى البخل المنع ، فاذا منع الواجبات المتوجهة اليه ، القولية أو الفعلية أو المالية ، فقد بخل (واستغنى) أى رأى نفسه غير مفتقر إلى ربه ، وذلك عنوان الكبر والتجرىء على محارم الله (وكذب بالحسنى) أى بلا إله الا الله وحقوقها وجزاء المقيمين لها والتاركين لها (فسنيسره للعسرى) أى لكل حالة عسرة فى معاشه ومعاده .

فائدة : خطابات القرآن للناس خبراً وأمراً ونهياً قسمان :

أحدها : وهو الاكثر جداً خطاب عام يخاطب به جميع الناس ويتعلق الخبر أو الحكم فيهم فى حالة واحدة ، مثل الخبر عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومثل الأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والبر والصلة والعدل والنهى عن ضد ذلك ، وهذا لأن القرآن هداية وبيان للناس ، وهم مستوون فى تعلق تلك الاحكام فيهم ما لم يمنع مانع عجز عن بعض الواجبات فيرتب عليه حكمه .

القسم الثانى : الخطاب العام من جهة ، الخاص من جهة أخرى ، وذلك كالخطاب المتعلق بالعبادات

المعلقة على أوقاتها ، كالأمر بالصلوات الخمس لأوقاتها ، كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) وبالامساك عن المفطرات ، مثل قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فمن جهة أنه موجه إلى جميع المكلفين فانه خطاب عام جميع أهل المشارق والمغارب مخاطبون بذلك ، ومن جهة أن لكل موضع حكما بنفسه ، فانه معلوم أن الوقت الذى تطلع فيه الشمس على هؤلاء أو تغرب ، أو يطلع الفجر أو تزول الشمس غير الوقت الذى توجد فيه هذه الأمور عند الآخرين . فكل يخاطب بحسب حاله وحسب الموضع الذى فيه بلا ريب ، ونظير هذا الأمر باستقبال القبلة للصلاة موجه إلى جميع أهل الأرض ومع ذلك فكل قطر ومحل فلهم جهة يتوصلون بها إلى الكعبة ، ولهذا صرح الله بهذا المعنى بقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فالمقصود واحد والطرق والوسائل إلى هذا المقصود متباينة وكل أحد مأمور بطريقه الخاص ، ونظير ذلك الاخبارات بطلوع الشمس والقمر والكواكب وغروبها لو تحذلق جاهل فقال إن مثل قوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى فى البحر برؤية العين ، وقوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) ينافى المعلوم ، ان الشمس والقمر والكواكب لا تغرب عن الدنيا بالكلية ، فيقال هذا من الجهل والعجمة بمكان سحيق عن الحقائق ، وذلك أن الله لم يقل وجدها تغرب عن جميع الارض أو تطلع على جميع الارض حتى يكون لهذا الجاهل اعتراض ، بل أخبر عن غروبها وطلوعها عن ذلك الموضع وذلك القطر ، كما يفهم الناس كلهم سابقاً ولاحقاً ، ولا فرق بين الاخبارات والاحكام بوجه ، ومن المعلوم أن لكل أهل قطر مطلعاً ومغرباً ، فهذه الخطابات فى الاحكام والاخبارات فى غاية الاحكام التى لا يتطرق اليها اعتراضات المعترض ، ومن اعترض على شىء من ذلك عرف الناس أن ذلك من آثار جهله وحمقه ، وهذا واضح لايحتاج إلى كل هذا ، يفهمه الذكى والبليد ، وهذا مقتضى كون القرآن عربياً ، أنزله الله بما يعقله العباد .

فائدة : ورد فى القرآن عدة آيات فيها ذكر الخلود فى النار على ذنوب وكبائر ليست بكفر مثل قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) ـ (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فما الجمع بينها وبين النصوص المتواترة من الكتاب والسنة أنه لايخلد فى النار إلا الكفار ، وأن جميع المؤمنين مهما عملوا من المعاصى التى دون الكفر فانهم لابد أن يخرجوا منها ، فهذه الآيات قد اتفق السلف على تأويلها وردها إلى هذا الاصل المجمع عليه بين سلف الامة ، وأحسن مايقال فيها إن ذكر الخلود على بعض الذنوب التى دون الشرك والكفر انها من باب ذكر السبب ، وأنها سبب للخلود فى

النار لشناعتها ، وأنها بذاتها توجب الخلود إذا لم يمنع من الخلود مانع ، ومعلوم بالضرورة من دين الاسلام أن الايمان مانع من الخلود ، فتنزل هذه النصوص على الأصل المشهور ، وهو أنه لا تتم الاحكام إلا بوجود شروطها وأسبابها وانتفاء موانعها ، وهذا واضح ولله الحمد ، مع أن بعض الآيات المذكورة فيها ما يدل على أن الخطيئة المراد بها الكفر ، لأن قوله (وأحاطت به خطيئته) دليل على ذلك ، لأن المعاصى التى دون الكفر لا تحيط بصاحبها ، بل لا بد أن يكون معه إيمان يمنع من احاطتها ، وكذلك قوله (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها) فالمعصية تطلق على الكفر وعلى الكبائر وعلى الصغائر ؛ ومن المعلوم أنه إذا دخل فيها الكفر زال الاشكال .

فائدة : ورد فى القرآن آيات كثيرة فيها مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وورد أيضاً آيات أخر فيها مضاعفة أكثر من ذلك ، فما وجه ذلك .

فيقال : أما مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها فلا بد منها فى كل عمل صالح كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) فى عدة آيات

وأما مضاعفة العمل أكثر من ذلك فله أسباب ، إما متعلقة بنفس العامل أو بالعمل ومزيته أو نتائجه وثمراته أو بزمانه أو مكانه

فمن أعظم أسباب مضاعفة العمل إذا حقق العبد فى عمله الاخلاص للمعبود والمتابعة للرسول فمضاعفة الأعمال تبع لما يقوم بقلب العامل من قوة الاخلاص وقوة الايمان .

وكذلك من الأسباب إذا كان العمل ناشئاً عن عقيدة صحيحة سلفية خالصة متلقاة من الكتاب والسنة ، فهذا العبد يكون اليسير من عمله أبرك من الكثير من عمل من ليس كذلك

ومن ذلك ترك ما تهواه النفوس من الفواحش ، مع قوة الداعى اليها لبرهان الايمان والتوكل والاخلاص .

ومن أسباب المضاعفة أن يكون العمل فيه نفع للمسلمين وغناء ، وذلك كالجهاد فى سبيل الله ، الجهاد بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان ، كما قال تعالى فى نفقات أهل هذا الصنف (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)

ويدخل فى هذا سلوك طريق التعليم والتعلم للعلوم الشرعية وما يعين عليها ، وفى الحديث « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقا إلى الجنة »

ومن ذلك العمل والسعى فى المشاريع الخيرية التى ينتفع بها المسلمون فى دينهم ودنياهم ويتسلسل نفعها ، ومن ذلك العمل الذى إذا عمله العبد كثر مشاركوه والمقتدون به فيه

ومن ذلك إذا كان العمل له وقع عظيم ونفع كبير ، كانجاء المضطرين ، وكشف كربات المكروبين ، فكم من عمل من هذا النوع هدم الله به ذنوب العبد كلها وأوصله به إلى رضوانه وقصة البغى التى سقت الكلب الذى كاد يموت من العطش شاهدة بذلك

ومن ذلك علو مقام العامل عند الله ورفعة درجته ، كما قال تعالى (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن) وقوله قبلها (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين)

ومن ذلك الصدقة من كسب طيب وقوة إخلاص

ومن ذلك العمل الواقع فى زمان فاضل أو مكان فاضل .

ومن أهم وأعظم مايضاعف به العمل تحقيق مقام الاحسان فى القيام بعبودية الله ، وفى الحديث « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » فالصلاة والقراءة والذكر وغيرها من العبادات إذا كانت بقوة حضور قلب وإيمان كامل ، فلا ريب أن بينها وبين عبادة الغافل درجات تنقطع دونها أعناق المطى .

وأسباب مضاعفة الثواب كثيرة ، ولكن نبهنا على أصولها .

ومما هو كالمتفق عليه بين العلماء الربانيين أن الاتصاف فى جميع الأوقات بقوة الاخلاص لله والنصح لعباد الله ، ومحبة الخير للمسلمين مع اللهج بذكر الله لا يلحقها شىء من الأعمال ، وأهلها سابقون لكل فضيلة وأجر وثواب ، وبقية الأعمال تبع لها ، فأهل الاخلاص والاحسان والذكر هم السابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم .

فائدة : قد أمر الله فى كتابه بالتفكر والتدبر والنظر والتبصر وغيرها من الطرق التى تنال بها العلوم ، وأثنى على أهلها ، وأخبر أن كتابه أنزل لهذه الحكم ، وأثنى على العلم واليقين ومدح أهلهما ونهج جميع طريق يوصل اليها .

فاعلم أن الذى يجمع أشتات هذه الطرق وأنواعها وأجناسها ثلاثة طرق كلية . أحدها طريق الاخبارات الصادقة . والثانى طريق الحس . والثالث طريق العقل ، ووجه الحصر أن المعلومات إما أن تدرك بحاسة السمع أو البصر أو اللمس أو الذوق ، وإما أن تدرك بالعقل ، وإما أن تنال بالاخبار وكل واحد من هذه الثلاثة قد يقارن الآخر ، وخصوصاً العقل والأخبار الصادقة فانهما لا يتفارقان

وقد يكون العلم ضرورياً بديهياً يضطر الانسان الى علمه والتصديق به من غير حاجة إلى زيادة نظر وتفكر . وقد يكون نظرياً يحتاج إلى ذلك .

ثم العلم بهذه الأمور مراتب متفاوتة .

وأعلى درجات العلم واليقين وأوضحها وأنفعها للعباد خبر الله وخبر رسله ، فانه لا أصدق من الله قيلا ، ولا أصدق منه حديثاً (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) فكل ماقاله الله وقاله رسوله

فهو الحق والصدق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، وهو يهدى إلى كل دليل عقلى ونقلى ، وفى خبر الله وخبر رسله من البيان العظيم والتفصيلات لجميع أجناس العلوم النافعة مالا تصل اليه علوم الخلائق كلهم أولهم وآخرهم .

وإذا أردت أن تعرف أن الحق الصحيح هو ما قاله الله وقاله رسوله ، وأن ما ناقضه ونافاه فهو باطل بلا ريب مبنى على جهالات ومواد فاسدة .

فانظر إلى أصول الدين وقواعده وأسسه كيف اتفقت عليها الأدلة النقلية والعقلية والحسية انظر إلى توحيد الله ووجوب تفرده وإفراده بالوحدانية وتوحده بصفات الكمال ، كيف كانت الكتب السماوية مشحونة منها ، بل هى المقصود الأعظم منها ، وخصوصاً القرآن الذى هو من أوله إلى آخره يقرر هذا الأصل الذى هو أكبر الأصول وأعظمها

وانظر كيف اتفقت جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ على تقرير توحيد الله وتفرده بالوحدانية وسعة الصفات وعظمتها من سعة العلم والحكمة وعموم القدرة والارادة وشمول الحمد والملك والمجد والجلال والجمال والحسن والاحسان فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم انظر إلى هذا الأصل العظيم فى قلوب سادات الخلق أولى الالباب الكاملة والعقول التامة كيف تجده أعظم من كل شىء ، وأقوى وأكبر من كل شىء ، وأوضح من كل شىء ، وانه مقدم عندهم على الحقائق كلها ، وأنهم يعلمونه علماً ضرورياً بديهيا قبل الأدلة النظرية ، ويعلمون أن كل ما عارضه فهو أبطل الباطل ، ثم انظر إلى كثرة البراهين المنقولة والمعقولة والمحسوسة الشاهدة لله بالوحدانية

ففى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فوجود جميع الأشياء فى العالم العلوى والسفلى وبقاؤها وما هى عليه من الأوصاف المتنوعة كل ذلك من الأدلة والبراهين على وجود مبدعها ومعدها وممدها بكل ما تحتاج اليه ، ومن أنكر هذا فقد باهت وكابر وأنكر أجلى الامور وأعظم الحقائق .

ومن ههنا تعلم أن الماديين الملحدين أضل الخلق وأجهلهم وأعظمهم غروراً واغتراراً حيث اغتروا حين وقفوا على بعض علوم الكون الارضى المادى الطبيعى ، وقفت عقولهم القاصرة عندها واستولت عليهم الحيرة وتكبروا بمعارفهم الضئيلة وقالوا : نثبت ما وصلت اليه معارفنا وننفى ما سواه ، فتعرف بهذا أن نفيهم هذا جهل وباطل باتفاق العقلاء ، فان من نفى مالا يعرفه فقد برهن على كذبه وافترائه ، فكما أن من أثبت شيئا بلا علم فهو ضال غاوى ، فكذلك من نفى شيئا بلا علم ، وتعرف أيضا أن إثباتهم لعلوم الطبيعة التى عرفوها وانتهت اليها معارفهم أن هذا الاثبات منهم قاصر لم يصلوا إلى غايته وحقيقته ، فلم يصلوا بذلك إلى خالق الطبيعة ومبدعها ، ولم

يعرفوا المقصود من نظامها وسببيتها ؛ بل عرفوا ظاهراً منها وهم عن النافع غافلون ، فأثبتوا بعض السبب وعموا عن المقصود ، وهم فى علمهم هـذا حائرون ، لا تثبت لهم قدم على أمر من الأمور ؛ ولا تثبت لهم نظرية صحيحة مستقيمة ، فهم دائماً فى خلط وخبط وتناقض ، وكلما جاءهم من البراهين الحق ما يبطل قولهم قالوا : هذا من فلتات الطبيعة ، وكلما برز مبرز من فحولهم وأذكيائهم ابتكر له طريقة غير طريقـة إخوانه ؛ فصدق عليهم قوله تعالى (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج) وقوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينـات فرحوا بما عنـدهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)

والمقصود أن هذا الأصل العظيم قد دلت عليه جميع الأدلة بأجناسها وأنواعها ، ودل عليه الشرع المحكم والقدر العام المنظم ، ولم يقدح فيه إلا هؤلاء الضلال الذين كان قدحهم فيه أسقط اعتبارهم وبرهن على فساد عقولهم .

وانظر إلى الأصل الثانى وهو إثبات الرسالة ، وأن الله قد أقام على صدق رسله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر ، وخصوصاً محمد ﷺ ، فان آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة : سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم ، وحثه على كل خلق كريم وعمل صالح ونفع واحسان وعدل ، ونهيه عن ضد ذلك ، وما جاء به من الوحى : الكتاب والسنة ، كله جملة وتفصيلا براهين على نبوته وصدقه مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه على الأديان كلها ، ومن اجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التى لا تعد أنواعها فضلا عن أفرادها ، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة ، وعن عجز المعارضين له فى مقامات التحدى كلها وعجزهم عن نصر باطلهم ولا يزال الباطل بين يدى ما جاء به الرسول مخذولا راهقا ، بحيث أن القائمين بما جاء به الرسول القائمين بمعرفة دينه يتحدّون جميع أهل الأرض أن يأتوا بصلاح أو فلاح أو رقى حقيقى أو سعادة حقيقية بجميع وجوهها ، وأنه محال أن يتوصل إلى شىء من ذلك بغير ما جاء به الرسول وأرشد اليه ودل الخلق عليه ، ولولا الجهل بما جاء به الرسول والتعصبات الشديدة من الاعداء والمقاومات العنيفة ، واقامة الحواجز المتعـددة العنيفة لمنع الجماهير والدهماء من رؤية الحق الصريح والدين الصحيح ، لم يبق على وجه الارض دين سوى دين محمد ﷺ لدعوته وإرشاده وحثه على كل صلاح وإصلاح وخير ورشد ، ولكن مقاومات الاعداء ونصر القوة للباطل بالتمويهات والتزويرات وتقاعد أهل الدين عن القيام به ونصرته هى التى منعت أكثر الخلق من الوقوف على حقيقته

ثم انظر إلى الأصل الثالث وهو اثبات المعاد والجزاء كيف اتفقت الكتب السماوية والرسل العظام وأتباعهم على اختلاف طبقاتهم وتباين أقطارهم وأزمانهم وأحوالهم على الايمان به والاعتراف

التام به ، وكم أقام الله عليه من الأدلة النقلية والعقلية . وكذلك الحسية المشاهدة ما يدل أكبر دلالة عليه ، وكم أشهد عباده فى هذه الدار أنموذجاً من الثواب والعقاب ، وأراهم حلول المثلات بالمكذبين ، وأنواع العقوبات الدنيوية بالمجرمين ؛ كما أراهم نجاة الرسل ومن تبعهم من المؤمنين وإكرامهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وكم أبطل الله كل شبهة يقدح بها المكذبون بالمعاد ، كما أقام الادلة على إبطال الشبه الموجهة من المكذبين إلى توحيده وصدق رسله ، وبين سفههم وفساد عقولهم ، وأنه ليس لهم من المستندات على انكار ذلك إلا استبعادات مجردة ؛ وقياس قدرة رب العالمين على قدر المخلوقين .

والمقصود أن هذه الاصول العظيمة قد قامت البراهين القواطع عليها من كل وجه وبكل اعتبار ، وجميع الحقائق الصحيحة غيرها لم يقم على ثبوتها وعلمها عشر معشار ما قام على هذه الأصول من البراهين المتنوعة ؛ ففى هذا دليل على أن كل من أثبت معلوماً أو حقيقة من الحقائق بطريق عقلى أوخبرى أوحسى ، ثم نفى مع ذلك واحداً من هذه الاصول الثلاثة التى هى أساس الدين ، فقد كابر عقله وحسه وعلمه ونادى على نفسه بالتناقض العظيم ، لان الطرق التى دلته على اثبات معلوماته هى وأضعافها وأضعاف أضعافها وما هو أقوى منها وأوضح قد دلت على التوحيد والرسالة والمعاد .

واعلم أن المعلومات بخبر الله وخبر رسله عامة يدخل فيها الاخبار عن الله وعن ملائكته وعن الغيوب كلها وأمور الشرع والقدر ، وهى الاخبار المعصومة الصادقة التى يعلم كذب ماخالفها وبطلانه . ولنكتف بهذا لانموذج من الأمثلة ، والله أعلم .

وبعد هذا إخبار الصادقين عن المواضع والحوادث والوقائع التى شاهدوها ، وهذا النوع بحسب صدق المخبرين ، وتواتر خبرهم يفيد العلم القطعى . وكذلك اخبار الصادقين عن العلوم التى سمعوها والالفاظ التى نقلوها ، وأصدق الناقلين هنا حملة الشريعة المحمدية ، لشدة عنايتهم وكمال صدقهم وقوة دينهم ، وأنهم بالخصوص حفظوا عن الخطأ العمومى ، والاتفاق على غير الصواب

ومن الامور التى تعلم بالعقل أن العقول الصحيحة التى لم تغير فطرتها ، ولم تفسد بالعقائد الفاسدة ، تعلم علماً يقيناً حسن التوحيد والاخلاص لله ، كما تعلم قبح الشرك ، وتعلم حسن الصدق والعدل والاحسان الى المخلوقين ، كما تعلم قبح ضده ، وتعلم وجوب شكر المنعم ووجوب بر الوالدين وصلة الاقارب ، والقيام بحق من له حق عليك ، وتستحسن كل صلاح واصلاح ، وتستقبح كل فساد وضرر ، ومن أشرف مايعلم بالعقل أنه مركوز فى العقول أن الكمال المطلق لله وحده ، وأن له الحكمة التامة فى خلقه وشرعه ، وأنه لا يليق به أن يترك خلقه سدى

لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون . ومن المعلوم بالحس ما يدرك بالحواس ، كسمع الأصوات وإبصار الاعيان وهو من أتم المعارف ، فانه ليس الخبر كالمعاينة ، ومما يدرك بالحس ما يدرك بالشم ، كشم الروائح الطيبة والخبيثة ، وما يدرك باللمس ، كالحرارة والبرودة ، وما يدرك بتحليل الاشياء والوقوف على موادها وجواهرها وصفاتها ، كل هذا من مدركات الحس وبالجملة فطرق العلم إلى المعلومات كثيرة جداً ، وكلما كان الشىء أعظم ومعرفته أهم ، كانت الطرق الموصلة اليه أكثر وأوضح وأصح وأقوى ؛ كما تقدمت الاشارة إلى التوحيد والرسالة والمعاد ، والله أعلم .

فائدة : لما ذكر البارى نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك قال (لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ذكر فيها أركان الشكر الثلاثة : وهى الاعتراف والتذكر لنعمة الله ، والتحدث بها والثناء على الله بها ، والخضوع لله والاستعانة بها على عبادته ، لأن المقصود من قوله (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) الاعتراف بالجزاء والاستعداد له ، وأن المقصود من هذه النعم أن تكون عوناً للعبد على ما خلق له من طاعة الله ، وفى قوله (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) تقييدها فى هذه الحالة وقت تبوء النعمة ،لأن كثيراً من الخلق تسكرهم النعم وتغفلهم عن الله ، وتوجب لهم الأشر والبطر . فهذه الحالة التى أمر الله بها هى دواء هذا الداء المهلك ، فانه متى ذكر العبد أنه مغمور بنعم الله ، وأن أصولها وتيسيرها وتيسير أسبابها وبقائها ودفع مايضادها أو ينقصها كله من فضل الله وإحسانه ليس من العبد شىء ، خضع لله وذل وشكره وأثنى عليه وبهذا تدوم النعمة ويبارك الله فيها ، وتكون نعمة حقيقية ؛ فأما إذا قابلها بالاشر والبطر ونسى المنعم ، وربما تكبر بها على عباد الله ، فهذه نقمة فى صورة نعمة ، وهى استدراج من الله للعبد سريعة الزوال وشيكة بالعقاب عليها والنكال ، نسأل الله أن يوزعنا شكر نعمه .

فائدة : بل فوائد عظيمة فى ذكر شىء من الاسباب التى ذكرها الله فى كتابه موصلة إلى المطالب العالية

لاريب أن من حكمة الله ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية ، فاقتضت حكمته وسنته التى لا تتبدل أن هذه المنافع المتنوعة وخصوصاً الأمور العظام لا تحصل إلا بالسعى بأسبابها الموصلة اليها ، وكذلك المضار لا تندفع إلا بالسعى بالأسباب التى تدفعها ، وقد بين فى كتابه غاية التبيين هذه الاسباب وأرشد العباد اليها فمن سلكها فاز بالمطلوب ونجا من كل مرهوب .

فأصل الأسباب كلها الايمان والعمل الصالح ، جعل الله خيرات الدنيا والآخرة وحصولها بحسب قيام العبد بهذين الأمرين ، وقد ذكر الله فى القرآن من هذا شيئاً كثيراً جداً ، وقد تقدم فى هذا الكتاب شىء من ذلك عند ذكر فوائد الايمان .

وجعل الله القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميع مطالبه ، شاهده قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، أليس الله بكاف عبده) أى بمن يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً

وجعل الله التقوى والسعى والحركة سبباً للرزق ، شاهده قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقوله (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)

وجعل الله التقوى والايمان وتكرار دعوة ذى النون سبباً للخروج من كل كرب وضيق وشدة ، شاهده الآية السابقة ، وكذلك قوله (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين)

وجعل الله الدعاء والطمع فى فضله سبباً لحصول جميع المطالب ، دليله قوله تعالى (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) وقوله (وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين)

وجعل الله الاحسان فى عبادة الخالق والاحسان إلى الخلق سبباً يدرك به فضله وإحسانه العاجل والآجل ، شاهده الآية السابقة (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقوله (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان - وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومن أحبه الله نال جميع ما يطلب .

وجعل الله التوبة والاستغفار والايمان والحسنات والمصائب مع الصبر عليها أسباباً لمحو الذنوب والخطايا ، شاهده قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - إن الحسنات يذهبن السيئات - إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الصبر سببا وآلة تدرك بها الخيرات ويستدفع بها المكريهات ، شاهده الآية السابقة وقوله (واستعينوا بالصبر والصلاة) أى على جميع أموركم . ولما ذكر الله ما وصل اليه أهل الجنة من كمال النعيم وزوال كل محذور ، ذكر أن هذا أثر صبرهم ؛ فقال (سلام عليكم بما صبرتم - أولئك يجزون الغرفة بما صبروا)

ومنه أنه جعل الصبر واليقين تنال بهما أعلى المقامات ، وهى الامامة فى الدين ، دليله قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

وجعل الله مفتاح العلم حسن السؤال وحسن الانصات والتعلم والتقوى وحسن القصد ، شاهده قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إن

تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) أى نوراً وعلماً تفرقون به بين الحقائق كلها ، وقوله (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) الآية

وجعل الله الاستعداد للاعداء بكل مستطاع من القوة ، وأخذ الحذر منهم سبباً لحصول النصر والسلامة من شرورهم ، شاهده قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)

وجعل الله اليسر يتبع العسر ، والفرج عند اشتداد الكرب ، شاهده قوله تعالى (إن مع العسر يسرا - سيجعل الله بعد عسر يسرا - أم من يجيب المضطر إذا دعاه)

وجعل الله الشكر سبباً للمزيد منها ومن غيرها ، وكفران النعم سبباً لزوالها ، شاهده قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد)

وجعل الله الصبر والتقوى سبباً للعواقب الحميدة والمنازل الرفيعة ؛ شاهده قوله تعالى (والعاقبة للمتقين - إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين)

وجعل الله الجهاد سببا للنصر وحصول الأغراض المطلوبة من الأعداء والوقاية من شرورهم شاهده قوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين . عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا)

وجعل الله لمحبته التى هى أعلى ما ناله العباد أسبابا ، أهمها وأعظمها متابعة رسوله محمد ﷺ فى الأقوال والأفعال وسائر الأحوال ، قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ومن أسبابها ما ذكره بقوله (والله يحب الصابرين - يحب المحسنين - يحب المتقين - يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

وجعل الله النظر إلى النعم والفضل الذى أعطيه العبد وغض النظر مما لم يعطه سببا للقناعة شاهده قوله تعالى (يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)

وجعل الله القيام بالعدل فى الأمور كلها سببا لصلاح الأحوال ، وضده سببا لفسادها واختلافها شاهده قوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

وجعل الله كمال اخلاص العبد لربه سببا يدفع به عنه المعاصى وأسبابها وأنواع الفتن ، شاهده قوله تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)

وجعل الله قوة التوكل عليه مع الايمان حصنا حصينا يمنع العبد من تسلط الشيطان ؛ خصوصا إذا انضم إلى ذلك الاكثار من ذكر الله والاستعاذة بالله من الشيطان ، شاهده قوله تعالى (إنه

ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) وقال (قل أعوذ برب الفلق) و (قل أعوذ برب الناس) إلى آخرهما .

وجعل الله مفتاح الايمان واليقين التفكر فى آيات الله المتلوة وآياته المشهودة والمقابلة بين الحق والباطل بحسن فهم وقوة بصيرة ، شاهده قوله تعالى (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) والأمر بالتفكر بالمخلوقات فى عدة آيات ، وقوله (إن فى ذلك لآيات للمؤمنين) فهى سبب للايمان ، والايمان موجب للانتفاع بها .

وجعل الله القيام بأمور الدين سبباً لتيسير الأمور ، وعدم القيام بها سبباً للتعسير ، شاهده قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

وجعل الله العلم النافع سببا للرفعة فى الدنيا والآخرة ، شاهده قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)

وجعل الله كون العبد طيبا فى عقيدته وخلقه وعمله سببا لدخول الجنة وللبشارة عند الموت شاهده قوله تعالى (طبتم فادخلوها خالدين) وقوله (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين)

وجعل الله مقابلة المسىء بالاحسان ، وحسن الخلق سببا يكون به العدو صديقا ، وتتمكن فيه صداقة الصديق ، دليله قوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم - فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وبذلك تحصل الراحة للعبد وتتيسر له كثير من أحواله

وجعل الله الانفاق فى محله سببا للخلف العاجل والثواب الآجل ، شاهده قوله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين)

وجعل الله لرزقه أبوابا وأسبابا متنوعة ، فمتى انغلق عن العبد باب منها فلا يحزن ، فان الله يفتح له غيره ، وقد يكون أقوى منه وأحسن ، وقد يكون مثله ودونه ، شاهده قوله تعالى (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وقوله (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) الآية

وجعل الله التحرز والبعد عن الموبقات المهلكة والحذر من وسائلها طريقا سهلا هينا لتركها شاهده قوله تعالى (تلك حدود الله) أى محارمه (فلا تقربوها) أى لا تفعلوها ولا تحوموا حولها فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وإذا قيل مثل هذه الآية (تلك حدود الله فلا تقربوها) كان المراد بالحدود المحارم ، وأما إذا قيل (تلك حدود الله فلا تعتدوها) فهذه الحدود التى حددها الله للمباحات فعلى العبد أن لا يتجاوزها ، لأنه إذا تجاوز المباح وقع فى المحرم ، فافهم الفرق بين الأمرين

وجعل الله السبب الوحيد القوى المثمر للثمرات الجليلة للدعوة إلى سبيله هو ما تضمنته هذه الآية (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) فالحكمة وضع الدعوة فى موضعها، ودعاية كل أحد بحسب ما يليق بحاله ويناسبه ويكون أقرب لحصول المقصود منه (والموعظة الحسنة) البالغة فى الحسن مبلغاً، يصير لها من التأثير وسرعة الانقياد مايناسب مقتضى الحال، فالموعظة بيان الأحكام مع ذكر ما يقترن بها من الترغيب فى ذكر مصالحها ومنافعها وخيراتها الحاملة عليها، وذكر ما يقترن بها من الترهيب على فاعل المحرمات أو تارك الواجبات من العقوبات والخسران والحسرات وحرمان الخير العاجل والآجل

(والمجادلة بالتى هى أحسن) بالعبارات الواضحة والبراهين البينة التى تحقق الحق وتبطل الباطل، مع الرفق واللين وعدم المغاضبة والمشاتمة

وقد علم الله مع ذلك أن الناس ثلاثة أقسام؛ كل يدعى بالطريق التى تناسبه:

القسم الأول: المنقادون الملتزمون الراغبون فى الخير، الراهبون من الشر، فهؤلاء لماعندهم من الاستعداد لفعل المأمورات وترك المنهيات والاشتياق إلى الاعتقاد الصحيح؛ فقط يكتفى ببيان الأمور الدينية لهم والتعليم المحض

والقسم الثانى: الذين عندهم غفلة وإعراض واشتغال بأمور صادة عن الحق، فهؤلاء مع هذا التعليم يدعون بالموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، لأن النفوس لا تلتفت إلى منافعها، ولا تترك أغراضها الصادة لها عن الحق علماً وعملا إلا مع البيان لها أن ترغب وترهب بذكر ما يترتب على الحق من المنافع وعلى الباطل من المضار، والموازنة بين الأمور النافعة والضارة

والقسم الثالث: المعارضون أو المعاندون المكابرون المتصدون لمقاومة الحق ونصرة الباطل فهؤلاء لا بد أن يسلك معهم طريق المجادلة بالتى هى أحسن بحسب ما يليق بالمجادِل والمجادَل وبتلك المقالة وما يقترن بها، وإذا أردت تطبيق هذه الأمور الثلاثة تماماً فانظر إلى دعوات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم التى حكاها الله فى كتابه مع أممهم المستجيبين، والمعرضين والمعارضين؛ تجدها محتوية على غاية الحسن فى كل أحوالها

ثم انظر إلى دعوة سيدهم وإمامهم محمد ﷺ وما سلك من الطرق المتنوعة فى دعاية الخلق عموما وخصوصا على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وبحسب أحوالهم، وبحسب الأقوال والأحكام التى يدعو اليها، تجده قد فاق فى ذلك الأولين والآخرين، والآثار أكبر دليل على قوة المؤثر

وجعل الله السبب لفصل الخصام المرضى للمتشاجرين المنصفين فى جميع المقالات، الذى هو خير فى الحال وأحسن فى المآل؛ ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ شاهده قوله تعالى (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن

تأويلا) وجعل الله صلة ما أمر به أن يوصل من البر وصلة الأرحام والقيام بحق من له حق عليك سبباً تنال به مكارم الأخلاق ويتبوء به المنازل العالية فى جنات النعيم ، شاهده قوله تعالى (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب - إلى - جنات عدن يدخلونها)

وجعل الله السوابق الحميدة للعبد وتعرفه لربه فى حال الرخاء سبباً للنجاة من الشدائد وحصول أعظم الفوائد ، شاهده قوله تعالى (فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون) وقول أهل الجنة فيها (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم)

وجعل الله لشرح الصدر ونعيمه وطمأنينته أسبابا متعددة : اليقين والايمان والاكثار من ذكر الله وقوة الانابة اليه ، والقناعة بما اعطى من الرزق ، وحصول العلم النافع ، وترك الذنوب والمبادرة بالتوبة مما وقع منها ، وشواهد هذا كثيرة ، منها قوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب - أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه - إن الأبرار لفى نعيم) وشمول هذا النعيم لنعيم القلوب فى الدنيا ظاهر . من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون - كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون .

وجعل الله ضرب الأمثال فى كتابه طريقاً عظيما من طرق التعليم الذى تتبين وتتوضح به المطالب العالية والعقائد الصحيحة والفاسدة ، كما مثل كلمة التوحيد والعقيدة الحقة الصحيحة (بشجرة طيبة أصلها ثابت) فى قلب المؤمن (وفرعها) من الأعمال والأخلاق (فى السماء تؤتى أكلها) أى منافعها (كل حين باذن ربها) ومثل ضد ذلك بالشجرة الخبيثة التى لا لها أصل ثابت ولا فرع نافع . ومثل المشرك بربه كالعبد الذى يتنازعه شركاء متشاكسون ، والموحد المخلص لله السالم من تعلقه بغيره .

وكذلك مثل الشرك والمشرك واتخاذه ولياً من دون الله يتعزز به وينتصر (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) ومثل وحيه بمنزلة الغيث النافع . وقلوب الخلق بمنزلة الأراضى الطيبة القابلة والخبيثة ، وبين ذلك ، وهى أمثلة محسوسة يوضح الله بها المطالب النافعة ، وهو يقسم تعالى على أصول الدين التى يجب على الخلق الايمان بها : كالتوحيد والرسالة والمعاد وما يتفرع عنها ، وضرب الأمثال من تصريف الله الآيات لعباده بأعلى أساليب الكلام المؤثرة الموضحة للحقائق ، فتأمل اقسامات القرآن تجدها كذلك ، ولذلك حث الله عليها ومدح من يتفكر فيها ويعقلها ، فقال (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وفى الآية الأخرى (وما يعقلها إلا العالمون)

فصل فى ذكر حدود ألفاظ كثر مرورها فى القرآن
أمراً بها أو نهياً عنها أو مدحاً لها أو ذماً لها

فالله تعالى أثنى على من عرف حدود ما أنزل على رسوله وذم من جهلها ؛ وهذه ألفاظ جليلة يتعين على طالب العلم معرفة حدودها ، ليعرف ما يدخل فيها وما يخرج منها ؛ وتتفق الألفاظ المأمور بها فى كثير من الامور ، وقد يكون بينها فروق ، وكذلك المنهيات ، وهذا من إحكام القرآن ، وأنه يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)

الاسلام والايمان : أما الاسلام فهو استسلام القلب لله وإنابته ، والقيام بالشرائع الظاهرة والباطنة ، وأما الايمان فهو التصديق التام والاعتراف بأصوله التى أمر الله بالايمان بها ، ولا يتم ذلك إلا بالقيام بأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، ولهذا سمى الله كثيراً من الشرائع الظاهرة والباطنة إيماناً ، وبعض الآيات يذكر أنها من لوازم الايمان فعلى هذا : الايمان عند الاطلاق يدخل فيه الاسلام ، وكذلك بالعكس ؛ وإذا جمع بين الايمان والاسلام ، فسر الايمان بما فى القلب من التصديق والاعتراف وما يتبع ذلك ، وفسر الاسلام بالقيام بعبودية الله كلها ، الظاهرة والباطنة

الاحسان : قسمان . احسان فى عبادة الخالق ، وهو بذل الجهد فى إكمالها وإتقانها والقيام بحقوقها الظاهرة والباطنة . وإحسان إلى المخلوقين بإيصال جميع ما يستطيعه العبد من نفع علمى وبدنى ومالى للخلق ونصيحة دينية أو دنيوية ومساعدة وحض على الخير ؛ ولهذا كان المحسنون يتفاوتون تفاوتاً عظيماً بحسب قيامهم بالاحسان المتنوع إلى الخلق ، برهم وفاجرهم ، حتى الحيوان البهيم ، كما قال ﷺ « إن الله كتب الاحسان على كل شىء » الحديث .

الهدى والهداية : نوعان . هداية العلم والارشاد والتعليم ، وهداية التوفيق وجعل الهدى فى القلب ، وهذان يطلبان من الله تعالى ، إما على وجه الاطلاق كقول العبد : اللهم اهدنى ، أو اللهم إنى أسألك الهدى ، وإما على وجه التقييد بطريقها النافع ، كقول المصلى : اهدنا الصراط المستقيم ومن حصلت له الهداية سمى مهتدياً ، وأعظم ما تحصل به الهداية القرآن ، ولهذا سماه الله هدى مطلقاً ، وقال (هدى للمتقين) وقال (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ويشمل جميع الامور الدينية والدنيوية النافعة .

العلم واليقين : فالعلم هو تصور المعلومات على ماهى عليه ، ولهذا يقال : العلم ما قام عليه الدليل والعلم النافع ما كان مأخوذاً عن الرسول ، واليقين أخص من العلم بأمرين . أحدهما : أنه العلم الراسخ القوى الذى ليس عرضة للريب والشك والموانع ، ويكون علم يقين إذا ثبت بالخبر ، وعين يقين إذا شاهدته العين والبصر ، ولهذا يقال ليس الخبر كالمعاينة ، وحق يقين إذا ذاقه العبد وتحقق به .

الأمر الثانى : أن اليقين هو العلم الذى يحمل صاحبه على الطمأنينة بخبر الله ، والطمأنينة بذكر الله ، والصبر على المكاره ، والقوة فى أمر الله ؛ والشجاعة القولية والفعلية ، والاستحلاء للطاعات وأن يهون على العبد فى ذات الله المشقات وتحمل الكريهات ، فهذه الآثار الجليلة التى هى أعلى وأحلى من كل شىء من آثار اليقين .

الصبر : حبس النفس على المشقات طلباً لرضا الله ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام : صبر على طاعة الله ، وخصوصاً الطاعات الشاقة ، حتى يؤديها على وجه الكمال ، وصبر عن معصية الله ، خصوصاً المعصية التى تدعو النفس اليها دعاءاً قوياً ، حتى يجاهد نفسه فيتركها لله ، وصبر على أقدار الله المؤلمة ، خصوصاً إذا عظمت المصيبة ، حتى لايتسخطها ، وربما وصلت به الحال إلى الرضا عن الله

الشكر لله : هو الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة ، والتحدث بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم دون معصيته ، ولابد أن يقترن هذا بالخضوع للمنعم ومحبته ، فبهذه الاركان الخمسة يكون الشكر تاماً :

البر والتقوى لله : إذا أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، فانه اسم جامع للقيام بكل ما يحبه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وترك مايكرهه الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وإذا جمع بينهما نحو (وتعاونوا على البر والتقوى) فسر البر بالقيام بعقائد الايمان وأخلاقه ؛ وأعمال البر كلها القاصرة والمتعدية وفسرت التقوى باتقاء ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان .

الصدق والكذب : الصدق هو استواء الظاهر والباطن على الاستقامة على الصراط المستقيم فالصدق فى العقائد أن تكون عقيدة العبد صادقة سلفية متلقاة عن كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم ، والصدق فى الاخلاق أن يكون القلب ملآناً من الايمان والاخلاص والرغبة والنصيحة لعباد الله ومحبة الخير لهم ، والصدق فى الاقوال أن يكون قائلا للصدق مصدقاً به ، والصدق فى الاعمال الاجتهاد فى تكميلها واتقانها ، والكذب ما ناقض ذلك كله ، ولذلك كان الصدق والكذب مراتب ، ولايزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا

العدل والظلم : العدل هو سلوك الطريق المستقيم المعتدل فى العقائد والأخلاق والأقوال والافعال كما يقال فى الصدق ، والظلم ما ناقض ذلك ، ولهذا انقسم الظلم الى ثلاثة أقسام كلها منافية للعدل ـ الظلم فى التوحيد بالاشراك بالله ؛ قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) وظلم الخلق فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم ، وظلم العبد نفسه فيما دون الشرك ، ولا يتم للعبد العدل الكامل حتى يدع جميع هذه الاقسام ، ويتوب الى ربه مما وقع منه ، ويخرج من حق العباد اليهم ، ولهذا كان القيام بالدين كله من العدل والقسط .

« العبادة والعبودية لله » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة ، ولهذا كان تارك المعصية لله متعبداً متقرباً إلى ربه بذلك ، ولا تتم العبادة إلا بالاخلاص « الاخلاص لله وحده » بأن يقصد العبد وجه الله ورضاه وثوابه فى أعماله الظاهرة والباطنة ، وضده العمل للرياء والسمعة ولأجل عرض الدنيا وميزان هذا قوله تعالى عن خيار الخلق (يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) وقوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر اليه . وجميع الأعمال على هذا النمط ، وقد يراد بالهجرة هنا الهجرة العامة التى قال فيها النبى ﷺ : والمهاجر من هجر ما نهى الله ورسوله عنه « الخوف والخشية والخضوع والاخبات والوجل » معانيها متقاربة فالخوف يمنع العبد عن محارم الله ، وتشاركه الخشية فى ذلك وتزيد أن خوفه مقرون بمعرفة الله . وأما الخضوع والاخبات والوجل : فانها تنشأ عن الخوف والخشية لله فيخضع العبد لله ويخبت إلى ربه منيباً اليه بقلبه ويحدث له الوجل ، وأما الخشوع فهو حضور القلب وقت تلبسه بطاعة الله وسكون ظاهره وباطنه ، فهذا خشوع خاص . وأما الخشوع الدائم الذى هو وصف خواص المؤمنين فينشأ من كمال معرفة العبد بربه ومراقبته فيستولى ذلك على القلب كما تستولى المحبة « القنوت » ورد فى القرآن على أحد معنيين معنى خاص بمعنى الخشوع ، ومعنى عام وهو قنوت المخلوقات كلها لخلق الله وتدبيره وتصريفه « الذكر لله » الذى ورد فى القرآن الأمر به والثناء على أهله ، وما رتب عليه من الجزاء يطلق على جميع الطاعات الظاهرة والباطنة ، القولية والفعلية ، فكلما تصوره القلب أو أراده أو فعله العبد أو تكلم به مما يقرب إلى الله فهو ذكر لله ، والله تعالى شرع العبادات كلها لاقامة ذكره ، فهى ذكر لله ويطلق على ذكر الله باللسان بذكر أوصافه وأفعاله والثناء عليه بنعمه وتسبيحه وتكبيره وتحميده والتهليل والصلاة على النبى ﷺ . ومن ذكره ذكر أحكامه تعلمها وتعليمها ، ولهذا مجالس التعلم والتعليم يقال لها مجالس الذكر ، وأفضل أنواع الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان « حدود الله » يراد بها ما حرمه ومنعه عباده ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويراد بها ما أباحه وأحله لعباده وقدره وفرضه ، فيقال فيها (تلك حدود الله فلا تعتدوها) أى لا تجاوزوا ما أحل الله إلى ما حرم الله ، ولا تتجاوزوا ما قدره الله للعباد إلى ما يخالف تقديره « الأمانة » هى الأمور التى يؤتمن عليها العبد فيشمل الامانة التى بينه وبين الله ، فانه ائتمن عبده على اقامة الواجبات وترك المحرمات ، فالقيام بذلك أداء للأمانة ومراعاة لها ، وترك بعض الواجبات وخصوصا السرية التى لا يطلع عليها إلا الله أو التجرىء على بعض المحرمات ترك للأمانة واتصاف بالخيانة ، ويشمل أيضا الأمانات التى بينك وبين الخلق فى الدماء والأموال والحقوق

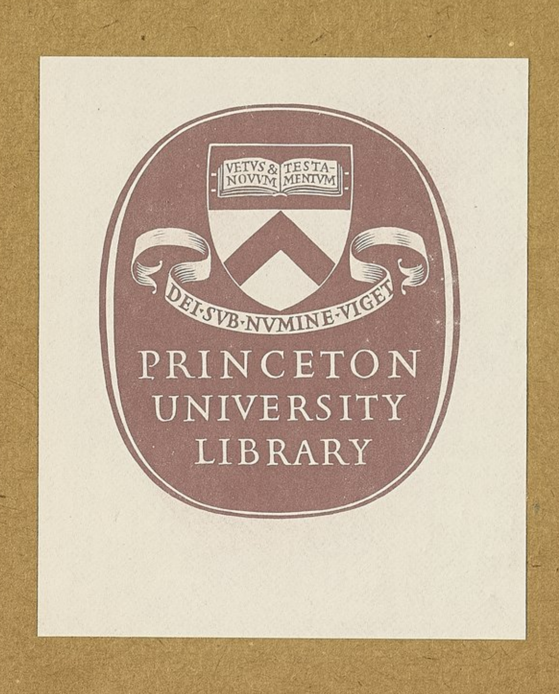
فمن قام بها فقد أدى الأمانة وحفظها ، ومن تعدى فيها أو فرط أو خان فقد تجرأ على الخيانة «العهد والعقد» يشمل العهود والعقود التى بين العبد وبين ربه ، فان الله عقد بينه وبين المكلفين عقداً وعاهدهم عهداً باقامة ماخلقوا له من عبادته والقيام بحقوقه ، فاقامة ذلك وفاء لهذا العقد والعهد وإهماله نقض للعهد والعقد الثمة وكذلك العهود والعقود التى بينه وبين الخلق يتعين الوفاء بها ، ويشمل ذلك عقود المعاملات كلها من دون استثناء « الشجاعة والجبن والتهور » أثنى الله فى كتابه على الشجاعة ومدح أهلها وأمر بها ، وذم الجبن والتهور ، فالشجاعة قوة القلب وثباته وإقدامه على الأقوال والأفعال فى موضع الاقدام بحكمة وحنكة ، فان أقدم عليها فى حال لا يحل له الاقدام قيل لذلك تهور وجراءة وحمق وإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وأما الجبن فهو ضد الشجاعة ضعف القلب وخوره ، ويتبع ذلك خور الاعمال والخوف مما لايخاف وهيبة من لا يهاب ، فالشجاعة خلق فاضل جليل بين خلقين ذميمين رذيلين ، بين التهور الذى هو غلو وزيادة عن الحد ، وبين الجبن الذى هو تفريط وتقصير وضعف وخور ، ونظير ذلك (القوام والبخل والتبذير) فى تصريف الأموال بذلها فيما ينبغى من واجب ومستحب ونافع على الوجه الذى ينبغى ، يقال لذلك قوام واعتدال وتوسط واقتصاد ، فان منع الواجبات فهو البخل وصاحبه بخيل ، وإن أسرف وزاد فى النفقة عما ينبغى قيل لذلك إسراف وتبذير ، قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) « الاستقامة » هى لزوم الصراط المستقيم بأن يستقيم العبد على الايمان بالله وأداء فرائضه وترك محارمه مداوماً لذلك تائباً مما أخل به من حقوقها ، ولهذا قال (فاستقيموا اليه واستغفروه) أى مما وقع منكم من الخلل فى الاستقامة (التوبة والاستغفار) أما التوبة فهى الرجوع إلى الله مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً ندماً على ما مضى وتركاً فى الحال وعزماً على أن لا يعود ، والاستغفار طلب المغفرة من الله ، فان اقترن به توبة فهو الاستغفار الكامل الذى رتبت عليه المغفرة ، وإن لم تقترن به التوبة فهو دعاء من العبد لربه أن يغفر له ، فقد يجاب دعاؤه وقد لا يجاب ، وهو بنفسه عبادة من العبادات ، فهو دعاء عبادة ودعاء مسألة (التوكل على الله والاستعانة به) بمعنى واحد هو اعتماد القلب على الله فى جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية الخاصة والعامة مع الثقة بالله فى ذلك المطلوب (المحبة لله والانابة إلى الله) هى قوة الود لله لكماله ونعمه الظاهرة والباطنة ، وانجذاب القلب الى الله تألهاً ورغبة ورهبة فى كل المطالب وطمأنينة القلب بذكره واللهج بدعائه والرجوع اليه فى الامور الدينية والدنيوية الجليلة والحقيرة فمن كان قلبه منيباً إلى الله فهو محب لله ، والمنيب هو الأواه الرجاع إلى الله الأواب اليه (المعروف والمنكر) متقابلان ، فالمعروف اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعا وعقلا ، والمنكر ضده (الخبيث والطيب) متقابلان ، فالطيب ما كان طيب الصفات كثير المنافع ، والخبيث بالعكس

(حسن الخلق وسوء الخلق) يكون مع الله ومع خلقه ، فحسن الخلق مع الله القيام بعبوديته ظاهراً وباطناً مع قوة محبته والطمأنينة اليه واللهج بذكره وقوة الثقة به ، ومع الخلق بذل الاحسان لهم ومنع الأذى لهم واحتمال الأذى منهم ، وسوء الخلق بعكس ذلك كله (الشرك والكفر) الكفر أعم من الشرك ، فمن جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه بلا تأويل فهو الكافر من أى دين يكون ، سواء كان صاحبه معانداً أو جاهلا ضالا ، والشرك نوعان : شرك فى ربوبيته كشرك الثنوية الذين يثبتون خالقاً مع الله ، وشرك فى ألوهيته كشرك سائر المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ، ويشركون بينه وبين المخلوقين ، ويسوونهم فى الله فى شىء من خصائص إلهيته . وقد يكون هذا الشرك أكبر جلياً ، كأن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، وقد يكون أصغر . كوسائل الشرك من الرياء ، والحلف بغير الله ونحو ذلك (النفاق) هو أن يظهر الخير ويبطن الشر . وهو نوعان : نفاق أكبر ، كأن يظهر الايمان بالله ورسوله وقلبه منطو على الكفر ونفاق أصغر ، كالكذب وإخلاف المواعيد والفجور فى الخصومة (الكبر والتواضع) فسر النبى ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس ، يعنى وضده التواضع للحق قبوله حيث كان ومع من كان ولين الجانب والتواضع للخلق .

فهذه الحدود ينبغى أن تعتبرها فى كل مايمر عليك من نصوص الكتاب والسنة لتهتدى إلى معرفة ما يدخل فى الأمور التى حكم الله عليها بالأحكام المتنوعة ، ومالا يدخل فيحصل لك الفرقان والرشاد والبيان ، فنسأل الله أن يهدينا إلى الصراط المستقيم ، وهو العلم بالحق والعمل به ويجنبنا الطرق المخالفة لذلك .

وقد يسر الله تتميم هذا التعليق المبارك فى ثالث شوال من شهور سنة ثمان وستين بعد الثلاثمائة والألف من الهجرة النبوية ، فكان على اختصاره وإيجازه ووضوحه فيه معونة عظيمة على فهم كلام رب العالمين ، وان كلام الله كفيل ببيان كل شىء ينتفع به العباد فى معاشهم ومعادهم وارشادهم إلى كل ما فيه مصالحهم المتنوعة ومنافعهم المتعددة ، وأنه يتعذر الصلاح والاصلاح للأحوال كلها إلا بسلوك الطرق التى أرشد اليها هذا القرآن فى أصول الدين وفروعه ، وفى الاخلاق والآداب ، وفى الأمور الداخلية والخارجية ، والحمد لله الذى جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . بخط الفقير إلى الله من كافة الوجوه عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين ، ووقع الفراغ من نقله من خط المؤلف فى سابع من الشهر المذكور والسنة المذكورة بقلم الفقير إلى ربه محمد السليمان العبد العزيز البسام ، غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين

(فهرس كتاب خلاصة التفسير)


VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY